

مَنَامٌ مِنَ الْعِزْلَةِ



جَابَرِيْل غَارَسِيَا مَارَكِيْز

الحاضر على جبهة نشر نونيل للأدب



مئة عام من العزلة

مجمع محفوظ الطبعة والنشر
محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩١



دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء - ص.ب. ٥٧٢٠ / ١١٣

دمشق : الحجاز - ص.ب. ٦٢٠٨

هاتف ٢٢٥٣٢٦ - بمل توما ٤٩٨٥٧

مقدمة

لئن كانت هذه الرواية هي الثالثة في ما نقدمه في روايات من أعمال الكاتب الكولومبي الأشهر جابرييل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل في الادب « ١٩٨٢ » بعد روايتي « الضحية » و « ليالي الحب والرعب » المنشورتين في ابريل ونوفمبر ١٩٨٣ ، الا أنها معدودة على النطاق الأدبي العالمي قمة أعماله التي نيفت على العشرة، حتى أصبحت إحدى الشوامخ في الفن الروائي قديمه وحديثه، وجلبت له من الشهرة واليسر ما عوضه عن كفاحه الطويل لتحقيق هدفه كواحد من أبرز اعلام الادب المعاصر، ومن ثم كان الأجدر ان نستهل بها رواياته في ما ننقله منها الى العربية لأول مرة، لولا أن أثرنا إرجاءها الى ما بعد نشر روايتيه أنفتي الذكر، ليكون القارئ بعد تذوقهما أكثر توقاً الى هذه الرائعة بصفة خاصة، وأشد إقبالاً عليها، وأوفر قسطاً من المتاع بها . والواقع ان القارئ لا يملك الا أن يلهث طوال قراءتها وأن يستبق صحائفها حتى يشفى منها على النهاية بغير انقطاع ولا يلبث وهو متأثر أشد التأثير مبهور غاية البهر بما يجليه المؤلف من غرائب الاحداث وخوارق الوقائع ودخائل المشاعر ودقائق التحليلات وعظائم المفاجآت . حشدتها جميعاً على صعيد واحد وعلى مدار عشرة عقود من الزمان لأسرة لعله لم يخلق مثلها في التفرد والغربة، وكل ذلك في اقتدار وبراعة بالغين، وفي شمول جامع لا تند منه هنة من الهنات، وفي إحكام

وثيق لا تشرذ فيه من أوله الى آخره شاردة، متفرداً في كل أولئك بما لم يضارعه فيه سوى قلة قليلة من أساطين الفن الروائي من طراز هوجو وبلزاك ودوستوفسكي وتولستوي وتوماس مان وديكنز وأضرابهم... وإذا كان لا يسوغ في هذه العجالة ان نعرض لصلب الرواية ببيان قد ينال من متاع القارئ بها، فإن هذا لا يمنع من ارجاء بعض اللمحات الطائرة من وقائعها وشخصها ومناحيها الفكرية والنفسية والحسية، لتكون مدخلاً الى هذا الحشد القصصي الضخم، وللقارئ بعد ذلك أن يستأثر وحده بالسياق الخصب والمتعة السائغة غير منقوصين، منوهين فحسب بأن الغواية كانت هي السمة المشتركة في ما تعاقب على أبطالها من أحداث وما اضطرم فيهم من نوازع، وهي آفة ظلت لمتها تطاردهم حتى آخر فرد من سلالتهم... فاشهد معي على هذه اللمحات :

«... لم يكن يعرف سر مولده قط، ولكن تلك المرأة كانت تضمم النيران حامية في عروقه كلما اقتربت منه... كانت تذكي مشاعره بقوة خارقة مثلما كانت بالنسبة لابن المارد الهمجي ومن بعده عمه المسحوب، وعندما وافته الفرصة للانفراد بها اشتد هلعها وإن عجزت عن مكاشفته بأموئتها له، ولم يتركها الا على موعد ليلي، ولكنه ظل طول الليل يتقلب على جمر من سحر عواطفه الى أن...»



«... ولقد ظل على عزله وانطوائه الى أن حدث ما جعله يواجه واقع الدنيا بمقدم تلك المرأة التي حيته بمعرفة أكيدة لم تثر دهشته اذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين أخيه التوأم، بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن منحه حبها... وبعد انقضاء أسابيع تحقق أن المرأة كانت تعاشره مع أخيه التوأم معتقدة أنهما شخص واحد...»



« . . . وكادت الجدة تفقد عقلها بشذوذ أطوار ذريتها، حتى لكأن نقائص الأسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت فيهم، ولهذا نذرت في نفسها أن تتولى بنفسها تربية وصياغة هذا الحفيد ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للأسرة مكانتها الذاهبة : الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات . . . وهي العوامل التي عدتها هادمة لكيان الأسرة على مدار المائة عام من تسلسلها . . . الى أن روعت به في النهاية وقد استحالت الى . . . »

« . . . والحق أن هذه الفتاة التي لقبوها بالجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا . . . كانت الجدة الكبرى تحمد الله أن منح الأسرة فتاة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كان يقلقها في نفس الوقت مثل هذا الجمال الذي عدته شركاً شيطانياً تحت طابع البراءة . . . كانت الفتاة تؤثر البساطة في كل شيء، ولهذا داست على الأزياء النسائية وخاطت لنفسها ثوباً فضفاضاً كالجلباب غير مبالية بأنها تبدو فيه شبه عارية . . . وحلقت شعرها بعد أن رأتهم يؤنبونها لتركه مرسلًا حتى الفخذين . . . وكان الشيء المروع في هذا كله أنها كلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لبساطتها وعفويتها، كلما بدا جمالها الصارخ أشد اثارة، وإغراؤها للرجال أعنف وأفدح، ولم تدر أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مذكية للمشاعر مثيرة للاضطراب هو كارثة يومية محققة، الى أن تحققت الكارثة . . . »

« . . . ولقد بلغت البلية ذروتها عندما جاء بالمولود الى البيت الكبير . . . فاضطرت هذه التي أصبحت جدة قبل الاوان الى اخفائه عن العيان حتى تتدبر الامر، بعد أن أعوزتها الشجاعة لإغراقه في الصهريرج

تخلصاً من العار، ثم زعمت في ما بعد أنهم وجدوه في سلة طافية في النهر...»

«... نشأت هي وهو في رحاب البيت الكبير يلعبان ويلهوان طوال سني الطفولة... وبعد عودتها الى البيت بعد طول السنين بصحبة زوجها المطواع الذي طوقت رقبته بحبل من حرير وجدت سليل الأسرة ورفيق الطفولة مارداً حتى لقبته بالمتوحش مداعة... وأصبح ثلاثهم كل الماقين في البيت المهجور... ولم تلاحظ أول الامر هذا التغير الكبير الذي طرأ عليه منذ عودتها... كان لا يزال على انطوائه وحيائه عندما عانقته كأخت وتركته لاهث الانفاس، يهرب ما استطاع من مداعبات تلك الخالة الفتية التي أصبحت تقض مضجعه وتسمم ليلاليه... الى أن جاء ذلك اليوم المستطير الذي أبصرها فيه برداء الحمام، فتبعها على أطراف أصابعه...»

«... وشد ما كان ارتياحهما عندما اكتشفت القابلة ان آخر سلالة الاسرة هذا الذي تلقفته لتوها من بطن أمه له ذيل خنزير... إذن فقد صدقت الاسطورة التي توارثتها الاسرة جيلا بعد جيل : من أن تزواج الاقارب يثمر هذا المسخ الشيطاني...»

«... ومضى رغم ذلك في حياته المأجنة العابثة معرضاً عن زوجته، فقد عد ان ما ناله من ثراء موفور انما كان وليد علاقته بتلك العشيقة، منذ كانت الافراس تلد ثلاثاً كل مرة، والدجاج يبيض مرتين في اليوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة أن أحداً لم يصدق هذه الخصوبة الغريبة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود...»

هكذا ترى أن الغواية كانت هي القاسم المشترك في حياة هذه الاسرة الغربية نساء ورجالاً حتى امتدت لعمتها الى آخر سليل منهم . . وإنما أروع ما في هذا كله هو قدرة هذا المؤلف القدير على حشد أجيال الاسرة جميعاً بين دفتي روايته، وربط أحداث حيواتهم برباط وثيق لا تفكك فيه، وتحليل نزعاتهم ومشاعرهم، ذلك التحليل الدافذ العمق الى الدخائل، وإن اقتضى ذلك تعرية شتى منازعهم على حقيقتها بغير مداراة ولا تزويق، حتى تجدك تتقلب في عالم مائج صاخب فوار، ولكنه يمتع عقلك، ويذكي خيالك، ويستأثر بإعجابك بالكاتب الذي نوهت لجنة جائزة نوبل بأن من أسباب استحفاقه للجائزة العالمية أسلوبه الفذ الذي يجمع بين الخيال والواقع، وهو الكاتب الذي ظل مدى ستة عشر عاماً يفكر في هذه الرواية وهي تختمر في ذهنه وتعتمل في وجدانه حتى اكتملت لديه عناصرها، فتوفر على تأليفها قرابة عامين متخلياً عن كافة شؤون أسرته الى زوجته على الرغم من ثقل اعبائه، حتى اذا اتسقت له عملاً سوياً ناضجاً وتم نشرها أكسبته شهرة مستفيضة، ودرت عليه يسراً عوضه عن بأساء حياته الفانية، وتربعت عملاً مجيداً في عداد التراث الادبي العالمي . .

وبعد، فما أحسبني، والقارىء مشوق الى الرواية ذاتها دون مزيد من الإفاضة، بحاجة الى التحدث عن سيرة المؤلف تفصيلاً وقد اوردتها بإسهاب في روايتي سالفتي الذكر، وإنما اجتزئ هنا ببيان أهم أعماله وهي حسب تسلسل صدورهما منذ عام ١٩٥٣ حتى الآن : (عيون الكلب الأزرق)، (الأوراق الذابلة)، (أرينديرا وجدتها القاسية)، وقد صدرت بعنوان (الضحية)، (مأتم الأم الكبرى)، (ساعة النحس)، وقد صدرت بعنوان : (ليالي الحب والرعب)، (لا أحد يكتب الى الكولونيل)، (مائة

عام من العزلة) ، الرواية الحالية بعنوان : (لعنة الغواية) ، (خريف
البطريق) ، (وقائع موت معلن عنه) .

والى اللقاء في التحفة الرابعة من روائع هذا الكاتب المبرز، نجلوها
الى القارىء في عدد قادم من روايات الهلال بعون من الله وهو ولي التوفيق .

محمود مسعود

الفصل الأول

كان على الكولونيل (أوريليانو بوينديا) ان يتذكر بعد طول السنين وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، عصر ذلك اليوم البعيد عندما صاحبه أبوه لاكتشاف الثلج . . . في ذلك العهد كانت (ماكوندو) قرية مؤلفة من عشرين بيتاً من الطوب النقي، بنيت على ضفة نهر صافي المياه تبدو في قاعه احجار مصقولة أشبه في بياضها وضخامتها ببيض حيوانات ما قبل التاريخ . . . وكانت الدنيا غضة الى حد أن كثيراً من الأشياء كانت تنقصها المسميات، ليستعان على وصفها بالإشارة . . . وفي كل عام كانت تغد على القرية في شهر مارس اسرة من (العجر) المهلهلين، تنصب خيامها خارج القرية، وبين لعلعة المزامير ودق الطبول المدوية تأخذ في عرض العديد من المخترعات . . . وكان أول ما جاءوا به هو المغناطيس . . . ووقتها قام «عجري» منهم متين البنيان منفوش اللحية قدم نفسه باسم (مالكويداس) بعرض جريء سماه العجيبة الثامنة لعلماء الكيمياء المتتورين في مقدونيا . . . ومن بيت الى بيت راح يجر كتلتين معدنيتين، فيثير ذهول الناس اذ يبصرون أوانيهم المعدنية وهي تتهاوى من مواضعها، وإذ يسمعون الالواح الخشبية وهي تصر صريراً بتأثير حركة المسامير وهي تكاد تنتزع من أماكنها، بل وإذ يرون كثيراً من الأشياء التي كانت مفقودة بعد طول بحث وتفتيش تظهر من مخائبها وتسحب سحباً في اثر كتلتي مالكويداس السحريتين . . . وفي ذلك كان مالكويداس يقول للناس المذهولين بصوته الأجش : «لكل شيء من الأشياء حياته الخاصة . . . والمسألة ببساطة هي بحث اليقظة في أرواحها» . . . وعندئذ فكر (جوزيه أركاديو بوينديا) الواسع الخيال في أنه من

الممكن الانتفاع بهذا الاختراع العديم الجدوى في استخراج الذهب من باطن الارض... ولكن مالكويداس الذي كان رجلاً قوياً قال له : «إن الاختراع لا يتمشى مع هذا» . . . يد أن جوزيه لم يكن يؤمن في ذلك الحين باستقامة (الفجر) ؛ وهكذا قابض على كتلي المغناطيس ببغلة وعزتين . . . ولم تستطع زوجته (أورسولا اجواران) التي كانت تعتمد على هذه الحيوانات في زيادة دخلهما المتواضع ان تثنيه عن عزمه، اذ قال لها : «عما قريب سيكون عندنا من الذهب ما يكفي لتبليط أرضية البيت» . . . وقد ظل شهورا طويلة يعمل دائماً لإثبات صحة فكرته . . . فراح يستكشف كل شبر في المنطقة، حتى قاع النهر، ساحباً كتلي المغناطيس ومردداً تعاويد مالكويداس بصوت مسموع . . . وكان الشيء الوحيد الذي افلح فيه هو استخراج جسم مدرع من القرن الخامس عشر تصلبت اجزائه بفعل الصدأ . . . وعندما تمكن جوزيه وأفراد بعثته الاربعة من تفكيك الجسم، لم يجدوا بداخله سوى هيكل عظمي متكلس تدلت حول عنقه ايقونة نحاسية بها شعر امرأة . . .

وفي مارس من كل عام كان (الفجر) يعودون الى القرية وفي جعبتهم اختراع جديد . . . جاءوا مرة بتلسكوب وعدسة مكبرة بحجم طبله، فجعلوا امرأة منهم عند طرف القرية ووضعوا التلسكوب في مدخل خيمة، وبشمن قدره خمسة سنتات بالعملة المحلية، كان في مقدور من يدفع ان ينظر من التلسكوب فيبصر المرأة (الفجرية) على قيد ذراع منه، لا أكثر . . . وكان مالكويداس يقول في هذا : «إن العلم قد ألغى المسافات . . . وبعد زمن قصير سيكون في قدرة الانسان أن يرى ما يحدث في أي مكان في العالم دون ان يغادر بيته» . . .

وفي عرض مثير آخر وقت الظهيرة سلطوا العدسة المكبرة الضخمة على كوم قش في وسط الشارع، فاشتعلت نار حامية أتت عليه عن آخره . . .

وسرعان ما أوحى ذلك بفكرة جريئة الى (جوزيه اركاديو بوينديا) تعزیه عن الفشل في استغلال المغناطيس لاستخراج الذهب، وهي استخدام هذا الاختراع كسلاح حربي... وهكذا قاىض مالكويداس على اقتناء العدسة مقابل كتلتی المغناطيس وثلاث قطع من العملة الذهبية مما ورثته زوجته عن أبيها، وكانت تخفيها في الارض تحت الفراش انتظاراً لاستغلال القطع كلها استغلالاً نافعاً في المستقبل، غير عابىء ببكائها وحزنها... وإثباتاً لآثار العدسة المحرقة على جنود العدو، فقد عرض جسده لأشعة الشمس المركزة من خلال العدسة الضخمة، وكانت النتيجة اصابته بحروق خطيرة كادت تودي بحياته واستغرق وقتاً طويلاً للشفاء منها، بل لقد تعرض البيت كله للحريق!... ومع ذلك سرعان ما نشط جوزيه لإعداد تقرير مفصل عن اختراعه الخطير الذي سماه (الحرب الشمسية) وبعث به مع رسول خاص الى الحكومة مبدياً تمام استعدادة للسفر وشرح كافة التفاصيل وتدريب الجنود على استخدام السلاح الفتاك متى جاءته الموافقة... ولكن الرسول كاد يهلك في الطريق الى العاصمة بين الجبال والمستنقعات والقفار... وظل جوزيه ينتظر سنوات عديدة حتى يش من وصول الرد... ولما عاد مالكويداس في رحلة (العجبر) السنوية واستمع الى شكوى جوزيه المحزونة بسبب فشل مشروعه الحربي، طيب خاطره ورد اليه القطع الذهبية مقابل استعادة العدسة المكبرة، ثم أتحفه هذه المرة - تدليلاً على اخلاصه ومودته - بخرائط جغرافية وادوات ملاحية وفلكية، أفرد لها جوزيه غرفة صغيرة خلف البيت وعكف على اجراء تجاربه العلمية، مهملاً شؤون أسرته، تاركاً زوجته وولديه يقصمون ظهورهم في فلاحة الارض لاستنبات ما يأكلون... وكم روع أفراد الأسرة كلها ذات يوم من شهر ديسمبر عندما جمعهم وقال لهم برصانة وجد بالغين: «لقد اكتشفت من أبحاثي العلمية والفلكية ان الارض مستديرة، مثل برتقالة...».

عندئذ لم تتمالك زوجته أورسولا ان صرخت فيه: «اذا كان لا بد أن

نجن، فلتجن وحدك ! . . لكن لا تحاول أن تثب ترهات الغجر في عقول أطفالك ! . . .

بيد أن جوزيه لم يتأثر بما ابدته زوجته من جزع وياس، فقد جمع رجال القرية وشرح لهم نظريته بأن الانسان يستطيع ان يعود الى المكان الذي يبدأ منه رحلته اذا واصل الإبحار شرقاً . . ولكنه زادهم اقتناعاً بأنه فقد عقله، وظل الحال كذلك الى أن عاد مالكويداس وأثنى بينهم علناً على ذكاء رجل منهم استطاع باستدلالاته المحضة اثبات النظرية التي تم اثباتها فعلاً وعملاً في العالم الخارجي، وإن لم تكن معروفة من قبل في القرية، وتأكيذا لفرط اعجابه بهذا الرجل القدير فقد اهداه شيئاً كان مقدراً ان يكون له تأثير عميق على مستقبل ماكوندو : ألا وهو (معمل كيميائي) . .

كان المعمل البدائي يشتمل على مجموعة كاملة من الانابيب والقناني والاوناني الزجاجية العجيبة، الى جانب مختلف الاحماض والمساحيق والمعادن التي قبل ان بينها المعادن السبعة الرازمة الى الكواكب السبعة . . . ولما كان جوزيه قد استهوته سهولة الوصفات التي اطلع عليها لمضاعفة اية كمية من الذهب، فقد راح يتودد الى أورسولا مدى أسابيع لكي تسمع بإخراج جنيهااتها الذهبية المدفونة تحت المريز، حتى يعمل على مضاعفتها لها أضعافاً كثيرة . . وفي النهاية لم تستطع أورسولا سوى التزول عند رغبة زوجها إزاء إلحاحه وإصراره . . . وعندئذ ألقى جوزيه الجنيهاات في اناء وخلط بها مقادير من النحاس والكبريت وكبريتور الزرنيخ والرصاص، ثم جعلها تغلي في وعاء به زيت المخروج حتى استحالت الى سائل كثيف بدا في شكله اقرب الى (الكراملة) العادية منه الى الذهب الثمين . . وبعد عمليات خطيرة للتقطير ثم الخلط بالمعادن الكوكبية السبعة والزرنيق ثم التبريد في النهاية، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصفت في ناع الإناء التصافاً لا فكاك منه ! .

كانت هذه التجربة المريرة باعثة على حزن جوزيه حتى نفص يديه بين عشية وضحاها من القيام بمزيد من التجارب في عالم الكيمياء. . وانصرف عن كل شيء حتى الاكل، وراح يدور في أرجاء البيت مغموما، ولكنه كان يقول لزوجته أورسولا : «هناك أشياء لا تصدق تحدث في الدنيا. في ما وراء النهر الذي يحد قريتنا، هناك كل أنواع الادوات السحرية العجيبة، ونحن نعيش هنا كالحمير» . . .

والحق ان (جوزيه اركاديو بوينديا) كان طوال شبابه مجدا مكافحا متفانيا في رعاية أسرته ومتعاوناً مع جيرانه في العمل على رفاهية القرية، واليه يرجع الفضل في تخطيط ماكوندو على نظام منسق بديع حتى أصبحت سكانها الثلاثمائة افضل من كل قرية اخرى معروفة في ذلك العهد، لا يزيد عمر كل فرد من أبنائها عن الثلاثين، ولم تحدث فيها وفاة واحدة. . .

بيد أن هذه الروح الاجتماعية الوثابة ما لبثت ان اختفت بعد ظهور حمى المغناطيسات، والادوات والحسابات الفلكية، وأحلام تحويل المعادن الى ذهب، ومضاعفة مقاديره، وشهوة اكتشاف عجائب العالم. . وهكذا إستحال جوزيه من إنسان نظيف نشط الى شخص كسول في مظهره مهمل في ملابسه اشعث اللحية حتى اضطرت أورسولا الى تقليمها له بعد جهد كبير مستعينة بسكين المطبخ. . . وكثيرون هم الذين اعتقدوا انه أصبح ضحية لون من السحر غامض خفي. . .

وفي هذا قالت له أورسولا ذات يوم :

- بدلا من أن تنهك هكذا في اختراعاتك الجنونية ومشروعاتك المتوهوسة، يجب ان تشغل بتربية اولادك. . . انظر الى الحالة التي وصلوا اليها، وهم يجرون في كل مكان شاردين مثل الحمير. . .

وفعلا نظر جوزيه من النافذة، فشاهد ولديه يلعبان في الحديقة

حافين، وبدا له انه لم يشعر بوجودهما الا في هذه اللحظة... وظل يتأملهما حتى تندت عيناه بالدموع، وما لبث ان جفقهما بظهر يده، وقال وهو يتنهد ممثلاً :

- لا بأس... قولني للولدين أن يأتيا لمساعدتي في جمع ادواتي..

كان (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر في الرابعة عشرة.. وكان مربع الرأس، كثيف الشعر، يماثل أباه في متانة البنية، ولكن يقصر عنه في التفكير وقوة التخيل.. وكان مولده اثناء رحلة الاسرة بين الجبال، قبل تأسيس قرية ماكوندو، وقد حمد ابواه ربهما اذ لم يولد بملامح حيوانية... وكان (أوريليانو) أول مخلوق بشري ولد في ماكوندو، يناهز السادسة من عمره، وكان أميل الى الصمت والعزلة والانطواء.. لقد سمع بكأوه وهو لا يزال في رحم أمه، وولد وهو مفتوح العينين... وعندما قطعوا الجبل السري جعل يدبر رأسه من جانب لجانب متطلعا الى ما في الغرفة من أشياء ومتفحصا الوجوه من حوله بفضول لا يخالطه أي خوف... وبعدها لم يعبأ بمن اقتربوا منه للنظر اليه، وركز نظراته في السقف المصنوع من النخيل والذي بدا كأنما يوشك ان يخر تحت وطأة المطر الدافق المنهمر..

ومنذ تلك اللحظة التي استرعت فيها اورسولا نظر الاب الى ولديه، عكف جوزيه على تعليمهما القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ولم يفته ان يحدثهما عما في العالم الخارجي من عجائب، مضيفا اليها حصيلته الذاتية من التخيلات والاحلام، بل والتخرصات والاهام..

والواقع ان هذه (الهلوسة) ظلت محفورة في ذاكرة الصبيين الى حد بعيد حتى أن (الكولونيل اوريليانو) لم ينس بعد طول السنين (وهو واقف امام فريق الرماة ينتظر اشارة الضابط لإطلاق النار) مشهد أبيه عصر ذلك اليوم الحار من شهر مارس، اذ قطع درس الفيزياء الذي كان يلقيه لولديه،

ووقف مبهورا رافع اليد جامد العينين ، مرهقا سمعه الى الاصوات البعيدة المتدانية الصادرة عن زموور وطبول «الفجر» القادمين الى القرية مرة اخرى، ليتحفوا أهلها بمزيد من أعاجيب العالم الخارجي . . .

كانوا في الحق طرازا جديداً من (الفجر)، شبانا ونساء لا يتكلمون سوى لغتهم، لهم بشرة زيتية وأيد بارعة، بثت رقصاتهم وموسيقاهم البهجة والروع في الشوارع، ومعهم ببغاوات من كل الالوان ترطن الايطالية، ودجاجة تضع مائة بيضة ذهبية على دق الدفوف، وقرود مدرب يقرأ الطالع، وجهاز متعدد القوائد التي تشمل الشفاء من الحميات ومساعدة الانسان على نسيان ذكرياته الاليمة، وعشرات اخرى من (المخترعات) المبتكرة الفريدة، حتى أن (جوزيه اركاديو بوينديا) ود لو استطاع ان يخترع هو نفسه جهازا للذاكرة يمكنه من استيعاب كل هذه العجائب واختزانها جميعا في وعيه . . .

في لحظة واحدة سحر (الفجر) القرية كلها . . وألفى سكان ماكوندو انفسهم تائهين في شوارع قريتهم، مذهولين من فرط ما يرون من الأعاجيب . . .

وراح (جوزيه اركاديو بوينديا) وهو ممسك بولديه حتى لا يضيعا في غمار الزحام يشق طريقه بين بهلوانات ذوي أسنان مذهبة وحواة ذوي ستة أذرع وروائح خائفة من السباح والاثربة، باحثا عن مالكويداس لكي يكشف له عن مزيد من الاسرار . . وفي هذا سأل عديد (الفجر) الذين لم يفهموا لغته، الى أن وصل في النهاية الى الموضع الذي اعتاد مالكويداس أن ينهب فيه خيمته . . فوجد ارميا كان يعلن بالاسبانية عن شراب يجعل الانسان مخفيا عن العيان . . فقد شرب كأسا من مادة عنبرية بجرعة واحدة عندما اقرب منه جوزيه مع ولديه بين الجمع المنهبر لمشاهدة هذه الخوارق، واستطاع جوزيه ان يتجه اليه بسؤاله . . . واذا (الفجري) يرميه بنظرة شاملة

مخيفة قبلما تحول الى بركة دخانية خانقة تردد من فوقها صوته وهو يقول :
« إن مالكويداس قد مات » ...

لقد حزن جوزيه لهذا النبأ الاليم وجمد في مكانه برهة الى ان تفرق
الجمع منجذبين الى فنون الألعاب السحرية الأخرى بينما تبخرت في خلال
ذلك بركة الأرمني الدخانية. . . وتحت اصرار ولديه لرؤية اعجوبة الأعاجيب
المعلن عنها انتقل معهما الى خيمة اخرى دخلوا اليها بعد دفع ثلاثين سنتا،
فشاهدوا مارداً أشعر الجسد حليق الرأس تتدلى من أنفه حلقة نحاسية وتلنف
حول كاحله سلسلة حديدية ثقيلة وأمامه صندوق قرصاني كبير. . . وعندما فتح
المارد الصندوق انبعثت منه رائحة ثلجية. . . ولم يكن بداخله سوى كتلة
شفافة ضخمة بداخلها ابر لا عداد لها وقد تكسر عليها ضوء الغروب بنجوم
ملونة. . . واجترأ جوزيه ان يغمغم لولديه بتفسير لا بد منه :

- هي أكبر ماسة في الدنيا . . .

ولكن المارد رد عليه مناقضا :

- لا . . . انها ثلج . . .

لم يفهم جوزيه، ومد يده في اتجاه الكتلة الكعكية، بيد أن المارد
ردها قائلاً :

- خمسة سنتات اخرى نظير اللمس . . .

فدفع جوزيه، ووضع يده على كتلة الثلج، وأبقاها بضع دقائق وقد
امتلاً قلبه بالخوف والبهجة معا للمس هذا الجسم الخفي. . . وما لبث أن
دفع عشر سنتات اخرى تمكينا لولديه من ملامسة هذه الخارقة دون أن يحير
قولا. . . فأما (جوزيه اركادير) الابن الأكبر فقد رفض اللمس. . . وأما
(أوريليانر) فقد تقدم خطوة ووضع يده عليها ثم سحبها في الحال هاتفا :

«إنها تغلي !» . . . ولكن جوزيه الأب الذي أسكرته هذه المعجزة فقد نسي مشروعاته المحمومة وحزنه لفقد مالكويداس معلمه ومشيره الحكيم ودفع خمسة سنتات أخرى ووضع يده من جديد على الكتلة المتلألئة بخشوع وقداسة، وهتف قائلا :

- هذا اعظم اختراع في زماننا . . .

الفصل الثاني

كان سر اهتمام (جوزيه اركاديو بوينديا) بالثلج هو حلم تراءى له في منامه ذات ليلة وهو في الطريق الى ماكوندو لأول مرة، عن مدينة جدرانها من المرايا... : ولم يستطع ان يفسر هذا الحلم الا يوم اكتشف الثلج عند (الغجر)... : وقد بدا له أنه سوف يستطاع في المستقبل القريب صنع كتل هائلة من الثلج على نطاق واسع من مادة عادية كالماء، ومن الكتل تبنى بيوت جديدة للقرية، وهكذا لا تبقى ماكوندو مكاناً يتلظى بالحرارة. بل تتحول الى مدينة تحتل الحياة فيها... وإذا كان لم يثابر في محاولاته لإقامة مصنع ثلج، فذلك لأنه كان في ذلك الحين منهمكا أشد الانهماك في تعليم ولديه، خصوصاً أوريليانو، الذي تعلق منذ البداية بالكيمياء... وقد عكف الاثنان فعلا على محاولة فصل بقايا ثروة أورسولا الذهبية الملتصقة بقاع الإناء واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها... أما (جوزيه اركاديو) الابن الأكبر فقد عزف عن المشاركة في هذه المحاولة. والواقع ان هذا الابن كان ذا ارادة وعزم، وقد نما جسمه بصورة مفرطة، حتى اذا بلغ سن المراهقة كان أقرب الى صورة مارد... وفي تلك الايام ترددت على البيت امرأة عرفت بالمرح والإثارة وطلاقة اللسان للمساعدة في أعمال المنزل، وكانت تعرف قراءة الطالع بأوراق اللعب... وقد حدثتها أورسولا عن ولدها وعن خشيتها من حجمه المجاوز لسنه، فأطلقت المرأة ضحكة رنانة وقالت لها : «بل بالعكس، انه سوف يكون سعيد الطالع»... ولكي تثبت المرأة نبوءتها جاءت الى البيت بعد ايام قلائل ومعها اوراق كشف الطالع وأغلقت على نفسها الباب مع الفتى في غرفة خلفية... فكانت هذه الخلوة ايداناً بانقلاب

خطير في اطواره واذكاء مشاعره العاطفية . . .

كانت هذه المرأة تدعى (بيلا تيرنيرا) ، وكانت من أفراد الفريق الذي وفد مع جوزيه الأب لتأسيس ماكوندو، جاءت بها أسرتها عنوة للتفريق بينها وبين الرجل الذي اغواها وهي في سن الرابعة عشرة وظلت علاقتهما سراً حتى بلغت الثانية والعشرين دون أن يحسها بالزواج . . .

فهل كان عجباً ان تجد هذه المرأة في جوزيه الابن خير عوض لها عما فقدته في ذلك العشيق الآبق ؟ . . . بل انها تمادت في هذا الى حد أنه أصبح يتسلل كل ليلة الى بيتها في غفلة من أهله وأهلها . .

وكان جوزيه الابن يجلس نهاره غارقاً في ذكريات نشوته الجديدة حتى أنه لم يكد يفهم معنى لهذه الضجة التي شملت البيت كله فجأة عندما راح أبوه وأخوه الأصغر أوريليانو يعلنان في بهجة غامرة نبأ نجاحهما أخيراً في استخلاص ذهب أورسولا من قاع الإناء وتلقته مما علق به من شوائب . . . وكانت أورسولا سعيدة غاية السعادة بهذه النتيجة، الى حد انها راحت تحمد الله من أجل اختراع الكيمياء، وذهبت تقدم الحلوى والفاكهة الى أهل القرية الذين توافدوا على الدار لمشاهدة هذه العجيبة، وكان جوزيه الأب يريهم الذهب مزهراً وكأنه استنبطه من لا شيء . . وفي النهاية وقف به أمام ابنه الأكبر الذي لم يكن يراه في المعمل الكيميائي في الايام الاخيرة الاندراً ، وسأله :

-كيف تراه ؟ . . .

فأجاب جوزيه الابن ببساطة :

-مثل براز كلاب . . .

فما كان من الاب الا أن لطمه بظهر يده لكمة أسالت دمه ودموعه . . . وفي تلك الليلة وضعت له بيلا تيرنيرا (كمادات) فوق الورم، وبذلت له من

حبها ما جعله يهمس في سمعها لئلا يسمعه أحد من أهلها وهما في غرفة نومها :

- أريد أن أكون معك وحدنا . . سيأتي يوم أقول فيه للناس ما بيننا، وبعدها لانتحاج الى هذا التستر . . .

فقالت له دون أن تحاول صده :

- لو تم هذا لكان شيئا جميلا . . اذا اصبحنا وحدنا فسيكون بالامكان ان نترك المصباح مضاء لكي اراك وتراني، بدل هذا الظلام من حولنا. وسيكون لي أن ارفع الصوت وأصرخ دون أن يتدخل أحد، وسيمكنك ان تقول لي علنا ما يخطر ببالك . . .

إن هذا الحوار الهامس، وغضبه لما ناله من أبيه، وتشوقه للانطلاق في غرامه هذا الى أبعد مدى . . كل هذا قد بث فيه روح الجرأة، حتى اندفع في لحظة عفوية الى مكاشفة أخيه بحل شيء . . وأول الامر لم يفهم أوريليانو الصغير سوى فكرة المجازفة، واحتمال الخطر الذي تعنيه مغامرة أخيه، ولم يستطع ان يفهم الإثارة التي اشتملت عليها . . وشيئا فشيئا سرت اليه عدوى القلق، وأصبح يتساءل في نفسه عن كنه الاخطار ويتلمس تفاصيل المعاناة والبهجة التي يتعرض لها أخوه، حتى لقد جعل يسهر انتظارا لعودته حتى الفجر . . . ولم يطل بهما الوقت حتى اصبحا يكابدان آثار السهر، ويشاركان في العزوف عن الكيمياء وما يثب فيهما الأب من تعاليم وحكمة، ولم يجدا ملاذا الا في العزلة والانطواء . . . وعندما فطنت أورشولا الى حالهما قالت :

- إن الولدين قد اختل عقلهما . . لا بد أن عندهما ديدانا . . .

وبادرت فأعدت لهما (شربة) كريهة ارغمتها على تناولها حتى لقد تبرز كلاهما احدى عشرة مرة في يوم واحد، مفرزين طفيليات وردية اللون أبهجهما أن يراها للجميع، اذ هيا لهما ذلك خداع أورشولا وتحويل نظرها

عن المصدر الحقيقي لاضطراب احوالهما . .

وفي الساعة الثانية من صباح يوم خميس في يناير وضعت أورسولا الحامل في شهرها التاسع ابنتها (اماراتا) . . وعندما فحصتها الام وهي وحدها وجدتها خفيفة مائة مثل ورل صغير، ولكنها حمدت الله اذ كانت كل اعضائها بشرية (كان هذا الخوف المتكرر من جانب الام عقب كل ولادة مرجعه الى اسطورة مؤداها أن زواجها بين اثنين من أسلاف أسرتها وأسرة زوجها من الاقارب قد انجب ولدا له ذيل خنزير وقد عاش متخفيا حتى سن الاربعين في ملابس فضفاضة الى أن قطع قصاص ذيله بسكين فتزف حتى الموت) . . .

ومهما يكن فإن أوريليانو لم يلاحظ هذا الحدث الجديد الا عندما امتلأ البيت بالناس فانتهاز فرصة الهرج وخرج للبحث عن أخيه الذي لم يبت معه في الفراش منذ الساعة الحادية عشرة، وكانت هذه الفكرة مفاجئة اذ لم يخطر بباله كيف يمكنه استدراج اخيه من غرفة بيلار تيرنيرا في بيت أهلها، لقد راح يدور حول البيت مدى ساعات، مصفرا بنداءات خاصة بهما، الى أن اضطره اقتراب الفجر الى العودة الى داره . . وفي غرفة النوم وجد (جوزيه اركاديو) يلعب بأخته الوليدة وعلى وجهه دلائل التظاهر بالبراءة . . .

وما أن جاوزت أورسولا فترة (أربعينها) حتى عاد (الفجر) الى القرية في دورتهم السنوية . . وكانوا هم نفس المشموذين والحواة الذين جاءوا معهم بالثلج من قبل . . وقد اظهروا منذ البداية أنهم على عكس قبيلة مالكويداس ليسوا رسل تقدم وإنما أعوان ترفيه وتسلية، وكانت كل معروضاتهم وأدواتهم من هذا الطراز . . .

ولقد امضى «جوزيه اركاديو» الابن وبيلار تيرنيرا اوقاتاً بهيجة وهما يتفرجان على ألعاب (الفجر)، الى أن فاجأته بيلار ذات مرة بنبا قلب الدنيا

فوق رأسه، اذ قالت له :

- الآن انت رجل فعلا . . .

ولما لم يفهم قصدها، عاجلته قائلة :

- سوف تصبح أباً . .

لم يجسر (جوزيه اركاديو) الابن على مغادرة بيته مدى أيام . . وكان يكفي ان يسمع ضحكات بيلار الرنانة في المطبخ لكي يهرب ويلجأ الى المعمل الكيميائي، حيث كانت تجارب ابيه تجري الان على قدم وساق بمباركة من أورسولا . . والواقع أن «جوزيه اركاديو بوينديا» الاب تلقى ابنه الأبقى بالبهجة وأشركه معه في البحث عن «حجر الفلاسفة» وهي احدث محاولاته . . ولكن على الرغم من تظاهر الابن بالاهتمام، فإنه لم يفلح في الهروب من عثائه . . وأفضى به الامر الى فقد الشهية ومجافاة النوم . . وانحاز الى الاكتئاب والغم، حتى أعفاه أبوه من المساعدة في المعمل الكيميائي ظناً بأنه لا يجد القابلية لذلك . . . وقد فهم أوريليانو بالطبع أن اكتئاب أخيه لا علاقة له بالبحث عن «حجر الفلاسفة» وإن كان لم يستطع أن ينفذ الى دخائله بعد أن أنس منه الصمت والأنطواء والبعد عن كل تبسط كما كان حاله في الماضي . . .

و ذات ليلة عندما ثقلت عليه الوحدة التي اصبح (جوزيه اركاديو) الابن يعانيها واشتدت نغمته على الدنيا ومن فيها، ترك فراشه كالمعتاد، بيد أنه لم يذهب الى بيت بيلار تيريزيرا، وإنما يمض شطر ملعب (العجبر)، حيث راح يتفرج على العروض ويطوف بأرجاء الملعب على غير هدى . . الى أن استرعت نظره فتاة (عجبرية) صغيرة السن كانت مثقلة بالمقود وبدت في نظره اجمل امرأة في الدنيا، وقد وقفت بين الجمع الذي كان يشاهد الرجل الذي تحول الى أفعى لأنه عصى أبويه . .

لم يعبأ (جوزيه أركاديو) بالمرض، وشق طريقه الى حيث وقفت الفتاة في الصف الاول، فوقف عن كتب منها، وأخذ يقترب منها الى أن شعرت الفتاة باهتمامه بها وتبسمت له. . وفي النهاية صحبتته الى خيمتها حيث تبادلوا القبلات والعناق. . .

كان ذلك يوم الخميس. . وفي ليلة السبت لف (جوزيه أركاديو) الابن منديلا أحمر حول رأسه وارتجل مع (العجبر). . .

وعندما اكتشفت أورشولا غيابه بحثت عنه في كل انحاء القرية. . . ولم يبق في الساحة التي أقام فيها (العجبر) سوى بقايا النيران الخائية. . . وتطوع واحد من أهل القرية فقال لها إنه كان هناك في الليلة الماضية وشاهد ابنها في الزحام يدفع العربة التي تحمل قفص الرجل الأفعى. . . وصرخت الام لزوجها :

- لقد أصبح واحدا من (العجبر) . . !

فقال الاب الذي لم ينزعج لاختفاء ابنه وهو يطحن في الهاون مواده الكيميائية للمرة الألف :

- يا ليت هذا يكون صحيحاً . . بهذه الطريقة سوف يتعلم كيف يصبح رجلاً ! . .

وراحت أورشولا تسأل عن الطريق الذي سلكه (العجبر) في رحيلهم، ظنا منها بأنها تستطيع اللحاق بهم. . وتبعت هذا الطريق الى أن ابتعدت عن القرية مساحة كبيرة لا تستطيع اذاعها العودة. . . ولم يعرف «جوزيه أركاديو بوينديا» بغياب زوجته حتى كانت الساعة الثامنة ليلا، فترك خلاطه الكيميائية تبرد وذهب لرؤية أمارانتا الوليدة التي بح صرتها من الصراخ. . . وبعد ساعات جمع بضعة رجال مزودين بما يلزم وعهد بالمولودة الى امرأة أبدت استعدادا لرعايتها، وغاب عن الانظار مع رفاهه في أثر أورشولا. . .

وكان أوريليانو معهم . . . وأبلغهم بعض الصيادين الهنود بالإشارات وهم لا يفهمون لغتهم انهم لم شاهدوا احداً يمر في الطريق الذي سلكوه . . . وبعد ثلاثة أيام من البحث العقيم عادوا ادراجهم الى القرية . . .

ومضت أسابيع غير قليلة اطلق فيها جوزيه الاب العنان لجذعه . . . وفي خلال ذلك عكف على رعاية اماراتا الصغيرة كام . . . فكان يحميها ويلبسها وكان يدفع بها الى المرضعة اربع مرات في اليوم، بل جعل يغني لها في الليل الاغنيات التي لم تكن أورسولا تعرف كيف تغنيها . . .

وفي احدى المناسبات تطوعت بيلار تيرنيرا بالقيام بالاعمال البيتية الى حين عودة أورسولا . . . وقد أحس أوريليانو ببديهة التي شحذتها هذه البلوى ان هذه المرأة مسؤولة على نحر مبهم لم يستطع ادراكه عن سبب هروب اخيه وما تلاه من اختفاء امه، فبادرها بعداء صامت لا هواده فيه حتى كفت المرأة عن الحضور الى الدار . . .

وفجأة بعد خمسة اشهر كاملة من اختفاء أورسولا ، اذا هي تعود على غير انتظار . . .

جاءت في حالة ابتهاج ونضارة، مرتدية ملابس جديدة من طراز لم يكن معهودا في القرية . . . ولم يكذ جوزيه الاب يستطيع ان يقيم عوده من وطأة المفاجأة، حتى صاح قائلاً :

.. هذا هو ما كنت اعتقده ! . . . كنت اعرف ان هذا سيحدث ! . . .

وكان ذلك يقينه حقاً . . . ففي خلال عكوفه الطويل بين معادنه ومواده الكيميائية، كان يدعو في أعماق نفسه أن تكون المعجزة المنتظرة ليس اكتشاف (حجر الفلاسفة) ولا استخلاص الروح الخفية التي تجعل المعادن تتبدل كأنما دبت فيها حياة جديدة، ولا القدرة على تحويل أقفال ومفصلات

الابواب الى ذهب... بل تكون المعجزة هي ما حدث فعلاً... أي عودة أورسولا!

بيد أن أورسولا لم تشاطره انفعاله... فقد منحتة قبلة تقليدية، وكأنها لم تغب أكثر من ساعة، وقالت له :
.. أنظر الى خارج الباب...

والحق أن جوزيه لبث فترة مديرة نهب حيرته قبلما خرج إلى الشارع وشاهد الجمع المحتشد...

لم يكونوا من (الغجر)، بل كانوا رجالا ونساء مثلهم، ذوي شعور مستقيمة وبشرة سمراء، يتكلمون نفس اللغة ويشكون من نفس الآلام، .. وكانت معهم بغال محملة بمأكولات، وعربات تجرها الثيران تحمل أثاثاً وأدوات منزلية، وأخرى معدة للبيع يعرضها أناس ببساطة دون ما جلبه ولا ضجيج...

لقد جاءوا مما وراء اقليم المستنقعات الشاسعة، على مبعده يومين لا أكثر، حيث كانت هناك بلدان تتلقى البريد كل شهر من شهور السنة، وحيث يعرفون وسائل العيش التي تجعل الحياة طيبة ميسرة...

إن أورسولا لم تستطع ان تلحق (بالغجر) لكنها وجدت الطريق الى الحضارة الذي عجز زوجها عن اكتشافه في بحثه الحابط عن المكتشفات الكبرى...

الفصل الثالث

جاء بابلون بيلار تيرنيرا الى بيت جديه بعد اسبوعين من مولده . وقد تقبلته أورسولا كارهة، مغلوبة على أمرها مرة أخرى ازاء عناد زوجها، الذي لم يحتمل فكرة تشرد سليل من دمه، ولكنه اشترط الا يعرف الطفل بأي حال هويته الحقيقية . . وعلى الرغم من أنهم سموه (جوزيه اركاديو) الا أنهم انتهوا الى تسميته باسم اركاديو فقط، تجنباً للخلط والالتباس . . .

وفي ذلك الحين حدث نشاط كبير في البلدة ومشاغل كثيرة في البيت الى حد ان رعاية الاطفال عهد بها الى امرأة هندية من قبيلة جواجيرو كانت قد وفدت على البلدة مع اخ لها هرباً من مرض وبائي هو الأرق الدلهم كان قد نفى في القبيلة منذ سنوات عديدة . . . وقد عرف الاثنان بالوداعة والدمائة حتى لقد استعانت بهما أورسولا في المساعدة في الاعمال المنزلية . . وكان ذلك هو السبب في ان اركاديو وأماراتنا الصغيرين قد عرفا كيف يتكلمان لغة جواجيرو قبل اللغة الاسبانية، وتعلما شرب حساء السحالي وأكل بيض العناكب دون أن تعرف أورسولا هذا، اذ أنها أصبحت مشغولة الى حد كبير بعملية ناجحة تبشر بالريح هي صنع الحيوانات من الحلوى . .

ذلك ان بلدة ماكوندو قد تغيرت . . . فان الوافدين الجدد مع اورسولا راحوا يعلنون انباء سارة عن خصوبة ارضها وعن موقعها الممتاز بالنسبة لمناطق المستنقعات المجاورة، وهكذا تحولت القرية الضيقة الى بلدة ناشطة قامت فيها المتاجر والمصانع الصغيرة، وامتد منها طريق تجاري أصبح يفد منه التجار العرب بشتى السلع . . . وفي خلال ذلك لم يجد (جوزيه اركاديو

بوينديا) مجالا للراحة والدعة... فعندما بهره الواقع الملموس كف عن تخيلاته الواسعة ونفض يديه من ترهات المعمل الكيميائي، وعاد مرة اخرى الى طبيعته السالفة كمخطط للممران في البلدة، وأصبح حجة لدى القادمين الجدد بحيث لا توضع أسس ولا تقام جدران الا بمشورته، وتقرر في النهاية أن يكون المشرف على توزيع الاراضي...

وفيما كان الأب منصرفا الى تنظيم البلدة والام منهمكة في زيادة دخل الاسرة عن طريق صنع الحيوانات والاسماك من الحلوى، كان اوريليانو يمضي الساعات الطوال في المعمل المهجور يتعلم صناعة طلاء المعادن بتجاربه الخاصة حتى برع في ذلك... ومع أن انتقاله الى طور المراهقة أكسبه صلابة ورصانة وانحيازاً الى الصمت والاعتكاف والعزلة، الا أنه شحذ فيه تلك الخاصة التي ولد بها وهي حدة البصر التي بلغت درجة البصيرة والقدرة على التنبؤ... وذات يوم أذهل أمه بقوله على غير انتظار:

- هناك قادم جديد سيأتي إلينا...

وفعلا لم يحل يوم الاحد الا وقد جاءت ريكا...

لم يكن سنها يجاوز احد عشر عاما... وقد جاء بها بعد رحلة طويلة شاقة من بلدة مانور بعض تجار الجلود الذين عهد اليهم بتسليمها الى (جوزيه اركاديو بوينديا) مصحوبة برسالة قال فيها مرسلها إنه لا يزال يكن له المحبة رغم تباعد المسافة والظروف، وأنه أخذ على عاتقه هذا الواجب الخيري الانساني وهو تسليم الطفلة اليتيمة المسكينة التي هي من سلالة أسرتي اورسولا وجوزيه اليهما، اكراما للذكرى والديها المرحومين (نيكانور اولوس) و (ريكا مونتييل)، اللذين وضعت عظامهما في الصندوق المرافق للطفلة، توطئة لدفنها في مئوى قريب من مقامها الجديد...

وفي الحق أنه ما من أحد من الزوجين جوزيه وأورسولا عرف مرسل

الرسالة ولا أبوي الطفلة، تلك التي انزوت منذ مقدمها في كرسيتها الهزاز الصغير تمتص اصبعها وتغرس فيهم جميعا بعينها الواسعتين المجفلتين دون أن تبدي أدنى اشارة تنم عن فهم لما يقال لها. . . وكانت تبدو معتلة الصحة وعليها علائم جوع اقدم من سنها. . . وعندما قدموا اليها طعاما تركت الطبق فوق ركبتيها دون ان تذوق منه شيئا. . بل بدا لهم انها ربما كانت صماء بكماء، الى أن جاءت الهندية وسألتها بلغتها ان كانت تريد ماء، فحركت عينيها كأنما عرفتھا، وأجابت نعم برأسها. . .

لقد احتفظوا بالطفلة، اذ لم يكن هناك ما يفعلونه غير ذلك. . . وأطلقوا عليها اسم ريكا أخذوا باسم أمها. . . ومضت فترة طويلة قبلما اندمجت ريكا في حياة الاسرة. . . ولم يستطيعوا ان يحملوها على الاكل اياماً متعاقبة، حتى عجبوا كيف لم تمت من الجوع وهي كذلك الى أن فاجأها الهنديان وهي تأكل التربة الرطبة ومصيص الحوائط الابيض تحتفره بأظفارها. . .

لقد أثارت هذه الظاهرة الشافة فرع الاسرة، بيد ان اوزسولا لم تخلد الى اليأس، ولم تزل بالطفلة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب الى حد الضرب حتى حملتها على العدول عن ذلك، وأصبحت في النهاية تأكل الطعام العادي مع الصغيرين امارانتا واركاديو، وتشاطرهما النوم في نفس الحجرة. . وتبين بعد ذلك انها تتكلم الاسبانية بنفس الطلاقة التي تتكلم بها الهندية. . .

وتتعاقب الشهور. الاعوام والاسرة ماضية في حياتها. . . الاب لا يكف عن نشاطه الدائب في التخطيط والابتكار. . . والام منهمكة في صنع تماثيل الحلوى التي تدر على الأسرة دخلا وفيرا. . . والابن اوريليانو يزد براعة في فن طلاء المعادن وصنع المشغولات الفضية والذهبية مستهدفا لعناء المراهقة ماراً بتجارب أليمة زادته انطواء واعتزالا لما يهفو اليه اضرابه في مثل هذا الطور. . .

وتفتح أورسولا عينيها ذات يوم وهي تصنع تماثيلها المحلاة، فيسترعي نظرها مشهد فتاتين جميلتين في سن المراهقة جالسين في الفناء منهنكيتين في شغل الإبرة حتى بدا لها لأول وهلة أنها لا تعرفهما. . .

كانت احدهما ربيكا وهي احلاهما على غير ما كان يتوقع، نضرة البشرة، واسعة العينين المفعمتين بالسكينة، بارعة اليدين في التطريز. أما اصغرهما فكانت امارانتا، رشيقة الى حد ما، متميزة بملامح أسرتها. وعن كذب منهما جلس اركاديو الصغير، الذي وإن كان ينحو الى سرعة النمو مثل أبيه الأبق، الا أنه بدا كطفل بجانب الفتاتين. . . وكان قد بدأ يتعلم فن المشغولات الفضية على يد عمه أوريليانو، الذي علمه القراءة والكتابة ايضا. . .

وهنا ادركت اورسولا فجأة ان البيت قد اصبح مملوءً بالابناء، وان هؤلاء الابناء سوف يتزوجون حتما وينجبون اطفالاً، وأنهم سوف يضطرون الى التفرق لضيق البيت. . . وهكذا عمدت الى نقودها التي تراكمت على مدار سني العمل الدائب، فأخرجتها للعمل على توسيع البيت، وتولت بنفسها الاشراف على هذه العملية. . .

وفي النهاية قام في مكان البيت البدائي اكبر بيت في البلدة كلها، بل وفي منطقة المستنقعات بأسرها، مشتملا على تسع غرف نوم، وحجرة استقبال كبرى للزائرين، وقاعة للطعام تسع اثني عشر مقعدا صفت حول المائدة الكبيرة، ومدخل مسقوف بقي من حرارة الشمس وتحف به أصص الازهار، و (كرار) كبير تخزن فيه المؤونة الكسافية، وحمامين في الفناء احدهما للرجال والثاني للنساء، واسطبل كبير، وحظيرة للدجاج وأخرى لبقرة حلب اللبن. . .

وقد اوشك بناء هذا الصرح على التمام عندما استدرجت اورسولا

زوجها من عالمه التخيلي لكي تبلغه انها تلقت أمرا بطلاء الواجهة باللون الازرق بدلا من الابيض كما كانوا يريدون. وأطلعتة على الوثيقة الرسمية التي جاءت... . وقيل ان يفهم (جوزيه اركاديو بوينديا) ما قالت زوجته فك طلسم التوقيع وسألها :

- من يكون هذا الشخص ؟ . .

فأجابت اورسولا في مضض :

- . . . يقولون إنه من رجال السلطة وموفد من الحكومة . . .

كان دون ابولينار موسكوت، القاضي، قد وصل الى ماكوندو بهدوء، ونزل في فندق يعقوب الذي بناه احد العرب الوافدين للتجارة، وفي اليوم التالي استأجر غرفة صغيرة ذات باب يطل على الشارع على بعد مترين من بيت بوينديا. . . وقد وضع منضدة، ومقعدا جاء بهما من عند يعقوب، وثبت على الحائط شعار الجمهورية الذي جاء به معه، وطلّى على الباب كلمة (القاضي) . . . وكان أول أمر أصدره هو وجوب طلاء جميع البيوت باللون الازرق احتفالا بالذكرى السنوية للاستقلال الوطني . . .

ولما ذهب اليه «جوزيه اركاديو بوينديا» ويده صورة من الأمر، وجده ناعساً في ارجوحة نصبها في المكتب الصغير. . . فبادره قائلاً :

- هل كتبت هذه الورقة ؟ . .

كان دون ابولينار موسكوت رجلاً مكتملاً حياً، مورد الوجه، وقد رد بالاجاب . . . فسأله جوزيه :

- بأي حق ؟ . .

فالتقط دون ابولينار موسكوت ورقة من درج المنضدة وأراه اياها قائلاً :

- انني عينت قاضيا لهذه البلدة . . .

فلم ينظر «جوزيه اركاديوبوينديا» حتى الى أمر التعيين، وقال دون أن يفقد هدوءه :

- نحن في هذه البلدة لا نعطي أوامر بقطع من الورق . . . ولكي نعرف للمرة الأولى والأخيرة، نحن هنا لا نحتاج الى أي قضاة؛ اذ لا يوجد ما يحوجننا الى التقاضي ! . . .

ووقف جوزيه في مواجهة دون ابولينار موسكوت وأنشأ يهوج له بالتفصيل ودون ان يرفع صوته حتى الان كيف أسسوا القرية، وكيف وزعوا وشقوا الطرق وأدخلوا التحسينات التي اقتضتها الضرورة دون أن يعملوا على ازعاج الحكومة ودون ان يعمل أحد على ازعاجهم . . . واستطرد يقول :

- نحن اناس مسالمون جدا حتى انه لم يمت بيننا احد ولو موتا طبيعيا، ولك ان ترى أنه ليست عندنا حتى الآن مدافن . . . ولم يذمر احد يوما ما لأن الحكومة لم تساعدنا . . بل بالعكس، كنا جميعا سعداء لأنها تركتنا نتقدم في سلام . . . والأمل معقود على ان نتركنا هكذا، لأننا لم نؤسس هذه البلدة لكي يأتي أي مدع ويقول لنا ماذا نفعل ! . . .

وفي خلال ذلك ارتدى دون ابولينار سترته البيضاء مثل بطلونه دون أن يفقد في أية لحظة رشاقة حركاته . . . بينما اختتم «جوزيه اركاديوبوينديا» كلامه قائلا :

- وهكذا ان أردت ان تبقى هنا مثل أي مواطن عادي فعلى الرحب والسعة . . . لكن اذا كنت جئت لكي تثير المتاعب، بإجبار الناس على طلاء بيوتهم باللون الأزرق، فلك ان تأخذ «عزالك» وتعود الى حيث جئت . . . ذلك لأن بيتي سوف يطلى باللون الأبيض، مثل الحمام . . .

والحق ان دون ابولينار موسكوت شحب وجهه . . . وتراجع خطوة الى

الوراء، وقال وهو يضغط على فكيه بشيء من الأسى :

- لا بد أن أحرك أني مسلح . . .

لم يدر (جوزيه اركاديو بونديا) متى استردت يده القوة التي كان يجبر بها الحصان على الركوع أرضاً . فقد جذب دون أبولينار موسكوت من طيبي صدر السترة ورفعته الى مستوى عينيه، قائلاً :

- انني افعل هذا لأنني افضل ان أحملك هكذا حياً بدلاً من أن اطوف بك ميتاً، فيلازمني شبحك طول حياتي . . .

وعلى هذه الصورة حمله الى وسط الشارع، معلقاً من طيبي السترة، الى أن انزله على قدميه في الطريق المؤدي الى المستنقعات . .

وبعد اسبوع عاد دون أبولينار موسكوت برفقه ستة جنود حفاة مهلهلين ومسلحين ببنادق مزدوجة قصيرة، نصحبهم مركبة تجرها الثيران حملت زوجته وسبع بنات . . . وجاءت في ما بعد مركبتان آخريان تحملا للاثاث والامتنعة والادوات المنزلية . . . وقد انزل اسره في فندق يعقوب ريشما يجد مسكناً للأسرة، وعاد لفتح مكتبه تحت حماية الجنود . . .

إن مؤسسي ماكوندو الذين عقدوا العزم على طرد الغزاة ذهبوا مع أبنائهم الكبار لكي يضعوا أنفسهم تحت امرة «جوزيه اركاديو بونديا» . . . بيد أنه كان ضد هذا الاتجاه . . . فقد بين لهم أنه ليس من الرجولة ان يثيروا المتاعب لأي شخص أمام أسرته، بعد أن عاد دون أبولينار موسكوت مع زوجته وبناته . . . وهكذا حسم الموقف بهذا الأسلوب الحميد . . .

وذهب معهم اوريليانو . . . وفي ذلك الحين كان قد بدأ يقتل شاربه الاسود بالشمع، وغدا له صوت جهوري كان مقدراً ان يكون طابعه المميز في الحرب . . . ودخلوا الى مكتب القاضى بغير سلاح غير عابئين

بالحرس... فلم يفقد دون ابولينار موسكوت رباطته وهذمه... وقلمهم الى
اثنتين من بناته كانتا موجودتين آنذاك : أمبارو البالغة من العمر ستة عشر
عاما، السمراء مثل أمها، وريميديوس التي لم تزد عن التاسعة من عمرها،
وكانت صبية وافرة الملاحظة، ذات بشرة زئبقية وعينين خضراوين... وكانت
كلتاهما موفورة الادب... وحالما دخل الرجال، وقبل التعارف، قدمتا
اليهم مقاعد للجلوس، ولزمتا هما الوقوف...

وقال (جوزيه اركاديو بوينديا) :

- حسن جدا صديقي... لك أن تبقى هنا، لا لأن معك قطاع الطرق
هؤلاء الواقفين بالباب مسلحين بالبنادق، ولكن مراعاة لزوجتك وبناتك...

لقد بدا دون ابولينار موسكوت منزعجا، بيد أن (جوزيه اركاديو
بوينديا) لم يدع له وقتا للرد، واستطرد قائلا :

- هناك شرطان لنا فقط : الأول أن يكون لكل واحد أن يطلي بيته
باللون الذي يفضله... والثاني أن يرحل الجنود في الحال... إننا سنضمن
لك استتاب النظام والأمن...

فرفع القاضي يمناه مبسوطة اصابعه الخمس، قائلا :

- بكلمة شرف منك؟...

فأجاب (جوزيه اركاديو بوينديا) :

- كلمة شرف، من عدوك...

وأردف بلهجة المرارة :

- لأنني لا بد ان اقول لك شيئا واحدا : فأنت وأنا ما زلنا عدوين...

وارتحل الجنود في نفس اليوم... وبعد أيام قلائل وجد (جوزيه

اركاڊيو ٻونڊيا) بيتاُ للقاضي وأسرنه . . . وسادت السكينة كل انسان فيما عدا
اوريليانو . . . فإن صورة ريميدوس صغرى بنات القاضي ظلت تعالعه وتثير
ألمه على نحو ما، رغم صغر سنها بالنسبة اليه . . . كان أماً حسيّاً يضايقه
كمن يمشي وفي حذاءه حصاة . . .

الفصل الرابع

أقيمت في البيت الكبير المجدد حفلة راقصة كبرى على نغمات البيانولا دعي اليها مؤسسو مأكوندو وابناؤهم، وكان نجمها هو الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسي مندوب المتجر مورد الآلة الموسيقية الجديدة، الذي أوفد للإشراف على ادارتها وتدريب الراقصين، وكانت رفيقته في الرقص ريكا التي ابدت براعة اثارته اعجابه، حتى وعد أن يلقيها مزيداً من فنون الرقص في زيارته القادمة للبلدة . . .

وذاك يوم جاءت امبارو كبرى بنات القاضي لزيارة البيت الكبير ومشاهدة ما ازدان به من أثاث وتحصا، فاستقبلتها أرسولا بالترحاب، ثم عهدت اليها أماراتا وريكا بالطواف معها في أرجاء البيت . . . وعند انتهاء الزيارة انتهزت امبارو فرصة انشغال اماراتا، ودست في يد ريكا رسالة سارعت الفتاة بإخفائها في صدرها الى أن صارت وحدها، فوجدتها من بترو كريسي الوسيم يثبتها فيها مشاعر الإعجاب ويشني على براعتها في الرقص، ويعد بزيارة قريبة . . .

والواقع ان هذا الصداقة المفاجئة بين امبارو وريكا انعمت آمال اوريليانو . . . فلأن ذكرى ريميدوس الصغيرة ما فتئت تعذبه، بيد أنه لم يجد الفرصة المناسبة لرؤيتها . . . وهكذا كان ظهور اختها امبارو في البيت مقدمة طيبة لحضورها معها في زيارة اخرى، واستقر في نفسه خاطر يقيني بذلك ظل يراوده حيناً، الى أن سمع صوتها الطفولي عصر يوم لدى باب المعمل الكيميائي، وعندما رفع نظره شعر بقلبه يتجمد حين أبصرها في فستان وردي

وحذاء مرتفع أبيض وأختها امبارو تقول لها :

- لا يمكنك الدخول الى المعمل يا ريميديوس .. انهم يشتغلون ..
لكن أوريليانو لم يدع لها وقتاً للرد، فقد نهض ويده سلسلة تدلت منها سمكة
ذهبية وقال لها :

- تفضلي بالدخول ..

فدخلت ريميديوس ووجهت اليه بعض الاسئلة عن السمكة الذهبية،
بيد أن لسانه انعقد فجأة عن الرد .. وكل ما استطاع أن يقوله في النهاية هو
أنه سيهديها السمكة الصغيرة، لكن الصبية أجفلت لهذا العرض، وأسمرت
بالانسحاب من المعمل .

في نفس هذا اليوم فقد أوريليانو صبره الدفين وأهمل عمله وراح
يبحث عنها في كل مكان ترتاده ولو في نافذة بيتها، لكن مساعيه ذهبت
سدى، ولم تطلعه صورتها الا في خياله ووحدته الأليمة .. وأصبح يمضي
ساعات كاملة مع ريكا يستمعان الى عزف البيانولا .. هي لأن الموسيقى
تذكرها بالشباب الايطالي بترو كريسي الذي علمها الرقص .. وأوريليانو
لأن كل شيء ، حتى الموسيقى، كان يذكره بريميديوس ..

فأما ريكا فقد أمرضها طول انتظار الحبيب الذي تأخر عن مواعده،
حتى رقدت طريحة الفراش .. وكان أوريليانو وحده هو الذي فهم سرها
الحقيقي اذ يكابد نباريح الهوى .. وفي غمرة حيرته ذهب مع بعض
اصحابه الى مشرب كاتارينو .. وكان يضم ملحقات من غرف خشبية تقيم به
نساء وحيدات وتعزف فيه الموسيقى .. وشرب الرفاق عصير قصب مخمراً
بصحبة النساء .. وداعت احداهن وكانت عجفاء مذهبة الاسنان
اوريليانو .. ولكن مداعبتها جعلته يرتعد حتى صد عنا .. وما لبث أن
اكتشف انه كلما شرب زاد تفكيره في ريميديوس، وإن صار أقدر على

احتمال عذاب ذكرياته . . . ولم يدر بالضبط متى بدأ رأسه يدور . . . ورأى أصحابه والنساء يسبحون جميعاً في ضياء باهر، دون وزن لهم ولا كتلة مرسلين. كلاماً لا يخرج من أفواههم، ومبدين إشارات خفية لا تتطابق مع كلامهم . . . وعندئذ وضع كاتارينويده على كتفه وقال له :

- الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً . . .

فأدار أوريليانو رأسه، فرأى وجه كاتارينو ضحكاً مشوهاً، وقد رشق وروداً صناعية خلف أذنه . . . وعندئذ فقد ذاكرته تماماً . . . ولما استعادها، وجد نفسه في غرفة غريبة عنه، وفيها وقفت بيلار تيرنيرا أمامه بقميص نومها وهي جافية القدمين مرسله الشعر، رافعة مصباحاً فوق رأسه، تبدو عليها إشارات الانزعاج وعدم التصديق، وفتفت : أوريليانو ! . . .

ضبط أوريليانو قدميه ورفع رأسه . . . انه لم يدر كيف جاء الى هنا . . . ولكنه عرف مقصده، وهو مقصد كان مخبوء في داخله منذ الصغر . . . وقد رد عليها قائلاً :

- جئت لأنني اريدك . . .

كانت ملابسه ملطخة بالوحل والقيء، فجعلت تنظفه وهي تغغم قائلة :

- يا طفلي المسكين . . .

وعندما أفاق من غمرات نشوته وجد نفسه يبكي . . . فانتظرت المرأة المجربة حتى فرغ من ذلك النحيب الذي هز وجدانه، وقالت له بهلوه :

- من هي ؟ . . .

فأخبرها أوريليانو . . . فأطلقت ضحكة خافتة، وقالت متهمكة :

- لا بد أن تربيها أولاً الى أن تكبر! ..

ولكن من ثانيا الضحكة استشف أوريليانو فهما عميقا . . . وعندما انصرف من غرفتها بعد أن انزاح من صدره ذلك الهم المرير الذي أثقله طيلة الأشهر الماضية، وعدته بيلار تيرنيرا قائلة :

- سأتكلم مع البنية، وستعرف ماذا يمكنني ان أفعل... .

وقد برت بعدها . . . ولكنها اختارت وقتا عصيبا . . . إذ كان البيت قد فقد ما كان يفرغ عليه من سكينه في الايام الماضية . . . ذلك أن أمارانتا عندما اكتشفت سر ريكا العاطفي وكان محالا ان يبقى طي الكتمان، أصيبت هي الاخرى بنوبة حمى نتيجة غرام لا عزاء فيه . . . وأصبحت أورسولا لا تكاد تجد القوة لرعاية الفتاتين العليلتين . . . ولم تستطع رغم طول الاستجواب أن تتحقق من أسباب علة أمارانتا . . . وفي النهاية، وبما يشبه الإلهام، عثرت في صندوق امتعة ريكا على حفنة رسائل بللتها ريكا بدموعها وعطرتها بالورود ولكنها لم ترسلها الى الايطالي بترو كريسي . . . فلم تمالك أورسولا وهي تبكي غضباً أن لعنت اليوم الذي بدا لها فيه أن تطلب شراء البيانولا، وأصدرت أمرها بمنع دروس التطايز، وأعلنت لونها من الحداد في البيت الى ان تتبخر آمال الفتاتين . . . ولم تفلح وساطة (جوزيه اركاديو بونديا) الاب الذي اعجب ببراعة بترو كريسي في ادارة البيانولا في تخفيف التآزم . . . وهكذا رأى أوريليانو عندما أخبرته بيلار تيرنيرا ان ريمبيديوس قبلته زوجاً لها أن هذا النبأ سيؤدي الى زيادة متاعب والديه . . . والواقع أن الاب ما كاد يسمع باسم الخطيئة المرشحة حتى احمر وجهه احتياجاً وصاح هادراً :

- الحب مرض! . . . ورغم وجود كثير من البنات الجميلات والمهذبات حوالينا، فالشيء الوحيد الذي يخطر لك هو الزواج من إبنة عدونا! ..

بيد أن أورشولا وافقت على هذا الاختيار، وراحت تطلب في امتداح شمائل بنات القاضي موسكوت السبع، وأطرت سداد رأى ابنها. . . فلم يجد (جوزيه أركاديو بوينديا) إزاء تحمس زوجته سوى النزول عند رايها، بشرط واحد، هو أن تتزوج ربيكا بترو كريسي، وإن تصحب أورشولا ابنتها امارانتا في رحلة الى عاصمة المقاطعة عندما يسمح الوقت، لكي يؤدي الاختلاط بالناس الى التخفيف من خيبة أملها. . . ولم تلبث ربيكا أن استردت صحتها حالما علمت بهذا الاتفاق، وسطرت الى خطيبها رسالة حارة بعد موافقة والديها وأرسلتها بالبريد دون حاجة الى وسطاء. . . وقد تظاهرت امارانتا بقبول القرار، وتمثلت للشفاء من الحمى رويدا رويدا، ولكنها نذرت في نفسها ألا يتم زواج ربيكا الا على جثتها.

وفي يوم السبت التالي ارتدى (جوزيه أركاديو بوينديا) احسن ملابسه وذهب لطلب يد ريميديوس موسكوت. . . فاستقبله القاضي وزوجته بترحاب وقلق معا، اذ لم يكونا يعرفان سبب الزيارة المفاجئة، ثم بدا لهما بعد ذلك أنه ربما كان مخطئاً في اسم العروس المطلوبة، . . وإزالة لكل لبس ذهبت الأم لإيقاظ ريميديوس من نومها وأتت بها الى غرفة الجلوس وأثار النوم لم تفارقها. . . وقد سألاها إن كان صحيحاً أنها قررت الزواج، فردت متعجبة بأنها لا تريد سوى أن يتركها تنام. . . ولما أدرك (جوزيه أركاديو بوينديا) حالة الاضطراب التي بدت له من الابوين، عاد أدراجه لاستجلاء الحقيقة من أوريليانو. . . وعند رجوعه وجد الابوين قد ارتديا ملابس رسمية وربوا الأثاث وغيرا الزهور في أوعيتها وجلسا ينتظران بصحبة بناتهما الأكبر. . . ورغم إحساس (جوزيه أركاديو بوينديا) بحرج الموقف فقد أكد أن ريميديوس هي التي وقع عليها الاختيار. . . وعندئذ قال ابولينار موسكوت بلهجة الجزع :

- هذا شيء غير معقول ! . . عندنا ست بنات اخريات، وكلهن غير

تزوجات، وسنهن تؤهلهن لذلك تماما، ويشرف كل واحدة منهن ان تكون زوجة لسيد محترم مجد مثل إبنك، ومع ذلك فإن أوريليانو لا يضع نظره الا على البنت التي لا تزال تبلل فراشها . . .

بيد أن زوجته سارعت بالاعتذار عن هفوته . . وبعد أن فرغوا من تناول الفاكهة اعربوا عن قبول قرار أوريليانو عن طيب خاطر، مصحوباً برجاء من الام أن يجتمع مع أورسولا على انفراد . . فلم تمنع أورسولا، وذهبت الى بيت القاضي في اليوم التالي . . وبعد نصف ساعة عادت لكي تقول إن ريميديوس لم تبلغ الحلم بعد . . . بيد أن أوريليانو لم يجد في هذا عائقاً خطيراً . . . فقد انتظر أمداً طويلا، الى حد أنه يستطيع الانتظار الى أن تبلغ عروسه مرحلة القدرة على الإنجاب . . .

ونعود الى امارانتا . . فقد وجدت أخيراً فرصتها التي كانت تمنحها لمكاشفة الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسي بحبها الدفين، الذي بر بوعده لريبكا وحل بالبلدة حيث افتتح محلا لبيع الآلات الموسيقية واللعب الميكانيكية في حي التجار الشرقيين . . . والواقع أن الشاب الوسيم الذي كان مرآة يثير تنهدات النساء تلقى اعتراف امارانتا على أنه نزوة عابرة لصبية لا يؤخذ كلامها مأخذ الجد، حتى قال لها :

- لي أخ أصغر . . وسيحضر لمساعدتي في المحل . . .

لقد شعرت امارانتا بالمهانة، وقالت لبترو كريسي في غضب شديد إنها على استعداد لمنع زواج اختها حتى لو كان الثمن هو ارتداء جنتها على الباب . . . والواقع أن الشاب الايطالي تأثر بهذا التهديد الدرامي الى حد أنه لم يستطع مقاومة إغراء ذكر الواقعة لريبكا . . . ونتيجة لهذا فإن رحلة امارانتا التي كانت أورسولا تعمل على تأجيلها تم ترتيب أمرها في أقل من أسبوع . . . ولم تبد امارانتا أية مقاومة، بيد أنها عندما ودعت ريبكا مقبلة

همست، في أذنها قائلة :

- لا تطلقني العنان لأمالك . . حتى لو أبعدوني إلى أطراف الدنيا، فسوف أجد طريقة لمنع زواجك، حتى لو كان لا بد لي من قتلك . . وبغياض أورسولا عن البيت، بدا وكأنه خاو على عروشه . . وقد تكفلت ربيكا بالإشراف على تصريف الشؤون المنزلية، بينما تولت المرأة الهندية أعمال المخبز . . وعندما كان بتروكريسي يأتي لزيارة خطيبته عند الغروب، كانت ربيكا تستقبله في الصالون الرئيسي مع فتح الأبواب والنوافذ دافعاً لكل الظنون . . ولم يكن هذا التحوط لازماً، لأن الشاب الإيطالي كان يسلك مسلك الاحترام في تصرفاته إلى حد أنه لم يكن يلمس يد المرأة التي ستغدو زوجته في غضون العام . .

والواقع أن هذه الزيارات ملأت البيت بكثير من اللعب الميكانيكية المتنوعة الأشكال والغريبة التصميمات إلى حد أن (جوزيه أركاديو بوينديا) الأب وجد فيها تسلياً كبيراً، إذ عاد إلى أيامه الأولى في المعمل الكيميائي عاكفاً على فكها وتركيبها لكي يضيف إليها نظاماً جديداً يجعلها في حركة دائمة على نسق (بندول) الساعة . .

وقد امتد التأثير إلى أوريليانو الذي أحمل عمله في المشغولات المعدنية وتفرغ لتعليم ريميديوس القراءة والكتابة . . وكانت الصبية تقابل هذا بالنفور أول الأمر مفضلة التفرغ للعبها، بيد أن صبر أوريليانو ومشابرته اكتسبها آخر الأمر إلى جانبه، حتى أصبحت في النهاية أطوع له من بناته . .

وكانت ربيكا وحدها هي التي تعاني القلق والتوجس بسبب نقمة أمارانبا عليها وتهديداتها الغريبة . . والتماساً منها لما يخفف معاناتها، فقد سعت إلى بيلار تيرنيرا لكي تقرأ لها الطالع . . فتنبأت لها بعد سلسلة من المقدمات التقليدية قائلة :

- لن تعرفي السعادة طالما أن عظام أبويك لم تدفن .

ارتعدت ربيكا، وقالت :

- لست افهم . .

فبدت بيلار تيرنيرا غير مبالية وقالت :

- ولا أنا . . ولكن هذا ما تقوله الاوراق . . .

لقد انشغل بال ربيكا واشتد انشغالها بهذا اللغز حتى اطلعت «جوزيه اركاديو بوينديا» على الخبر، فما كان منه إلا أن زجرها لتصديق مثل هذه النبوءات، ولكنه مع ذلك انهمك صامتاً في البحث في كل موضع عن كيس العظام الذي جيء به مع ربيكا وهي بعد طفلة لا تدرك شيئاً . وتذكر أنه لم يره منذ أن اضطلموا بتجديد البيت . فاتصل بالبنائين، فأخبره احدهم أنه وضع الكيس داخل احد الحوائط، تخلصاً من مضايقة وجوده عشرة في عمليات الترميم والبناء . وبعد أيام من التسمع والدق على الجدران أمكن في النهاية تحديد المكان، فنقبوا الحائط واستخرجوا كيس العظام ودفنوها في نفس اليوم في قبر بلا شاهد . وعاد (جوزيه اركاديو بوينديا) في نفس اليوم وقد انزاح عنه عبء شديد أثقل ضميره، ودخل على ربيكا في المطبخ مبتهجاً وقبلها قائلاً :

- اطردني تلك الأفكار السيئة من رأسك . . سوف تكونين من أهل السعادة . .

إن الصداقة التي نشأت بين ربيكا وبيلار تيرنيرا قد فتحت لهذه الأخيرة باب البيت الذي أغلقته أورشولا بسبب مولد اركاديو وقبوله في عداد الاسرة كما تقدم . . وهكذا أصبحت تتردد على البيت في أية ساعة وتطلق نساطها المحموم في أشق الاعمال . . وأحياناً كانت تدخل المعمل وتساعد اركاديو

(إنها) في (تحميض) الصور المطبوعة على المعادن بمقدرة وحنو كانا يثيران ارتباكاً وعجبه من مسلكتها حياله . . بل إن أنفاسها عن كذب وضحكاتها الغريبة في الغرفة المظلمة كانت تشتت باله وتنال من ضبطه للعمل . . .

وفي إحدى المناسبات كان أوريليانو في المعمل لإتمام بعض المشغولات الفضية ، فاتكأت بيلار تيرنيرا على المنضدة مبدية إعجابها بدأبه وصبره . . وفجأة لمع في خاطره ذلك الوميض الذي ينهى بشيء قريب . . . وقبل أن يرفع عينيه لملاحظة عيني بيلار تيرنيرا استوثق من وجود أركاديو في الغرفة المظلمة للتحميض ، تأجياً لاستقراء المخاطرة التي لمعها في عيني تيرنيرا واضحة كالشمس في رابعة النهار ، ثم سألها :

- حسن . . قولي ما عندك . .

فعضت بيلار تيرنيرا على شفتها باهتسامة محزونة ، وقالت :

- انك ستكون مبرزاً في الحرب . . أينما تلقى نظرك ، تعيب وصاصتك مقتلاً . .

ارتاح أوريليانو لهذه النبوءة ، وركز من جديد على عمله وكأنه لم يحدث شيء ، ثم قال بصوت مشجع :

- سوف اعترف (به) . . سوف يحمل اسمي . . .

وأخيراً توصل (جوزيه أركاديو بونديا) إلى ما كان يبتغيه . . فقد أوصل جهاز الساعة بلعبة راقصة ميكانيكية ، وأخذت اللعبة ترقص بلا انقطاع على إيقاع موسيقاها مدى ثلاثة أيام كاملة . . والواقع أن هذا الاكتشاف أثاره إلى أبعد حد حتى كف عن الأكل وعن النوم . . ولولا سهر ريكا على رعايته لأفضت به تغيلاته إلى حالة من الهذيان لا شفاء له منها . . ومع ذلك فقد كان يمضي الليالي وهو يدور في أرجاء غرفته غشاً بنفسه ، بحثاً عن طريقة

تمكنه من تطبيق نظرية (البندول) على مركبات الثيران وعربات اليد وعلى كل أداة أخرى تغدو ذات نفع اذا وضعت في حالة حركية . .

واستحال عليه النوم بطول الأرق والسهر . . وفي أحد الايام خرج من غرفته والجميع نيام ، وعمد الى عضادة الباب فانتزعها ، وبقوته الهرقلية أخذ يهشم أدوات المعمل الكيميائي وأدوات المسبك وهو يصرخ ويهذي بكلام غير مفهوم . . وكاد ينتقل الى باقي غرف البيت يعمل فيها تهشيماً لولا أن استنجد أوريليانو بالجيران . . فاحتاج الأمر الى عشرة رجال لطرحه أرضاً ، والى أربعة عشر لتقييده ، وعشرين لجره الى شجرة الكستناء في الفناء حيث تركوه مربوطاً بها وهو ينج بكلامه المبهم ويرسل زبداً أخضر من شذقيه . . وحينما عادت اورسولا واماراتنا من الرحلة كان لا يزال مربوطاً الى جذع شجرة الكستناء من قدميه ويديه ، غارقاً في المطر ، وفي حالة شرود تام . . ولما كلمته نظر اليهما دون أن يعرفهما ويقول اشياء لم تفهما منها شيئاً . . ولكن اورسولا فككت قيد معصميه وكاحليه التي تسلخت من ضغط الجبال ، وتركته مربوطاً من وسطه فقط . . وفي ما بعد أقاموا له وقاء من سعف النخل لكي يحميه من الشمس والمطر . . .

الفصل الخامس

عقد زواج أوريليانو بوينديا وريمديوس موسكوت يوم أحد من شهر مارس أمام الهيكل الذي اقامه الاب (نيكانور رينا) في قاعة الاستقبال بالبيت الكبير . . وقد بذلت أسرة العروس جهوداً مضنية في نقلها من المرحلة الصيبانية وسلوكياتها اللامسؤولة الى مرحله النضج والاتزان وتقدير الحياة الزوجية . . ومنذ ذلك اليوم كان إحساسها بالمسؤولية باهراً ، كما تجل ذلك في الظروف العصيبة التي طرأت في المستقبل . . وعلى سبيل المثال فهي التي تطوعت من تلقاء نفسها باقتطاع قطعة كبيرة من (تورته الزفاف) وحملتها في طبق مع شوكة الى (جوزية اركاديو بوينديا) . . وقد تلقى العجوز المربوط في جذع شجرة الكستناء والمكوم فوق مقعد خشبي صغير في مأواه المؤلف من سعف النخل والذي سفعت وجهه الأمطار وأشعة الشمس . . . تلقى هذه الهدية بابتسامة امتنان شاردة وأكل القطعة بأصابه وهو يهمهم بكلام غير مبين ولا مفهوم . . وكان الشخص التعس الوحيد في ذلك الحفل هو روبيكا المنكودة . . فقد كان مقررأ بترتيب من أورسولا أن يعقد زواجها هي أيضاً في نفس اليوم . . ولكن حدث قبله بيومين ان تلقى بترو كريسي رسالة تنبهه بأن أمه في حالة احتضار . . وهكذا أجل زواجها بعد أن اضطر بترو للسفر الى عاصمة المقاطعة بعد ساعة من تلقي الرسالة . . وكانت المفاجأة أن أمه وصلت ليلة زفاف أوريليانو وريمديوس وغنت في الحفل اغنية كانت أعدها لزفاف ولدها . . ولما عاد بترو كريسي مسرعاً بعد رحلة شاقة كان الحفل قد انقضى ولم يعرف قط من هو كاتب تلك الرسالة . . نعم إن أورسولا حملت على أمارتنا حملة شعواء ، ولكن هذه بكت وأقسمت على براءتها أمام الهيكل المؤقت ! . .

ومهما يكن فإن هذا الزفاف كان حافراً للاب «نيكانور رينا» على التفكير في بناء كنيسة خاصة للبلدة لإتمام الطقوس الدينية على وجهها الكامل . . ولم يمض وقت طويل حتى جمعت التبرعات من أهل البلدة وبدأ في إقامة المبنى . . . وبينما كان الاب نيكانور يتناول الغداء ذات يوم في بيت الأسرة وهو يحدثهم عما ستكون عليه حفلات الزفاف المقبلة من الروعة والقداسة في الكنيسة الجديدة، اذ قالت امارانتا :

- إن العروس التي سوف تسعد بهذا هي ريبكا .

ولما لم تفهم ريبكا ما تعنيه، شرحت امارانتا مرادها بانتسامة بريئة قائلة :

- سوف تكونين أنت العروس التي يقام أول حفل زفاف في الكنيسة لها . .

حاولت ريبكا أن تتجاهل هذا النذير . . فإن معدل العمل الحالي في بناء الكنيسة سوف يستغرق عشر سنوات على الأقل بسبب عدم كثرة التبرعات . . ولكن اورسولا التي فطنت الى خبث نوايا امارانتا تبرعت بمبلغ كبير للإسراع في عمليات البناء، مما جعل الاب نيكانور يقدر أنه يمثل هذه التبرعات يمكن اختصار المدة الى ثلاث سنوات . . ومنذ هذه الجلسة اعرضت ريبكا عن امارانتا بعد أن تجلّى لها سوء طويتها . . وفي المشاحنة الحامية التي جرت بين الاثنتين في تلك الليلة قالت لها امارانتا :

- هذا أقل شيء كان يمكن أن أوعز به . فتأثير ايحائي لن اضطر الى قتلك قبل ثلاث سنوات ! .

ولكن ريبكا قبلت التحدي وأخسرت في نفسها امورا . . فعندما رأت ما انتاب بترو كريسي من خيبة الأمل بسبب هذا التأجيل الجديد بادرت قائلة :

- يمكننا ان نهرب معاً في أي وقت نشاء . .

بيد أن بترو كريسي كان ينقصه عنصر المجازفة الذي انطوى عليه طبع خطيبته، وقال إن الاحترام يمنعه من خيانة الثقة التي وضعتها الاسرة فيه . .

وهكذا فكرت ريكا في وسائل أجراً . .

فذاذ ليلة هبت ريح خفيفة أطفال أنوار البيت، وفاجأت أورسولا العاشقين يتبادلان القبلات في الظلام . . .

وفي مناسبة أخرى نفذ الوقود من المصابيح وفاجأتهما أورسولا متعانقين . .

وعندئذ لم تجد أورسولا بداً من التخلي عن واجباتها المنزلية للمرأة الهندية وأخذت تجلس في كرسيها الهزاز عن كتب من الخطيبين اثناء الزيارات التي يقوم بها بترو كريسي، حتى لم تتمالك ريكا أن قالت متهمكة من شدة الغيظ :

- مسكينة امي . . عندما تموت ستذهب الى الآخرة وهي في هذا الكرسي ! . .

وبعد ثلاثة اشهر من هذا الحب تحت الحراسة، وبعد أن تعب بترو كريسي من استمرار البطء في بناء الكنيسة، قرر أن يذهب الى الاب نيكانور ويقدم له المال الذي ينقصه لإتمام هذه العملية . .

بيد أن امارانتا لم تفقد صبرها، وأخذت تفكر في مكائد اخرى لتأخير زواج غريميتها قدر ما تستطيع . . فقد عملت خلسة على رفع (النفثالين) من فستان الزفاف، وكان ذلك قبل شهرين من اتمام بناء الكنيسة . . وكانت ريكا

قد زادت لهفتها باقتراب موعد الزفاف وبدا لها أن تجرب الفستان، وشد ما كان ارتياحها عندما وجدته مثقوباً بفعل العث بحيث لا يصلح لهذه المناسبة الكبرى.. ومع أنها كانت واثقة أنها وضعت (الفتالين) بيديها، إلا أنها لم تجسر على إلقاء التبعة على أماراتا.. ذلك ولم يبق سوى شهر واحد على موعد الزفاف.. ولكن أمارو موسكوت وعدت أن تخطط لها ثوباً جديداً في مدى اسبوع.. وعندما جاءت أمارو بالثوب لتجربته على العروس، شعرت أماراتا بآس مطبق، وأضمرت في نفسها أن تنفذ وعيدها يوم الجمعة الأخير قبل الزفاف، بدس جرعة من السم في القهوة التي ستقدم إلى ريككا..

ورغم هذا كله فقد جدت عقبة لم تكن في الحسبان أدت إلى إرجاء هذا الزفاف المنكود إلى أجل غير مسمى.. فقبل اسبوع من موعد الزفاف استيقظت ريميديوس الصغيرة في منتصف الليل غارقة في دمعها إثر نزيف حاد في أحشائها، وقضت المسكينة نحبها بعد ثلاثة أيام، مع جنين لتوأمين..

كانت الفجيعة شديدة الوقع في نفوس أفراد الأسرة، لما استأثرت به العروس الفتية المنكودة من محبة الجميع، وأما أشدهم تفجعاً فكان زوجها أوريليانو الذي أحبها منذ اللحظة الأولى حباً يقرب من العبادة، ورييكا السيئة الحظ التي حطمت هذا المصاب الجلل كل أمل لديها في اتمام الزفاف في مواعده المحدد، بل في أي موعد آخر خصوصاً بعد أن أعلنت أورسولا الحداد في البيت كله على نحو صارم لا هوادة فيه.. لقد بلغ اليأس من نفس ريككا مداه، حتى عادت إلى بلواها السابقة، تأكل تراب الأرض من جديد

ثم فجأة - عندما طالت فترة الحداد إلى مدى بعيد وبدأت نساء الأسرة موسم التطريز التالي - دفع أحدهم باب البيت الخارجي في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشتد الحر دفعة عنيفة رجت البيت من أساسه، حتى

لقد ظنت اماراتنا وهي تشتغل مع صاحباتها لدى المدخل ، وظنت ريبيكا وهي تمتص
أصبعها كمعادتها القديمة كلما استبد بها اليأس ، وظن أوريليانو وهو عاكف في مسبك
المعادن ، بل ظن (جوزيه اركاديو بوينديا) ذاته أن زلزالا حدث ويوشك أن يقوض
البيت ...

لقد وصل رجل ضخم كالسارد .. لا يكاد منكبهاء العريضان ينفذان من
المدخل ... وكانت تتدلى من عنقه ايقونة ... وبدا ذراعاه وصدره مكسوين تماماً
بالوشم ... وكانت بشرته مصبوعة بملح الهواء السلق ، وشعره قصيراً ورأسياً مثل
معرفة بغل ، وقكاه من حديد ، وعلى شفته ابتسامة محزونة ... وكان يتمنطق بحزام
غليظ ، ويلبس حذاء (بترلك) ومهماز ، وحديد في المعبين ... كان مشهده كله
يوحي بزلزال متحرك ...

واجتاز قاعة الاستقبال وحجرة الجلوس حاملاً خرج الدابة البالي بيده ، وبدا
لأعين اماراتنا وصواحبها كقصف الرعد حتى جمدت مشدوهات رافعات ابر التطريز
في الهواء ؛ ولكنه ألقى الخرج فوق طاولة قريبة دون أن يزيد على كلمة (هالو) قالها
بلهجة المكدود ، وكرر مثلها لريبيكا التي انتفضت لدى مروره ببابها ، ولأوريليانو
المستغرق بكل حواسه في المسبك ... لكنه لم يعرج على أحد منهم ، بل تقدم الى
المطبخ رأساً حيث توقف لأول مرة في نهاية رحلة بدأت من طرف العالم الآخر ...
وعندما كرر كلمة (هالو) وقفت اورسولا مدى ثانية وهي فاعرة الفم ، ونظرت في
عينيه ، وإذا صرخة تدير منها ، ثم إذا هي تقذف بذراعيها حول عنقه صارخة باكية
من الفرح ...

كان ابنها البكر جوزيه اركاديو .. ولقد عاد اليها فقيراً مفلساً كما ارتحل عنها ،
الى حد انها اضطرت الى اعطائه قيمة أجر حصانه ... وكان يتكلم لغة اسبانية
خالطتها لهجة بحارة عامية ... وقد سأله أين كان ، فرد بقوله : « في
الخارج » ...

وقد علق أرجوحه نومه في الغرفة التي أفردوها له، ونام ثلاثة أيام . . . وعندما استيقظ أكل ست عشرة بيضة نيئة، وذهب مباشرة الى حانة كاتارينو، حيث أثار هيكله الضخم روع النساء ممزوجاً بالفضول . . . ثم طلب موسيقى وأمر بشراب القصب المخمر للجميع على حسابه . . . ولما عرض مصارعة خمسة رجال معاً على الطريقة الهندية قالوا له ان هذا غير ممكن . . . وعندئذ انبرى له كاتارينو الذي لم يكن يؤمن بالشعوذة في ألعاب القوى وراهنه على اثني عشر ببزو اذا استطاع تحريك منصة الشراب من موضعها . . . واذا جوزه اركاديو يرفع المنصة فوق رأسه ويضعها في الشارع . . . وتطلب الأمر أحد عشر رجلاً لإعادتها الى مكانها . . . ولما ألقى نساء الحانة يحاصرنه حصاراً لا مهرب منه، قدم نفسه لهن في مزاد علني، فلم يترددن في الدفع . . .

على هذه الصورة أصبح يكسب قوت يومه . . . لقد طاف حول العالم خمساً وستين مرة، في زمرة بحارة ممن لا وطن لهم . . . وفي ليلته الاولى تلك ونساء حانة كاتارينو، اخرجنه عارياً الى صالة الرقص، لكي يرى الناس انه ليس في جسده بوصة مربعة واحدة خللت من الوشم، أماماً وخلفاً. ومن عنقه الى أصابع قدميه . . .

ولم يفلح في أن يدمج نفسه في حياة الأسرة . . . كان ينسام طول بهاره، ويقضي الليل في الحي الذي يعلوه الضوء الأحمر، مراناً على قوته بمختلف الصور . . . وفي المناسبات النادرة التي استطاعت فيها اورسولا حمله على الجلوس معهم الى مائدة الطعام، كان يتصنع التبسط والفكاهة، ولا سيما في حديثه عن مغامراته في البلاد النائية . . . فقد تحطمت به السفينة مرة في بحر اليابان وقضى أسبوعين تتقاذفه الامواج بين الحطام، فكان يأكل لحم رقيق له مات بضربة شمس، فوجد لحمه المالح جداً بعد انضاج الشمس له لذيذاً شهياً . . . وفي مرة اخرى قتلت سفينته في

بحر البنغال وحشاً بحرياً هائلاً ، فعثروا في معدته على خوذة واسلحة وحزام محارب من العصور الماضية ... وكانت اورسولا تسمع هذا والكثير من مثله وهي تبكي ، كما لو كانت تقرأ الرسائل التي لم تصل ابداً والتي كان جوزيه اركاديو يحدثها فيها عن فعالة ومغامرته ومأزق اسفاره ... وفي ذلك كانت تقول هنا كان بيع واسع ينتظرك يا ولدي ، وطعام كثير كان يرمي الخنازير ... ولكن من وراء هذا كله لم تكن تتصور ان ابنها الذي اصطلحه « الفجر » ومعهم هو نفسه هذا الشاب الخليج الرقيق ، الذي يأكل نصف خنزير صغير في غدائه والذي كانت غازات بطنه تدبلل الأزهار ولم تكن امارتنا تستطيع إخفاء اشمتزازها لدى المائدة وهي تراه يتجشأ بهذه الصورة الحيوانية ... وكان اركاديو الذي تكتمت الأسرة سر علاقة الابوة والنبوة بينهما لا يكاد يرد على الأسئلة التي كان يوجهها اليه اكتساب لمدته ... وحاول اخوه اوريليانو ان يتبع ذكرى العهود الخوالي حين كانا ينامان في غرفة واحدة وأحاديث الطفولة وافعالها المتواطة لكن جوزيه اركاديو نمت كل هذا ، لأن الحياة في عرض البحار قد شحنت ذاكرته بالكثير والكثير مما يجاوز الاستيعاب والذاكرة ..

الاربيكا وحدها التي انهارت تحت تأثيره منذ اللحظة الاولى ...

فمنذ اليوم الذي شاهدته يمر فيه بباب غرفة نومها ، بدا لها بترو كريسي مثل قطعة حلوى مزخرفة بالقياس الى هذا الفحل الذي كان تنفسه البركاني يتردد صدها في كل ارجاء البيت ... وذهبت تحاول الإقتراب متحلة اي عذراً ... وفي احدى المناسبات قطع جوزيه اركاديو الى جسدها باهتمام وقح وقال لها (أنت امرأة فتاتي الصغيرة .. وهنا فقدت كل ما في السيطرة على نفسها وفي مخدعها عادت تأكل من تراب الأرض ومصيص الحوايط بتراة الأيام السالفة وامضت ليالي ساهرة مسهدة ترتعد من الحمى وهي تنتظر حتى يهتز البيت بعودة جوزيه اركاديو في الفجر .

وفي أصيل يوم والكل نيام وقت القيلولة، لم تستطع مغالبة نفسها، وقصّدت الى غرفة نومه... فوجدته مستلقياً في الأرجوحة التي علقها في العوارض الخشبية بحبال سفينة... ولقد اشتد تأثيرها بجسامة الوشم الذي يكسو كل جسده العاري الى حد أنها فكرت في التراجع، قائلة: «معذرة... لم أكن اعرف أنك هنا»... ولكنه قال لها: «تعالى»... فأطاعت... ووقفت قرب الأرجوحة وقد شعرت بالعرق البارد يغمرها... أما هو فقد راح يربت عليها قائلاً: «آه يا صغيرتي... ستكونين زوجتي!»...

وبعد ثلاثة أيام عقد زواجهما... وفي اليوم السابق ذهب جوزيه اركاديو الى محل بترو كريسي حيث وجده يلقي درساً في الموسيقى، فلم ينتح به جانباً وإنما قال له:

- سأزوج ريكّا...

لقد امتنع ونجّه الشاب الايطالي، وبادر بصرف تلاميذه، وما أن صارا وحدهما في الحجرة المكتظة بالادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية حتى قال له:

- إنها أختك...

فرد جوزيه اركاديو قائلاً:

- لا يهمني...

فجفف بترو كريسي جبينه بالمنديل الذي كان مبللاً بالعطر، وقال له:

- ولكن هذا ضد الطبيعة... والى جانب ذلك فهو ضد القانون...

تضجر جوزيه اركاديو، لا من مجادلة بترو كريسي، ولكن لما بدا من شحوبه، وقال:

- كل هذا لا قيمة له عندي . . . وما جئت الا لأقول لك أن تبتعد عن طريق ريبكا . . .

ومع ذلك فإن فظاظته تحطمت عندما رأى عيني بترو كريسي تتنديان، وقال له بلهجة مختلفة :

- والآن، اذا كنت تحب العائلة حقيقة، فأمالك امارانتا . . .

لقد كشف الاب نيكانور في عظة يوم الاحد أن جوزيه اركاديو وريكا ليسا أخاً وأختاً . . . بيد أن اورسولا لم تغتفر قط ما عدته انتهاكاً لواجب الحشمة في الاسرة، وعندما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة حرمت عليهما دخول البيت، وعدتهما من الأموات . . . وهكذا استأجرا بيتاً في ما وراء المدافن وأقاما به دون ان يكون فيه من الاثاث أكثر من أرجوحة نوم جوزيه اركاديو . . . وفي ليلة الزفاف تسلل عقرب الى (ششبب) ريبكا ولدغ قدمها، حتى تورم لسانها . . . غير أن هذا لم يمنع أن يستمتعا بشهر عسل صاخب ترامت أصداؤه الى الجيران الذين اشفقوا أن تقض مضاجع الموتى في قبورهم ! . . .

وكان اوريليانو هو الوحيد الذي اقلقه حال العروسين . . . فابتاع لهما بعض الاثاث وأعطاهما بعض المال الى أن ارتد اخوه جوزيه اركاديو الى عالم الواقع وأخذ يعمل في اصلاح رقعة الارض المجاورة لغناء البيت لزراعتها . . . أما امارانتا فلم تبرا قط من حقدتها على ريبكا، رغم ان الظروف أتاحت لها ترضية لم تكن تحلم بها . . . ولكن اورسولا سعت الى إزالة ما لحق بالاسرة من مهانة بمسلك جوزيه اركاديو وريكا، وفي هذا اخذت ترحب بالشاب الايطالي بترو كريسي في زيارته للأسرة التي واظب عليها مودة منه واستجابة لطبعه الدمث . . . وهكذا توطدت الأواصر بينه وبين امارانتا . . . ومع أنه كان يعاملها من قبل كطفلة، إلا أن الأيام كشفت في

طباعها أشياء محببة، وهكذا فاجأها ذات يوم بطلب يدها زوجة له... أما هي فلم تتوقف عن التطريز الذي كانت آخذة به، وانتظرت برهة الى أن زالت الحمرة التي صبغت اذنيها، وقالت وقد أكسبت صوتها رنة النضج :

- طبعا يا كريسي... ولكن بعد ان يعرف أحدنا الآخر أكثر... ليس من الخير ابدأ ان يتسرع الانسان في مثل هذه المسائل...

والواقع أن هذا اربك اورسولا... فعلى الرغم من التقدير الذي كانت تكنه للشباب الايطالي، الا أنها لم تستطع ان تجزم إن كان هذا القرار طيباً او سيئاً من الناحية الأدبية بسبب الخطبة الطويلة المشهورة بينه وبين ربيكا... ولكن اوريليانو الذي أصبح رب الأسرة زاد من ارتباطها برأيه الفاصل الغامض عندما قال لها :

- ليست هذه الاوقات التي ينشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج!...

إن هذا الرأي الذي لم تفهمه أورسولا الا بعد مضي بعض الاشهر، كان هو الرأي الوحيد الصادق الذي كان بوسع اوريليانو أن يديه في تلك الأونة، ليس فقط بالنسبة للزواج، ولكن بالنسبة لأي شيء لا يتصل بالحرب... إنه هو نفسه، وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، لم يستطع ان يفهم حق الفهم ذلك الترابط الغريب لسلسلة الأحداث الرهيبة الغامضة التي أفضت به الى هذا الموقف... ان وفاة ريميديوس لم يولد في نفسه ذلك اليأس الذي كان يخافه... كان شعوره أقرب الى تبلد حسي غاضب استحال تدريجياً الى لون من الإحباط شبيه بما كان يطبع شعوره وهو مستسلم لحياته كإنسان يعيش بغير امرأة... وقد عاد الى الاستغراق في عمله من جديد، بيد أنه حافظ على عادته في التردد على بيت صهره القاضي دون أبولينار موسكوت لملاعبته «الدومينو»... وفي هذا البيت الذي كان يلفه

الحداد؛ تكفل الحديث الليلي بدعم أواصر الصداقة بين الرجلين . . . وذات مرة قال له صهره :

- تزوج مرة ثانية يا أوريليانو. . . عندي ست بنات، لك أن تختار احدهن . .

وفي احدى المناسبات، قرب اجراء الانتخابات العامة، عاد دون أبو لينار موسكوت من احدى رحلاته المتكررة الى عاصمة الإقليم يساوره القلق بصدد الموقف السياسي في البلاد. . . فإن الليبراليين المعارضين للحكومة كانوا مصممين على محاربتها. . . ولما كان أوريليانو في ذلك الحين ليست لديه سوى افكار مشوشة عن الفوارق بين الليبراليين والمحافظين، فقد تكفل صهره بتوضيح ما غمض عليه من هذه الناحية، خصوصاً تمسك حكومة المحافظين بالحفاظ على سلطة الدولة والوحدة الوطنية ودعم روابط الدين والاسرة ومناهضة تقسيم البلاد الى كيانات ذاتية الحكم. . . ولكن مهما يكن من تعاطف أوريليانو مع الليبراليين في بعض النواحي الانسانية مثل الاعتراف بحقوق الاطفال الطبيعية، فإنه لم يفهم قط كيف يتطرف بعض الناس الى حد اشهار الحرب الاهلية بسبب معتقدات قابلة للصواب والخطأ. . . ومن هذا القبيل بدا له انها مبالغة من صهره أن يسعى الى استقدام ستة جنود مسلحين بالبنادق تحت امرة رئيس لهم في مناسبة اجراء الانتخابات. . . وقد قام الجنود فور حضورهم بالطواف ببيوت البلدة بيتاً بيتاً يصادرون كل ما بها من أسلحة صيد ومحشات زراعة، حتى سكاكين المطابيح، ويوزعون على المذكور فوق الحادية والعشرين بطاقات بأسماء المرشحين، زرقاء للمحافظين وحمراء لليبراليين. . .

وبعد اجراء الانتخابات وفوز المحافظين لجأ الليبراليون بعد ما شاع من تزوير نتائج الانتخابات الى التطرف، الى حد أنهم قرروا اغتيال دون أبولينار وبناته الست فيمن دبروا اغتيالهم من أعوان المحافظين. . . وعندما نمي هذا

التدبير الى اوريليانو الذي كان حتى ذلك الحين يقف موقف الحياد دون أن ينحاز الى احد الفريقين، ثارت ثائرتة، وواجه زعيم المتآمرين قائلاً : «لا أنت ليبرالي ولا أي شيء... ما أنت الا جزار!...»

وعلى الأثر لزم اوريليانو بيت دون موسكوت كل ليلة... وقد رأى المتآمرون من عزمه ما جعلهم يرجثون تنفيذ المؤامرة الى أجل غير مسمى..

كانت هذه هي الظروف التي جاءته فيها أرسولا تسأله الرأي في زواج بترو كريسي واماراتنا، والتي رد فيها بقوله إنه ليست هذه بالاوقات التي يشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج... وقد ظل مدى اسبوع يحمل طبنجة عتيقة تحت قميصه وهو لا يغفل عن مراقبة حركات الليبراليين وفيهم كثير من اصحابه... وكان يذهب في فترات الظهر لشرب القهوة مع اخيه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، اللذين بدأ ينظمان بيتهما.. فاذا كانت الساعة السابعة قصد الى دار صهره للعب «الدومينو» في الظاهر والسهر على سلامته في الواقع... أما وقت الغداء فكان يذهب الى اركاديو في المدرسة التي اختار أن يقيمها لتعليم الصغار، والكبار، وكان قد ترعرع وأصبح فتى قوياً مثل أبيه جوزيه اركاديو، ولكن اوريليانو وجده متحمساً للحرب الاهلية التي كانت نذرها تلوح في الأفق، بعد أن أعدته حمى الليبرالية... وعندئذ عمل اوريليانو على تهدئته والحد من تطرفه، وأوصاه بالتزام جانب الحكمة والاعتزان، وإن كان ابن الأخ هذا قد تمادى في اندفاعه الى حد أنه غير اوريليانو علناً ذات مرة بالضعف والاستكانة...

وفي النهاية، وفي بداية شهر ديسمبر، اندفعت أرسولا الى داخل مسبك المعادن حيث كان اوريليانو منهمكا في العمل، صائحة :
- لقد بدأت الحرب !..

والواقع ان الحرب بدأت قبل ذلك بثلاثة اشهر... فقد أعلنت

الاحكام العرفية في البلاد كلها . . . وكان الشخص الوحيد الذي عرف بأمرها مباشرة في البلدة هودون ابولينار موسكوت، بيد أنه لم يبلغ النبا حتى لزيارته بينما كانت السرية التي كان عليها ان تحتل البلدة مباغثة في طريقها لتنفيذ هذه المهمة . . . وفعلنا دخلت السرية البلدة في سكون قبل الفجر، مصحوبة بقطعتين من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال، واتخذت مقرها في المدرسة . . . وفي الساعة السادسة مساء أعلن حظر التجول . . . وقد قاموا بتفتيش صارم من بيت الى بيت، مصادرين حتى أدوات الزراعة . . . وقبضوا على زعيم المؤامرة وربطوه في شجرة في الميدان وأعدموه رميا بالرصاص . . . وحاول الاب نيكانور أن يتدخل، ولكن أحد الجنود شج رأسه بكعب بندقيته . . . وهكذا اخمدت النزعة الليبرالية في البلدة بهذا الارهاب . . . ومضى أوريليانو في انطوائه وغموضه يلعب (الدومينو) مع صهره، وقد ادرك أنه على الرغم من صفته الرسمية كزعيم مدني وعسكري للبلدة، الا أنه أصبح مجرد واجهة، بعد أن صارت القرارات في يد قائد السرية، الذي درج كل صباح على جباية ضريبة غير عادية للدفاع عن الامن العام . . . وقام أربعة جنود تحت امرته بانتزاع امرأة عضها كلب مسعور من احضان اسرتها وقتلوا بكعوب بنادقهم . . . وبعد مضي اربعة أسابيع على الاحتلال ذهب أوريليانو يوم أحد الى دار صديقه جيريلدو ماركيز وكان من أبرز الليبراليين، وفاجأه بعد شرب القهوة بلهجة أمرة لم تعهد فيه من قبل، قائلا :

- إجمع الفتيان واستعدوا . . . سندخل الحرب . . .

لم يصدقه جيريلدو ماركيز، وقال له :

- وبأية اسلحة ؟ . . .

فأجاب أوريليانو :

- بأسلحتهم . . .

وفي يوم الثلاثاء عند منتصف الليل، وبعملية جنونية، باغت واحد وعشرون رجلا دون سن الثلاثين وبقيادة أوريليانو بوينديا وهم مسلحون بسكاكين المطبخ والادوات الحادة... باغتوا أفراد الحامية، وانتزعوا اسلحتهم، وفي الفناء اعدموا قائدهم مع الجنود الاربعة الذين قتلوا المرأة... .

وفي نفس الليلة، بينما كان صوت فريق الرماة بالرصاص يتردد، عين اركاديو قائدا مدنيا وعسكريا للبلدة... ولم يكن المتزوجون من المتمردين يجدون وقتاً لتوديع زوجاتهم وتركهن لتدبير شؤونهن وحدهن... ثم ارتحلوا في الفجر مشيعين بالهتاف من أهل البلدة بعد أن خلصوهم من الارهاب، لكي ينضموا الى قوات القائد الثوري فكتوريو مدينا، الذي تواتر أنه في طريقه الى مدينة مانور... وقبل الرحيل اخرج اوريليانو القاضي دون ابولينار موسكوت من داخل دولا ب الملايس وقال له :

- لك ان تطمئن يا صهري... ان الحكومة الجديدة تضمن بشرفها سلامتك الشخصية وسلامة أسرتك... .

لقد كاد يتعذر على دون ابولينار موسكوت أن يتعرف في هذا المتآمر ذي الحذاء العالي والبندقية المعلقة على كتفه ذلك الشاب الذي كان يلاعبه «الدومينو» حتى الساعة التاسعة كل ليلة، ولم يتمالك أن هتف باسم التذليل الذي كان يناديه به :

- هذا جنون، يا أوريليتو... .

فرد عليه أوريليانو قائلاً :

- ليس جنوناً... انها الحرب... ولا تنادني باسم أوريليتو بعد ذلك... أنا الآن الكولونيل أوريليانو بوينديا... .

الفصل السادس

نظم الكولونيل اوريليانو بوينديا اثنين وثلاثين تمرداً مسلحاً وخسرهما جميعاً. . . وقد انجب سبعة عشر طفلاً من سبع عشرة امرأة، ولكنهم هلكوا جميعاً واحداً بعد الآخر في ليلة واحدة قبل أن يبلغ اكبرهم سن الخامسة والثلاثين. . . واستهدف لأربع عشرة محاولة لاغتياله، وثلاثة وسبعين كميناً، ومرة لإعدامه بالرصاص أمام فريق الرماة. . . ولكنه نجا منها جميعاً. . . كما نجا من الموت بجرعة من السم تكفي لقتل جواد. . . وقد رفض قبول وسام الجدارة الذي انعمت به عليه الدولة بعد الحرب الاهلية. . . وارتقى الى مرتبة القائد العام لقوات المتمردين، مع تقلده سلطات التشريع والقيادة، حتى غدا أكثر رجل تخشاه حكومة المحافظين. . . بيد أنه لم يسمح قط بأخذ صورته الفوتوغرافية. . . ورفض قبول المعاش لمدى الحياة الذي قدم له بعد الحرب. . . والى أن أدركته الشيخوخة كان يكسب قوته اليومي من تماثيل الاسماك المذهبة الصغيرة التي كان يصنعها في معمله ببلدة ماكوندو. . . وعلى الرغم من أنه كان يقاتل دائماً على رأس رجاله، فإن الجرح الوحيد الذي تلقاه كان الجرح الذي أصاب نفسه به بعد توقيع (معاهدة نيرلانديا) التي وضعت نهاية لقرابة عشرين سنة من الحرب الاهلية. . . فقد اطلق رصاصة على صدره من طبنجة، وخرجت الرصاصة من ظهره دون أن تعطب أي عضو من أعضائه الحيوية. . . وكان الاثر الوحيد الذي بقي من كل هذا هو اطلاق اسمه على شارع ببلدة ماكوندو. . . ومع ذلك، وطبقاً لما صرح به قبل سنوات قلائل من وفاته بالشيخوخة، فإنه لم يكن يتوقع أي شيء من هذا كله، في فجر ذلك اليوم الذي خرج فيه مع رجاله الواحد والعشرين

للاضمام الى قوات الجنرال فكتوريو مدينا .

كان كل ما قاله لابن اخيه اركاديو عند الرحيل :

- إننا نترك ماكوندو تحت رعايتكم . . إننا نتركها في خير حال . . .
فلتحاول أن تجعلها في أحسن حال عندما نعود . .

لقد ترجم اركاديو هذه الوصية ترجمة ذاتية منبعثة من شخصه . . . فقد ابتكر كسوة مارشال مزخرفة ، وتمنطق بحزام عريض تدلى منه سيف ذو خصللات ذهبية كان يحمله قائد السرية الذي أعدموه . . ونصب قطعتي المدفعية عند مدخل البلدة ، وألبس تلاميذه السابقين كسى عسكرية . اولئك الذين ألهب خيالهم بتصريحاته النارية ، وجعلهم يجولون في الشوارع مسلحين لكي يوحوا الى الغرباء بمنعتهم . . . وكان هذا التمشيه سلاحاً ذا حدين ، لأن الحكومة ، لم تجسر على مهاجمة البلدة مدى عشرة اشهر ، ولكنها عندما فعلت اطلقت عليهم قوة كبرى جائحة تكفلت بتصفية المقاومة في خلال نصف ساعة . . . ومنذ اليوم الاول لحكم اركاديو ، كشف عن هيامه بإصدار الاوامر العسكرية المتلاحقة ، التي كانت تصل الى اربعة في اليوم الواحد وتتناول كل ما يطرا على باله . . . ومن ذلك أنه فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الرجال فوق سن الثامنة عشرة ، وأعلن الاستيلاء على الحيوانات التي تمشي في الشوارع بعد السادسة مساء واعتبارها من الممتلكات العامة ، وأمر أن يضع الرجال المسنون اشربة حمراء حول اذرعهم . . . وفرض الحراسة على الاب نيكاتور في بيت الابرشية وحظر اقامة القسدا وحق الأجراس الا اذا كانت من أجل اعلان انتصار للبريين . . . وأول الأمر لم يأخذ أحد أوامره مأخذ الجد ، واعتبر الناس هذا من قبيل لعب تلامذة مدارس يتقمصون دور الكبار . . . ولكن حدث ذات ليلة عندما ذهب اركاديو الى حانة كاتارينو ان حياه «نافخ البروجي» وكان بين

الموجودين بنفخ بوقه مما جعل رواد الحانة يضحجون بالضحك، فأمر اركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص بتهمة الإخلال بواجب الاحترام للسلطات . . . وكانت اورسولا في كل مرة تسمع فيها بعمل من أعماله التعسفية تصرخ في وجهه قائلة :

- يا قاتل ! يا سفاك ! . . عندما يعرف اوريليانو سوف يرميك بالرصاص، وسأكون أول من يفرح بذلك ! . .

ولكن اركاديو تمادى في أعمال القمع حتى غداً أقسى حاكم عرفته ماكوندو . . . وفي هذا قال دون أبولينار موسكوت ذات مرة :

- فلندعهم الان يعرفون الفرق ويتحملون ! . . هذا هو الفردوس الليبرالي ! . .

وعندما ترامى هذا الكلام الى سمع اركاديو قام على رأس قوة من رجاله بمهاجمة البيت حيث دمروا اثاثه وجلدوا بناته وسحبوا دون أبولينار موسكوت الى خارج البيت . .

ولما اندفعت أورسولا الى مقر القيادة بعد أن طافت بالبلدة تندد بهذا العار وتلوح في غضبها بكرباج ملطخ بالقار، وجدت اركاديو ذاته في فناء المبنى يستعد لإصدار الأمر الى فريق الرماة بإطلاق النار، فصرخت قائلة :

- إنني اتحداك يا ابن الزنا ! . .

وقبل أن يجد اركاديو وقتاً لرد الفعل هوت عليه بأول ضربة من السوط صارخة :

- إنني اتحداك يا قاتل ! . . اقتلني أنا ايضاً، يا ابن المرأة الموبوءة ! . . بهذه الطريقة لن تبقى لي عيتان أبكي بهما معرفتي لأنني ربيت وحشاً ! . .

وجعلت تجلده بلا رحمة وتطارده الى خلف الفناء حيث انكمش
 اركاديو على نفسه مثل قوقعة. . . وكان دون ابولينار موسكوت مقيداً الى
 عمود مغمى عليه. . . وفي هذه الاثناء تفرق فتیان فريق الرماة خوفاً من أن
 تحمل عليهم اُورسولا ايضاً. . بيد أنها لم تكلف نفسها حتى عناء النظر
 اليهم، وتركت اركاديو ممزق الكسوة وهو يضحج بالألم محنقاً، وفكت رباط
 دون ابولينار موسكوت وصحبتة الى بيته. . . وقبل أن تغادر مقر القيادة اطلقت
 سراح المعتقلين الذين زج بهم اركاديو في الحبس تعسفاً. . .

ومنذ ذلك الحين أصبحت هي التي تتولى زمام الحكم في
 البلدة، فاعادت شعائر القداس، وألغت كافة الاوامر التعسفية المخبولة التي
 اصدرها اركاديو. . ولكن بالرغم من قوتها، فإنها كانت تبكي حظها العاثر. .
 وقد شعرت بوحدة مطبقة الى حد انها كانت تسعى الى صحبة زوجها غير
 المجدية وهو منسي منبوذ تحت شجرة الكستناء، وكانت تقول له في غمرة
 امطار يونيو التي كانت تهدد بتقويض عشه الواهي :

- انظر الى ما صار اليه حالنا. . انظر الى بيتنا الخاوي، واطفالنا الذين
 تفرقوا في العالم، ونحن الاثنين وحدنا مرة اخرى، مثلما كنا في البداية. . .
 ان اوريليانو خرج الى الحرب منذ أكثر من أربعة اشهر ولم نسمع عنه شيئاً
 حتى الان ! . . وجوزيه اركاديو ابنا عاد الينا رجلاً ضخماً، وأطول منك،
 وجسمه كله مغطى بإبر الوشم، ولكنه لم يفعل أكثر من أنه جلب العار على
 البيت ! . .

وعندما بدا لها أن زوجها لا يسته مسحة حزن في لحظات الوعي العابرة
 التي كانت تلم به، للاخبار المكدرة، رأت أن تلون كلامها بالكذب، فمضت
 تقول في اختلاقتها :

- لقد شاءت ارادة الله ان يتزوج جوزيه اركاديو وريبكا، وهما الان

سعيدان .. وأركاديو هو الآن رجل جاد، وباسل جدا، وشاب جميل الصورة
بكسوته العسكرية وسيفه .. هل تصدق ان الحظ بدأ يحالفنا من جديد ..
فإن اماراتنا وعازف البيانولا الايطالي سوف يتزوجان ! ..

والواقع أن اماراتنا وبثرو كريسي قد وطدا صداقتهما، بحماية من
أورسولا، حتى لم يعد أحد يشك في أنهما سيكونان زوجين موفقين .. ثم إن
مدة الحداد على ريميدوس بدأت تتلاشى في ظل أثقال الحرب، وغياب
أوريليانو، ووحشية أركاديو، واقصاء جوزيه أركاديو ورييكا من البيت ..

وهكذا جاء اليوم الذي بلغ فيه حب وصبر بثرو كريسي متهاهما ..
وتصادف أن اقترن هذا اليوم بأمطار أكتوبر المنحوسة .. وقد قال بثرو
كريسي لأماراتنا أخيراً وهو ينحي سلة التطريز من يدها :

- سوف نتزوج في الشهر المقبل ..

لم ترتعد اماراتنا لملمس يديه المثلجتين، وجذبت يدها مثل حيوان
صغير وجل وعادت الى التطريز قائلة :

- لا تكن سليم النية يا كريسي .. لن اتزوجك حتى لو كنت من
الأموات ..

عندئذ فقد بثرو كريسي كل سيطرة على اعصابه .. وأجهش بالبكاء
في غير استحياء وهو يكاد يقصف أصابعه يأساً ، بيد أنه لم يستطع ان
يثنيها .. وكان كل ما قالته اماراتنا له :

- لا تضيع وقتك .. إن كنت تحبني الى هذا الحد، فلا تضع قدمك
في هذا البيت بعد الآن ..

ولقد شعرت أورسولا أنها ستفقد عقلها خجلاً وخزياً .. وعلى الرغم

من أن بترو كريسي لم يدخر وسيلة الا استعان بها لاسترضاء امارانتا، الا أن كل محاولاته ذهبت ادراج الرياح، وظلت امارانتا على اياها لا تلتين لها قناة ولا يرق لها قلب...

و ذات صباح من شهر نوفمبر فتح شقيق بترو كريسي الاصغر متجر الادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية الذي كان يديره نيابة عن أخيه، فوجد جميع الانوار مضاءة، وكل الادوات الموسيقية تعزف، وكل الساعات تدق دقات الساعة متواصلة. وفي إبان هذا العزف المجنون عثر على بترو كريسي لدى المكتب في اقصى المتجر وقد قطع معصمه بموسى والدم مصبوب في إناء تحت يديه..

أصرت اورسولا ان تنقل جثة المتوفى الى بيتها للسهر عليه حتى يتم تشييع الجنازة.. وقد خرجت البلدة كلها في اليوم المحدد تودعه الى مثواه الاخير في موكب مهيب بالغ الأسى.. وكانت امارانتا في فراشها تسمع بكاء اورسولا وخطى وهمسات جموع المعزين ونحيب الناديين دون ان تفادر مخدعها.. ولكن كان لديها من القوة والاحتمال ما نأى بها عن الوقوع فريسة الحمى.. ولقد تجنبتها اورسولا وصدت عنها.. بل إنها لم ترفع حتى عينيها نحوها رثاء ومشاطرة عندما رأتها تدخل الى المطبخ عصر ذات يوم وتلدس يدها داخل الفحم المتوهج في الموقد وتبقىها كذلك الى الحد الذي لم تعد تشعر فيه بالمرحى حتى سرت الى أنفها رائحة اللحم المحترق.. وظلت أياماً كثيرة وهي تنتقل في أرجاء البيت ويدها مغموسة في إناء به بياض البيض، وعندما التأت الحروق، بدا وكأن حروق قلبها لن تلتئم أبداً.. وكانت الآثار الوحيدة التي تخلقت عن الفاجعة هي ضمادة من شاش اسود لفتها حول يدها المحترقة وظلت تحملها حتى مماتها..

وقد أبدى اركاديو كرما نادرا بإعلان الحداد الرسمي على بترو

كريسي . . وفست اورسولا هذا على أنه بمثابة عودة الحمل الشارد . . بيد أنها كانت مخطئة . . فقد فقدت أركاديو، لا منذ أن ألبس نفسه الكسوة العسكرية، ولكن منذ البداية . . كانت تظن انها أنشأته وربته كإبن، كما انشأت وربت ريبكا، دون ما أي تمييز او نفرة . . وعلى الرغم من ذلك فإن أركاديو كان طفلاً انعزالياً مرتعياً في كافة التقلبات التي مرت بالأسرة، في خلال سيطرة اورسولا وتحكمها كربة للبيت مطلقة السلطان والتصرف، وفي خلال اطوار الهوس التي طبعته حياة «جوزيه أركاديو بوينديا»، وفي ظل اعتزال اوريليانو لمبازل الشباب، وفي ظل المنافسة الحامية بين أمارانتا وريبكا . . نعم إن اوريليانو علمه القراءة والكتابة، ولكن كما يفعل حيال أي شخص غريب، انصرفاً منه إلى شؤون أخرى . . وكان يعطيه ملابس المستعملة، حتى كان أركاديو يقاسي من الاحذية المتسعة عليه، ومن البنطلونات المرقعة . . وهو لم ينجح في التفاهم مع أحد بأحسن مما كان يتفاهم مع التابعين الهنديين بلغتهما . . ومن ثم كانت المدرسة، حيث كانوا يعيرونه الاهتمام ويحترمونه، وحيث استمد منها القوة والصولة في ما بعد، مقرونتين بالكسوة العسكرية والأوامر النافذة . . كانت المدرسة هي التي حررتهم من أثقال العراة القديمة التي طالما اعتملت في صدره . . وذات ليلة تجاسر أحدهم في مشرب كاتارينو وقال له :

- أنت لا تستحق اللقب الذي تحمله . .

وخلافاً لما توقعه الجميع، لم يأمر أركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص وإنما رد قائلاً :

- من دواعي عظيم شرفي انني لست من أسرة بوينديا . .

وقد ظن أولئك الذين يعرفون سر أبويه ان رده يعني إنه عليم ايضاً بهذا السر، بيد أنه لم يعلمه قط . . وكانت «بيلا تيرنيرا» - أمه - تلك التي كانت

تضرم النيران حامية في عروقه كلما اشرفت عليه في غرفة التحميص المظلمة بالمعمل . . كانت امرأة تدكي مشاعره بقوة عارمة مثلما كانت بالنسبة لجوزيه اركاديو «أبيه» ، ومن بعده اوريليانو، على الرغم من أنها فقدت مفاتيها وضحكتها الصادحة . . . وكان يتعقبها ويستدل على اثرها من ذلك الأريج الدخاني الذي يفوح منها . . وقد حدث قبل الحرب بفترة قصيرة عندما تأخرت في الحضور الى المدرسة ظهراً لاصطحاب طفلها الاصغر «من أب مجهول» ، ان راح اركاديو ينتظرها في الغرفة التي اعتاد أن ينام فيها قيلولته . . وفيما كان الطفل يلعب في فناء المدرسة، كان اركاديو ينتظر في أرجوحته وهو يرتعد قلقاً وتشوقاً، عارفاً أن بيلار تيرنيرا لا بد أن تمر من الغرفة . . وجاءت فعلاً . . واذا اركاديو يجذبها من معصمها محاولاً حملها الى الأرجوحة . . فقالت بيلار تيرنيرا في هلع :

- لا يمكنني . . . لا يمكنني . . . لا يمكنك ان تتصور الى أي حد أود أن اسمدك، ولكن يشهد الله أن هذا ليس في امكاني . . .

فأمسك اركاديو بخصرها بقوة الهائلة الوراثة وقد شعر بالدنيا تغيب عنه من ملمس بشرتها، وقال لها :

- لا تمثلي دور القديسة ! . . على أي حال فالكل يعرفون أنك يعني . . .

تغلبت بيلار على التقرز الذي ابتعته في نفسها علمها بحظها السيء، وغمغمت قائلة

- إن الأطفال سيكتشفون الموقف . . الافضل ان نترك الباب بغير مزلاج هذه الليلة ! . .

وفي تلك الليلة انتظرها اركاديو في أرجوحته وهو يرتعد ارتعاد المحموم . . انتظر دون أن ينام والليل يمر بطيئاً متثاقلاً حتى أشفى على

الفجر، مما أقنعه بأنه كان مخدوعاً . وفجأة، عندما استحال الانتظار والقلق الى غضب، فتح الباب أخيراً . .

كانت الخطى متخبطة في الظلام وبين «تخت» القفص . . ولما مد يده وجد يداً أخرى متخمة بخاتمين في أصبع واحد، على غير ما عرف في بيلار تيرنيرا . . وإذ لم ينفذ الى أنفه الأريج الدخاني واشتم رائحة عطر عادي، فقد أيقن أن هذه ليست المرأة التي كان ينتظرها . .

كانت فتاة تدعى «سانتا صوفيا بيدال» وقد نقدتها بيلار تيرنيرا خمسين بيزو وهي نصف ما ادخرته في حياتها، لكي تذهب مكانها . . وكان اركاديو قد شاهدها مرارا كثيرة في محل البقالة الصغير الذي يملكه أبواها ولكنه لم يكن يهتم بها . . ولكن منذ تلك الليلة درجت على أن تذهب اليه في المدرسة في فترة القيلولة، بموافقة أبويها، اللذين منحتهما بيلار تيرنيرا النصف الباقي من مدخراتها . . وظل الحال كذلك الى أن أصبح اركاديو قائداً عسكرياً مدنياً، وله منها بنت . .

وكان الاقرباء الوحيدون الذين يعرفون ذلك هما أبوه جوزيه اركاديو وزوجته ريكا، بعد أن وطد اركاديو صلاته بهما في ذلك الحين، لا لصلة القرابة، ولكن لمصلحة خاصة جعلت منه ومن أبيه شريكين متواطئين . . فإن الزواج جعل من جوزيه اركاديو انساناً طيعاً عاملاً، يخرج الى الغابة كل يوم محتقياً بندقية الصيد المزودة بصحبة كلاب الصيد المدربة، ويعود الى البيت الذي جملته ريكا، بحصيلته من الارانب والبط البري، والغزلان أحياناً . . وذات يوم زاره اركاديو في مستهل حكمه للبلدة زيارة مفاجئة دعي فيها للغداء . . واثناء شرب القهوة كشف اركاديو عن الغرض من الزيارة، وهو شكوى قدمت اليه ضد جوزيه اركاديو . . فقد قيل إنه لم يكتف برفعة الأرض التي كان يفلحها، بل عمل على زيادتها باغتصاب الاراضي المجاورة بالقوة الجبرية، وتمادى في هذا الى حد فرض اتاة على جيرانه يحصلها كل يوم

سبت تحت ارباب كلابه وبندقية المزوجة . . . ثم تبين ان اركاديو لم يأت لتصحيح الاوضاع ورفع الظلم ، بل لإدراج الأرض كلها ، ما لأخيه وما ليس له ، في سجل رسمي ، بشرط ان يترك للحكومة تحصيل الاتاوات . . . وعلى هذا تم الاتفاق بين الاثنين . . . وفي السنوات التالية ، عندما قام الكولونيل اوريليانو بوينديا بفحص سجل الممتلكات العقارية ، تبين أنه قد سجلت باسم اخيه جوزيه اركاديو كافة الاراضي الممتدة بين التل حيث كانت رقعته الصغيرة وبين الأفق ، بما فيها أرض المدافن . . . كما اكتشفت أن اركاديو لم يكن يحصل فقط الاتاوات ، بل كان يتقاضى كذلك رسوماً من الافراد نظير دفن موتاهم في أرض جوزيه اركاديو . . .

وكان حتماً أن تفوح رائحة الفساد الى أنف اورسولا وأن تسمع بأن اركاديو ابتنى لنفسه بيتاً واستجلب أثاثاً فاخراً من الخارج ، ولكنها لم تعلم علم اليقين الا بعد أن زارته في بيته الجديد ذات يوم وهو يلعب الورق مع ضباطه . . . عندها ايقنت أنه يستغل الاموال العامة لحسابه ، ولم تتمالك أن صرخت فيه قائلة :

- أنت عار على اسم اسرتنا وسمعتها ! . .

أما أركاديو فلم يعبأ بها . . . ويومها فقط عرفت أن له طفلة عمرها سنة اشهر ، وأن «سانتا صوفيا بيدال» التي كان يعاشرها بغير زواج ، حامل مرة اخرى . . . فاستقر عزمها على مكاتبة الكولونيل اوريليانو بوينديا ، حيثما يكون ، لإطلاعه على أحدث مجريات الامور . . . بيد أن الأحداث المتلاحقة بسرعة في تلك الأيام حالت دون تنفيذ عزمها . . . ذلك أن الحرب التي كانت حتى ذلك الحين مجرد كلمة لوصف ظرف بعيد غامض ، قد استحالت الى واقع محسوس درامي . . . فقد حدث قرب نهاية شهر فبراير أن وصلت الى ماكوندو امرأة عجوز كالحة الوجه راكبة حماراً محملاً بالمكانس . . . وكانت علائم المسالمة بادية على المرأة الى حد أن الحرس تركوها تمر دون سؤال

باعتبارها بائعة متجولة مثل غيرها من الباعة الوافدين من منطقة المستنقعات . . وقد اتجهت المرأة العجوز الى الشككات مباشرة . . فاستقبلها اركاديو في فصل المدرسة الذي كان قد تحول الى معسكر خلفي للحرس علقت على جدرانها اراجيح النوم وتناثرت على ارضه البنادق والطبنجات وحتى بنادق الصيد القصيرة . . وإذا المرأة العجوز تنتفض في وقفة انتباه وتحيي تحية عسكرية معرفة نفسها قائلة :

- أنا الكولونيل جريجوريو ستفنسون . .

ولقد جاء معه بأنباء سيئة . . فإن آخر مراكز المقاومة للبراليين بدأت تتصدع وتسقط تباعا . . وقد عهد اليه الكولونيل اوريليانو بوينديا، الذي تركه يقاتل متقهراً قرب بلدة ريوهاشا، برسالة لإبلاغها الى أركاديو . . وكان عليه ان يسلم ماكوندو دون مقاومة، بشرط احترام حياة وممتلكات الليبراليين . . وقال اركاديو للرسول وهو يتفحصه بنظرة في عجب ورتاء معا :

- طبعاً احضرت معك رسالة خطية . . .

فرد المبعوث قائلاً :

- بالطبع لم احضر معي شيئاً من هذا القبيل . . فالمفهوم في مثل الظروف الحاضرة الا يحمل الانسان شيئاً يمكن أن يدينه . .

وشفع هذا الكلام بأن دس يده في «مشده» النسائي وأخرج سمكة مذهبة صغيرة قائلاً :

- أظن ان هذا سيكونني . .

أيقن اركاديو أنها حقاً من تلك الحلوى الصغيرة التي كان يصنعها الكولونيل اوريليانو بوينديا . . لكن كان من الممكن لأي انسان أن يتاع مثلها قبل الحرب او يسرقها فلا يمكن الاعتماد عليها كجواز مرور عسكري . .

وعندئذ لجأ الرسول لكي يصدقوا هويته الى افساء سر حربي ، فقال إنه موفد في مهمة الى بلدة كوراكاو، حيث يؤمل في تجنيد المهاجرين المنفيين من كل انحاء البحر الكاريبي وجمع اسلحة وامدادات تكفي لمحاولة النزول الى البر عند نهاية العام . . ونظراً لإيمان الكولونيل اوريليانو بوينديا بهذه الخطة ، فإنه غير ميال الى بذل توضيحات لا جدوى منها في ذلك الحين . . ورغم هذا كله فإن أركاديو لم ينزل عن إصراره ، فأمر بوضع الاسير تحت التحفظ الى أن يمكنه اثبات هويته ، وصمم على الدفاع عن البلدة حتى الموت . . .

ولم يكن له ان يطول انتظاره . . فإن اخبار هزيمة الليبراليين غدت حقيقة واقعة . . فقرب نهاية شهر مارس في فجر يوم هطلت امطاره على غير انتظار، بدد سكان الاسابيع السابقة فجأة أصوات نغير ملعلع وطلقة مدفع اطاحت برج الكنيسة الأمامي . . وفي واقع الأمر كان قرار أركاديو بالمقاومة جنونا لا شك فيه . . فلم يكن تحت إمرته أكثر من خمسين رجلاً مسلحين سلاحاً هزيعاً ، وما معهم من الذخيرة لا يزيد على عشرين طلقة لكل مقاتل . . ولكن التلاميذ السابقين بين الجنود هبوا للدفاع والاستبسال حتى الموت ، مشحونين بالبيانات الحماسية التي كان أركاديو يثبها في صدورهم . . . وفي غمار هذا الوطيس الحامي افلح الكولونيل ستفنسون المزعوم في الاتصال بأركاديو وقال له :

- لا تدعني أتحمل مذلة الموت في الحبس وأنا في ملابس النساء
هذه . . . ان كان لا بد لي من الموت ، فدعني أموت مقاتلاً . . .

واستطاع اقناع أركاديو الذي أمر بإعطائه سلاحاً وعشرين طلقة ، ومضى مع خمسة رجال للدفاع عن مقر القيادة ، بينما انطلق أركاديو على رأس أركان حربه للإشراف على المقاومة . . .

ولم يتقدم بعيداً . . . فقد تحطمت الاستحكامات ، وأصبح

المدافعون يقاثلون مكشوفين في الشوارع حتى نفدت ذخيرتهم وغدو، يشتبكون بالأيدي . . ومع اقتراب الهزيمة خرجت بعض النساء الى الشوارع مسلحات بالعصي وسكاكين المطابخ . . وفي غمرة الفوضى عثر أركاديو على أمارانتا التي كانت تبحث عنه كمجنونة وهي في جلباب نومها ومعها طبعنتان قديمتان مملوكتان لجوزيه أركاديو بوينديا . . فأعطى أركاديو بندقيته لضابط فقد سلاحه وتسلل مع أمارانتا من شارع قريب لإعادتها الى البيت . . وكانت أورسولا لدى الباب تنتظر ، غير عابثة بطلقات المدفع التي أحدثت ثغرة في واجهة البيت المجاور . . وترك أركاديو أمارانتا مع أورسولا وحاول مواجهة جنديين فتحا نيرانا ثقيلة لدى الناصية . . لكن الطبعنتين العتيقتين لم تعملا . . وفي هذه اللحظة عمدت أورسولا الى حماية أركاديو بجسدها محاولة جذبه الى ناحية المنزل صالحة :

- تعال معي ناشدتك الله ! . . يكفي ما كان من جنون ! . .

فصاح أحد الجنديين بدوره :

- دعي هذا الرجل يا سيده ، والا فلن نكون مسؤولين ! . .

فدفع أركاديو أورسولا في اتجاه البيت واستسلم . . وبعد فترة قصيرة توقف إطلاق النار ، وبدأت الاجراس تدق . . فقد أبدت المقاومة عن آخرها في أقل من نصف ساعة . . ولم ينج رجل واحد من رجال أركاديو في هذه المعركة ، ولكنهم قتلوا ثلاثمائة من الجنود المهاجمين قبل مصرعهم . . وكان المعقل الاخير الباقي هو الثكنات . . وقبل مهاجمته أطلق الكولونيل جريجوريو ستفنسون المزعوم سراح الأسرى وأمر رجاله بالخروج والقتال في الشارع . . وقد أعطت سرعة الحركة ودقة التصويب اللتان استفد بهما العشرين طلقة التي أعطيت له . . أعطت الانطباع بأن الثكنات تحت دفاع قوي ، حتى عمل المهاجمون على نفسها بنيران المدافع . . ولقد

روح الضابط الذي قاد العملية اذ وجد أنقاض التكنات خاوية الا من رجل واحد صريع في ملابسه الداخلية وما زالت يده المبتورة ممسكة ببندقية فارغة . . . وكان للرجل الصريع شعر امرأة معقود خلف الرقبة بمشط وحول عنقه سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية صغيرة . . . وعندما أداره بطرف حذائه وسلط الضوء على وجهه، لم يتمالك أن هتف متحيراً :

- يا إلهي ! . . .

ولما اقترب منه الضباط الآخرون أضاف قائلاً :

- أنظروا من وجدنا في هذا القتل ! . . إنه جريجوري

ستفنسون ! . .

وعند الفجر، وبعد محاكمة عسكرية قصيرة، أعدم أركاديورياً بالرصاص عند حائط المدافن . . .

وعندما سئل قبيل تنفيذ الاعدام عن رغبته الأخيرة قال بصوت متموج

النبرات :

- قولوا لزوجتي أن تسمي طفلتنا باسم أورسولا . . . أورسولا،

جدتها . . . وقولوا لها أيضاً إن المولود الذي سيولد، إن جاء ذكراً ، فليسموه جوزيه أركاديو، لا اسم عمه، بل اسم جده ! . . .

الفصل السابع

انتهت الحرب في شهر مايو . . وقبل اسبوعين من البيان الرسمي الذي اذاعته الحكومة بلهجة طنانة والذي توعدت فيه بإنزال عقاب صارم لا رحمة فيه لأولئك الذين بدأوا التمرد، وقع الكولونيل اوريليانو بوينديا اسيراً في الوقت الذي كان فيه موشكاً على الوصول الى الحدود الغربية متنكراً في شخصية طبيب ساحر هندي . . ومن بين الواحد والعشرين رجلاً الذين خرجوا معه الى الحرب، لقي اربعة عشر حتفهم في القتال، وجرح ستة، ورافقه واحد فقط لحظة الهزيمة النهائية . . هو الكولونيل جيريلدو ماركيز . . وقد أذيع نبأ أسره في ماكوندو بيان خاص . . وعندها قالت أورسولا لزوجها :
- إنه على قيد الحياة . . ليتهل الى الله أن يجعل أعداءه يرأفون به . . .

وبعد ثلاثة أيام في بكاء متصل، سمعت وهي تصنع حلوى باللبن في المطبخ صوت ولدها يتردد واضحاً في سمعها . . فصرخت وهي تهرول الى زوجها تحت شجرة الكستناء لإبلاغه ما سمعت .

- هو صوت اوريليانو ! . . لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة، لكنه حي يرزق، وسنراه قريباً . .

لقد سلمت بما بدا لها أنها سمعته تسليماً . . وعكفت على كنس غرف البيت وتغيير وضع الأثاث . . وبعد أسبوع سرت شائعة من مصدر ما، دون أن يصاحبها أي بيان، كانت بمثابة تحقيق درامي لنبوءة أورسولا . . مؤداها ان الكولونيل اوريليانو بوينديا قد حكم عليه بالإعدام وأن الحكم سوف ينفذ في

ماكوندو ليكون درساً للناس . . . وصباح يوم اثنين، بينما كانت امارانتا تلبس أوريليانو جوزيه الصغير «ابن أوريليانو وبيلا تيرنيرا» ملابس، اذ سمعت اصوات مقدم جنود على البعد ودوي نغير عسكري، حين اندفعت اورسولا، الى الغرفة صائحة :

- انهم آتون به الآن . . ١ .

وكان الجنود يجاهدون للتغلب على الجمهور المتدفق بكعوب بنادقهم . . فأسرعت اورسولا وأمارانتا الى الناحية تشقان طريقهما بين الناس، وإذا هما تبصرانه . . لقد بدا كمتسول . . كان ممزق الثياب، أشعث شعر الرأس واللحية، حافي القدمين . . وكان يمشي دون أن يشعر بتراب الارض الملتهب، مقيد اليدين خلف ظهره يحبل شده ضابط من الفرسان الى رأس جواده . . وعلى نفس الصورة من الرثاثة والهزيمة جاء الكولونيل جيريلدو ماركيز . . ولم يد على الاثنين أي حزن . . وإنما كانا أكثر قلقاً من أجل الجمهور الذي كان يصرخ بكل ألوان السباب في وجوه الجنود . .

لم تمالك اورسولا ان صاحت في تخضم هذا الجمع الهادر :

- يا ولدي !! . .

وصفعت الجندي الذي حاول صدها . . وارتفع جواد الضابط على قائمته الخلفيتين . . وما لبث الكولونيل أوريليانو بونديا أن توقف مشفقاً، متفادياً ذراعي أمه، وسلط نظرة صارمة على عينيها، قائلاً :

- إرجعي الى البيت يا امي . . خلدي إذن من السلطات لزيارتي في السجن . . .

ونظر الى أمارانتا، وابتسم قائلاً :

- ماذا حدث ليدك ؟ . .

فرفعت أمارانتا يدها المعصوبة بالضمادة السوداء وأجابت :

- مجرد حرق ..

وعملت على إبعاد اورسولا لئلا تدوسها الخيل .. واستأنف الجنود.
سيرهم بعد أن أحيط الأسيران بحرس خاص، متجهين إلى السجن ..

وعند الغروب زارت أورسولا الكولونيل أوريليانو في السجن وهناك
لغافة بما أرادت أن تقدمه إليه .. وقد لقيت في الحصول على الإذن عاء
شديداً بسبب حظر زيارة المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام، ولكن
الضابط كان رقيقاً بها ومنحها ربيع ساعة للزيارة بعد أن فحص اللغافة وكان بها
ملابس نظيفة والحذاء الذي لبسه يوم زفافه والحلوى باللبن التي احتفظت بها
له يوم أن جاءها هاتف بقرب عودته .. وقد وجدته في الزنزانة ممدداً على
سرير صغير وقد دلى ذراعيه بسبب جروح تحت أبطيه .. وكانوا قد سمحوا له
بحلاقة ذقنه .. وبدت عظام خديه بارزة بجانب شاربه الكثيف المفتول
الطرفين .. ووجدته على علم بكل أحوال الأسرة : انتحار بتروكريسي،
وأفعال أركاديو العدوانية التي انتهت بإعدامه، وبقاء أبيه «جوزيه أركاديو
بوينديا» تحت شجرة الكستناء .. كما كان يعرف أن أمارانتا في ترميلها-
العذري قد كرست نفسها لتربية أوريليانو- جوزيه الصغير «ابن أوريليانو من
بيلار تيرنيرا» وأنه أبدى نجابة مكنته من تعلم القراءة والكتابة في نفس الوقت
الذي بدأ فيه يتعلم الكلام .. ومنذ اللحظة التي دخلت فيها أورسولا الزنزانة
طالعتها علائم النضج في ابنها، وهالة الأمر والسلطان التي كانت تشع منه ..
وقد أدھشها علمه بكل أحوال الأسرة، وفي هذا قال لها مداعباً مازحاً :

- كنت تعرفين دائماً أنني ساحر أُنْبأ بالأحداث ! ..

فتنهدت اورسولا قائلة :

- وماذا كنت تتوقع غير هذا .. ؟ الايام تمر ..

فقال اوريليانو مؤيداً :

- هذه هي سنة الحياة .

وعلى هذا النحو مضت الزيارة التي طال انتظارها في تحديث عادي غير الذي أعده كلاهما في ذهنه مسبقاً . وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة نهضت أورسولا لكي تقبله مودعة، وغمغمت قائلة :

- أحضرت لك مسدساً معي . .

ولما رأى الكولونيل أوريليانو بوينديا أن الحارس ساء عنهما قال لها بصوت خافت :

- لن يكون له أي فائدة . . لكن هاتيه لئلا يفتشوك وأنت خارجة .

فأخرجت أورسولا المسدس من مشدها ودسته تحت مرتبة السرير . . فقال لها بهدوء واعتداد :

- لا تقولي وداعاً . . لا تستعطفي احداً ولا تنحني أمام انسان . .
تصوري انهم اعدموني منذ مدة . .

فعضت أورسولا شفرتها حتى لا تبكي . . وقالت قبل أن تستدير خارجة :

- ضع بعض أحجار ساخنة على تلك الجراح . .

ووقف الكولونيل أوريليانو بوينديا ينتظر ساهماً حتى أغلق الباب، فاستلقى ثانية على السرير مدلى الذراعين . . وكان منذ صباح، عندما بدأ يلبس تلك النذر السابقة التي تتجلى له كنوع من الإلهام ينبثه بما سيقع، يتصور أن الموت عندما يحين حينه يقترن بإشارة مدهامة نقض لها، لكن لم تبق الآن سوى ساعات على موته ولم تطالعه تلك الإشارة بعد . . نعم إنهم

عندما أصدروا الحكم بإعدامه سألوهم أن يقول رغبته الأخيرة، ولحظتها لم يجد أدنى صعوبة في انتهاز ما هبط عليه من إلهام جعله يقول :
 - أطلب أن يكون تنفيذ الحكم في بلدتي ماكوندو...
 ولقد استاء رئيس المحكمة العسكرية من هذا الرد وقال له :
 - دعك من هذا المكر يا بوينديا... هذه مجرد خدعة لكسب وقت
 أكثر...

فرد عليه الكولونيل قائلا :
 - ان كنت لا تريد تحقيق هذا، فهو شأنك... لكن هذه هي رغبتي
 الأخيرة..

ومنذ تلك الأونة هجره الإلهام وتراعى له أن الموت ربما لا تسببه إشارة
 هذه المرة لأنه لا يعتمد على الحظ أو المصادفة، بل هو منوط بمشيئة
 جلاديه...

وأمضى يومين على هذه الحال... وفي يوم الخميس تشاطر الحلوى
 باللبن مع حراسه، وارتدى الملابس النظيفة والحذاء اللامع... وحتى يوم
 الجمعة لم ينفذوا فيه الحكم بعد...

أما الواقع فهو أنهم لم يجسروا على تنفيذ الحكم... فإن روح التمرد
 الفاشية في البلدة جعلت المسؤولين يرون أن اعدام الكولونيل أوريليانو
 بوينديا قد يجر نتائج سياسية خطيرة لا في ماكوندو فقط بل في كافة أرجاء
 إقليم المستنقعات... وهكذا لجأوا الى استشارة السلطات العليا في عاصمة
 المقاطعة... وفي يوم السبت ليلا قصد الكابتن روك كارنيرو المنزط بتنفيذ
 احكام الإعدام والملقب «بالجزار» قصد مع بعض زملائه الى حانة
 كاتارينو... فلم تقبل سوى امرأة واحدة، وتحت التهديد، مصاحبتها الى

غرفتها. . . وفي هذا اعترفت له قائلة :

- إن زميلاتي لا يرغبن في مصاحبة رجل يعرفن أنه سيموت. . . ولا أحد يعرف كيف سيحدث هذا. لكن الجميع يقولون إن الضابط الذي سيطلق الرصاص على الكولونيل أوريليانو بوينديا سوف يقتل هو وكل أفراد فريق الرماة، دون مهرب، وعاجلا أو آجلا، حتى ولو اختفوا في أطراف الدنيا. . .

لقد نقل الكابتن روك كارنيرو هذا الكلام الى زملائه، فنقلوه بدورهم الى الرؤساء. . . فلما حل يوم الجمعة كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط كانوا على استعداد للتوسل بكافة المعاذير لتفادي مسؤولية تنفيذ الإعدام. . . ثم جاء الامر الرسمي يوم الاثنين يقول : لا بد من تنفيذ الاعدام في خلال اربع وعشرين ساعة. . . وفي تلك الليلة وضع الضباط سبع قصاصات ورق في «كاب»، وبان مصير الكابتن روك كارنيرو الانكد في القصاصات التي سحبت وبها إسمه، وإذا هو يقول بموارة :

- ان الحظ المنحوس لا تنفذ منه ثغرة أمل. . . لقد ولدت «ابن حرام»، وسأمت «ابن حرام». . .

وعند الساعة الخامسة صباحا اختار فريق الرماة بالقرعة، وشكل الصف في الفناء، ثم ايقظ المحكوم عليه قائلا بلهجة الأمر :
- هيا بنا يا بوينديا. . . لقد جاءت «ساعتنا». . .

فرد الكولونيل قائلا :

- هذا اذن تفسير الحلم. . . فقد رأيت في منامي أن جروحي تفجرت. . .

وفي نفس هذا الموعد كان أخوه جوزيه اركاديو قد استيقظ من نومه وشرب قهوته، ولم تلبث ربيكا التي كانت تراقب من نافذة غرفة النوم

الاستعدادات الاخيرة لتنفيذ حكم الإعدام ان تنهدت قائلة :

- إنهم آتون به للتنفيذ . . . كم هو جميل ! . .

فنظر جوزيه اركاديو من النافذة ورأى أخاه وقد وقف بظهره الى الحائط ويداه في خاصرتيه بسبب جروح ابطيه . . وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا يقول وقتها :

- يظل الانسان يكذب ويجهد في حياته، ثم يأتي في النهاية ستة رجال ضعاف فيقتلونونه دون أن يستطيع شيئا . .

وجعل يردد هذا الكلام في غضب واحتدام شديدين حتى تأثر الكاتبن روك كارنيرو اذ ظنه يصلي ويتهل . . وعندما سدد الرماة بنادقهم استحال الغضب الى مرارة عقدت لسانه وأطبقت عينيه . . واذا ذلك تلاشى في وعيه وضح الفجر ورأى نفسه مرة اخرى في بنطلونه القصير والده يقوده الى داخل خيمة الفجر عصر ذلك اليوم الصحو ليريه الثلج . . . وعندما سمع الصيحة الآمرة ظن أنها الأمر النهائي لفريق الرماة . . ففتح عينيه وقد سرت فيه رعدة فضول، متوقعا ان يرى وهج الرصاص المنطلق . . بيد أنه لم يبصر سوى الكاتبن روك كارنيرو وقد رفع ذراعيه في الهواء، وجوزيه اركاديو يجتاز الشارع ويندقيته المرهوبة على أهبة الانطلاق . . وقال الضابط لجوزيه اركاديو :

- لا تطلق النار ! . . إن العناية الالهية هي التي أرسلتك ! . .

وعلى الأثر نشبت حرب اخرى . . فقد ارتحل الكاتبن روك كارنيرو ورجاله الستة مع الكولونيل أوريليانو بوينديا لإطلاق سراح الجنرال فكتوريو مدينا الذي حكم عليه بالإعدام في بلدة ريوهاشا . . ولكن وعورة الطريق حالت دون وصولهم قبل فوات الاوان، اذ تم إعدام الجنرال فكتوريو مدينا فعلا . . . وعندها أعلن رجال الكولونيل أوريليانو بوينديا الذين تضاعفت

أعدادهم بمن انضم اليهم من الليبراليين في المناطق التي مروا بها ، أعلنوا الكولونيل أوريليانو بوينديا قائداً للقوات المتمردة في إقليم الساحل الكاريبي مع منحه مرتبة الجنرال . . فقبل منهم المنصب ولم يقبل اللقب، طالما بقي المحافظون في الحكم . . وفي نهاية أشهر ثلاثة نجحوا في تسليح أكثر من ألف رجل، ولكنهم أبيدوا عن آخرهم . . وأذاعت الحكومة بياناً تناقلته جميع مكاتب البريد بأن الكولونيل أوريليانو بوينديا لقي مصرعه . . ثم أذيعت بعد يومين برقية أخرى تنبئ بقيام تمرد جديد في أقاليم الجنوب . . . وفي ظل هذا التضارب نشأت وتضخمت أسطورة وجود الكولونيل أوريليانو بوينديا في كل مكان . . . ووقتها كان زعماء الليبراليين يفاوضون الحكومة للمشاركة في الكونجرس، فما كان منهم الا أن وصموه بالمغامر الذي لا يمثل الحزب . . ووضعت الحكومة في قائمة قطاع الطرق، وجعلت ثمناً لرأسه خمسة آلاف بيزو . . ويعد سلسلة من الهزائم بلغ عددها ست عشرة، استولى الكولونيل أوريليانو بوينديا على ريواهاشا وجعل فيها مقر قيادته، معلناً الحرب ضد نظام الحكم القائم . . . وكانت أول رسالة تلقاها من الحكومة هي التهديد بإعدام صديقه الحميم الكولونيل جيريلدو ماركيز في غضون ثمان وأربعين ساعة إذا لم ينسحب مع قواته الى الحدود الشرقية . . فكان رده قاطعاً . . قال إنه يتوقع جعل مقر قيادته في ماكوندو في مدى ثلاثة أشهر، فإذا لم يجد الكولونيل جيريلدو ماركيز على قيد الحياة، فسوف يعدم على الفور جميع الصباط الأسرى لديه، بدءاً بالجنرالات، وسيأمر رجاله أن يفعلوا المثل الى نهاية الحرب . . وبعد ثلاثة اشهر، عندما دخل ماكوندو مظفراً، كان أول عناق تلقاه في طريق المستنقعات خارج ماكوندو هو من ذراعي الكولونيل جيريلدو ماركيز . .

وبوصوله بيت الأسرة وجده مليئاً بالأطفال . . فقد آوت اورسولا عندها «سانتا صوفيا بيدال» ارملة اركاديو مع طفلتها الكبرى وأخوين توأمين ولدا

بعد خمسة اشهر من إعدام أبيهما اركاديو. . . وخلافاً لرغبته الاخيرة سمت الطفلة باسم ريميديوس الجميلة، وفي هذا قالت : «أنا متأكدة أن هذا هو ما كان يقصده اركاديو، ولن نسميها أرسولا لأن الانسان يعاني كثيرا من التسمية» . . . وسمي التوأمان «جوزيه اركاديو الثاني» و «أوريليانو الثاني» . . . وقد تولت أمارانتا تربيتهم جميعاً، ووضعت لهم كراسي خشبية صغيرة في غرفة المعيشة وأقامت شبه دار حضانة ضمت اليها أطفال الأسر المجاورة. . . وعندما عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا وسط إطلاق الصواريخ المدوية والأجراس الرنانة، رحب بمقدمه «كورس» من الاطفال. . . وحياء ابنه «أوريليانو جوزيه»، وكان فارعاً مثل جده، تحية عسكرية. . .

ولم تكن الانباء كلها سارة. . . فبعد سنة من فرار الكولونيل أوريليانو بوينديا، انتقل أخوه جوزيه اركاديو مع ريبكا للإقامة في البيت الذي ابتناه اركاديو. . . ولم يعرف احد بدور هذا الاخ في الحيلولة دون إعدام أوريليانو. . . وفي هذا المقر الجديد الذي غدا أشبه بدار للضيافة استأنفت ريبكا جلساتها مع صواحبها السابقات للاشتغال بالتطريز، وكان بينهن أربع من بنات دون أبولينار موسكوت اللاتي ما زلن رهن العزوبة. . . واستمر جوزيه اركاديو في الانتفاع بالأراضي التي اغتصبها والتي اعترفت حكومة المحافظين بمستندات ملكية لها. . . وكان يرى عصر كل يوم راجعاً على ظهر جواده مع كلاب الصيد والبنديقة المزدوجة وقد تدلى من سرج الجواد حصيلته من الأرانب التي صادها. . . وذات يوم من سبتمبر لاحت فيه نذر عاصفة قريبة عاد الى البيت أبكر من المعتاد. . . فحيا ريبكا في غرفة الطعام وربط الكلاب في الفناء، وعلق الأرانب في المطبخ نوطشة لتخليصها في ما بعد، ثم دلف الى غرفة النوم لتغيير ملابسه. . . وقد روت ريبكا في ما بعد أنه عندما دخل زوجها الى غرفة النوم كانت هي في الحمام ولم تسمع أي شيء. . . وكانت روايتها يصعب تصديقها. ولكن لم يكن ثمة رواية أخرى اقرب الى المعقول، ولم

يخطر ببال أحد أن يكون لديها أي دافع لقتل الرجل الذي جعلها سعيدة في حياتها. . . ولعل ذلك كان اللغز الوحيد الغامض الذي لم يكشف النقاب عنه قط، في ماكوندو. . . ذلك انه حالما أغلق جوزيه اركاديو باب غرفة النوم عليه، تردد في أرجاء البيت صوت عيار ناري من طبنجة. . . وسال خيط من الدم اخترق كثيرا من الغرف والردهات حتى انتهى الى المطبخ في بيت الاسرة الكبير، حيث كانت أورسولا تستعد لصنع كعك بالبيض. . . فلم تمالك أن صرخت :

- رحماك يا ربي ! . . .

وهرعت تتبع خيط الدم حتى انتهى بها الى بيت جوزيه اركاديو الذي لم تدخله من قبل، ثم الى غرفة النوم التي دفعت بابها وكادت تخنق برائحة بارود محترق، وعثرت على ابنها البكر منبطحاً على الأرض على وجهه فوق «التزلج» الذي كان قد خلعه، وعنده كانت بداية خيط الدم المترامي الذي كان قد توقف مسيله من الأذن. . . هذا، ولم يعثروا على أي جرح في جسده، ولا على أي سلاح بقربه. . . كما لم يستطيعوا إزالة أثر رائحة البارود من الجثة رغم المحاولات التي بذلت بالماء والصابون والخل وما إليها. . . وعندما بدا لهم ان يضعوا الجثة في ماء مغلي لإزالة رائحة البارود، بدأت تتحلل، ولم يكن بد من دفنها على وجه السرعة. . . فجاءوا له بتابوت طوله سبع أقدام ونصف، وعرضه أربع ، ودعموه من الداخل بأطواق من الفولاذ، وعلى الرغم من هذا فإن الرائحة كانت بادية في الشارع الذي سار فيه موكب الجنائز. . . ومع أنهم في الشهور التالية دعموا القبر بحوائط من حوله تخللها ر. . . مضغوط ونشارة الخشب والجير، الا أن المقبرة ظلت لسنوات عديدة تفوح منها رائحة البارود، الى أن جاء مهندسو شركة إنتاج الموز التي أنشئت بعد ذلك وكسوا القبر بطبقة من الاسمنت المسلح. . .

وأما ريكا فقد أغلقت أبواب بيتها و«دفنت» نفسها فيه حية، مسربة

! حجاب كثيف من الإغراض عن الدنيا واحتقارها لا تستطيع أبة مغريات أرضية ان تنفذ منه أو تقوضه . . . وآخر مرة رآها الناس على قيد الحياة كانت عندما اطلقت النار على لص حاول اقتحام باب البيت . . وفي ما عدا خادمتها المقربة لم يعد لأي انسان أدنى اتصال بها بعد ذلك حتى كهولتها ومعاتها . . ونسيت البلدة كلها أمرها . .

وعلى الرغم من عودة الكولونيل اوريليانو بوينديا المظفرة، فإنه لم يكن متحمساً لمجريات الامور . . لقد انحلت القوات الحكومية مواقعها دون مقاومة مما أثار إحساساً وهمياً بالانتصار بين السكان الليبراليين لم يكن يجمل تبديده . . لكن المتمردين منهم كانوا يعرفون الحقيقة، وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا اكثرهم معرفة بها . . ومع أنه كان لديه في ذلك الحين خمسة آلاف رجل تحت إمرته وأصبح مسيطراً على ولايتين ساحليتين، إلا أنه كان يشعر بأنه يساق في اتجاه البحر حيث يغدو في موقف عسير . . وبحثاً عن منفذ للإفلات من هذا الموقف، كان يمضي ساعات بأكملها في مكتب التلغراف للتشاور مع قادة البلدان الأخرى، وفي كل مرة كان يخرج بانطباع قوي هو أن حربهم خاسرة لا محالة . . وكان يشكو لضباطه قائلاً :

-إننا نضيع الوقت، بينما الاندال من اعضاء الحزب الليبرالي يستجدون مقاعد لهم في الكونجرس ! . .

وفي احدى ليالي البلبلة التي كانت تعتريه وهو مستلق في أرجوحته يفكر في منفذ للخلاص من هذا المأزق، طلب من بيلار تيرنيرا التي كانت تغني مع الجنود في الفناء ان تقرأ له المستقبل في الورق الطالع . . فكان كل ما قالته بعد تقليب الورق ثلاث مرات هو :

- خل بالك من فمك ! . . أنا لا اعرف ما معنى هذا، لكن الإشارة واضحة جداً . . خل بالك من فمك ! . .

وبعد يومين أعطى احدهم إبريق قهوة لجندي مراسلة، أعطاه هذا بدوره لآخر، وظل يتقل من يد الى يد حتى وصل الإبريق الى مكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا. . . ولم يكن قد طلب قهوة، ولكن ما دامت قد جاءت فقد شربها الكولونيل. . . كان بها جرعة من سم زعاف تكفي لقتل جراد. . . وعندما حملوه الى البيت كان متصلباً ومقوساً وقد برز لسانه بين أسنانه. . .

لقد راحت أورسولا تصارع الموت لإنقاذه. . . وبعد تفريغ معدته بالمقيئات لفته بأغطية ساخنة وأطعمته بياض البيض يومين كاملين الى أن استعاد جسمه المضغوط حرارته العادية. . . وفي اليوم الرابع خرج من مرحلة الخطر. . . واضطر تحت ضغط أورسولا وضباطه الى ملازمة الفراش اسبوعاً آخر. . . وفي فترات الصفاء الذهني التي كان يفكر فيها في الحال والمآل، قال ذات ليلة لصديقه القديم الكولونيل جيريلدو ماركيز :

- قل لي يا صديقي الحميم. . . لماذا تحارب ؟ . .

فأجاب الكولونيل جيريلدو ماركيز :

- ولاي سبب آخر غير الرغبة في انتصار الحزب الليبرالي ؟ . .

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

- أنت محظوظ، لأنك تعرف سبب ما تحارب من أجله. . . أما في ما يختص بي شخصياً، فقد تأكدت الان فقط انني احارب من اجل كبريائي وكرامتي. . .

- هذا شيء سيء. . .

فبدا الكولونيل أوريليانو بوينديا متفكها من انزعاج صاحبه، وقال :

- لك حق. . . لكن على أي حال، فهذا افضل من الا تعرف لماذا تحارب ؟ . .

ثم تفرس في عينيه وأضاف بابتسامة :

- أو أفضل من المحاربة، كما تفعل انت، من أجل شيء ليس له أي معنى عند أي أحد ! . .

والواقع ان كبرياءه هي التي منعت من الاتصال مع الجماعات المسلحة في داخلية البلاد الى أن يصحح زعماء الحزب الليبرالي علانية تصريحهم بأنه من قطاع الطرق . . ومهما يكن فقد كان يعرف انه ما إن يطرح جانباً هواجسه تلك، فسيكون بوسع أن يضرب ضربه المؤثرة في تطورات الحرب . . وبعد طول تفكير وتدبر أثناء فترة النقاهة، استطاع حمل اورسولا على أن تعطيه ما بقي من ميراثها الذهبي المخبوء وكذلك مدخراتها الكبيرة . . وأخيراً عين الكولونيل جيريلدو ماركيز قائداً عسكرياً ومدنياً في ماكوندو، وانطلق بقواته للاتصال بجماعات المتمردين في داخلية البلاد . .

وفي خلال ذلك كان الكولونيل اوريليانو بوينديا يقطع من وقته جزءاً لإرسال تقارير مفصلة الى ماكوندو عن تطورات الحرب كل أسبوعين . . بيد أنه لم يكتب سوى مرة واحدة، وبعد ثمانية أشهر من رحيله مع قواته، جاء رسول خاص الى بيت الأسرة يحمل مظروفاً مغلقاً بالشمع ويدخله ورقة بخط الكولونيل قال فيها : «اعتنوا جداً بأبي، لأنه سيموت» . . فانزعجت اورسولا قائلة : «إذا كان اوريليانو يقول هذا فذلك لأن اوريليانو يتنبأ ويعرف ! . . » وطلبت من أهل البيت مساعدتها في نقل «جوزيه اركاديو بوينديا» الى غرفة نومه في الداخل . . وكان قد زاد امتلاء تحت شجرة الكستناء طوال تلك الأعوام حتى عجز سبعة رجال عن رفعه من مكانه واضطروا الى جره جراً . . وفي اليوم التالي لم يكن في فراشه. وإذا كان قد عاد الى شجرة الكستناء فذلك بحكم عادة الجسد . . ولكنهم اعادوه مرة اخرى الى غرفته . . وكانت اورسولا تطعمه وتبلغه اخبار اوريليانو . . وبعد انقضاء اسبوعين دخلوا عليه وهزوه بشدة وصرخوا في أذنه ووضعوا مرآة أمام

خياشيمه، بيد أنهم لم يستطيعوا ابقاظه . . وبينما كان النجار يأخذ مقاسات
 التابوت، رأوا من خلال النافذة مطراً خفيفاً من زهور صفراء صغيرة تساقط . .
 وظلت تسقط على البلدة طوال الليل في عاصفة ساكنة حتى غطت الاسقف
 وسدت الابواب وخنقت انفاس الحيوانات التي كانت تبيت في الخارج . .
 بلغ من كثرة الزهور التي تساقطت انها غطت الشوارع ببساط سميك حتى
 اضطروا الى جرفها لكي يمكن أن يسير موكب الجنازة . .

الفصل الثامن

جعلت امارتنا تراقب من مقعدها الهزاز اثناء فترة الراحة من التطريز، أوريليانو- جوزيه وهو يكسو ذقنه برغوة الصابون توطئة لحلاقتها لأول مرة . . فما كان منه إلا أن ادنى شفته العليا وهو يحاول تنميق الشارب الصغير الاشقر، ولم تتمالك امارتنا ان شعرت بأنها بدأت تشيخ منذ تلك الاونة . . وقالت له :

- إنك تشبه أباك أوريليانو عندما كان في سنك . . انت الآن رجل . . .

والواقع انه كان يافعاً منذ اليوم الذي عهدت به أمه بيلار تيرنيرا الى أمارتنا لتربيته . . كان اول الامر يزحف الى فراش امارتنا لينام الى جانبها خوفاً من وحدة الطفولة . . ثم تطور هذا الى مشاعر غريبة بدأت تلاسه في مدارج العمر الى ان تحولت الى افتتان، مما جعلها تصده بعد ان فاجأتهما أورسولا ذات يوم في «الكوار» وهما يتبادلان القبلات، ولكنها قالت له ببراءة : «هل تحب عمك الى هذا الحد ؟» . . وعندما رد بالايجاب قالت له : «هذا شيء طيب» . . وتركتهما بعد أن اخذت الدقيق الذي جاءت في طلبه . . منذ تلك الاونة أفاق كلاهما من غمرة الحمى التي انتابته، وانتقل أوريليانو- جوزيه للإقامة في الشكنات اذ كان في فترة التدريب العسكري . . .

وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتوارد أنباء متناقضة عن سير الحرب . . ففي حين اعترفت الحكومة ذاتها بتقدم حركة التمرد تلقى الضباط الموجودون في ماكوندو أنباء خاصة عن مفاوضات للصلح وقرب عقد هدنة . . وحوالي اول ابريل جاء رسول خاص الى الكولونيل جيريلدو ماركيز وأكد له ان زعماء

الحزب الليبرالي قد اتصلوا فعلا بقيادة التمرد في داخلية البلاد وأنهم بسبيل عقد هدنة في مقابل الحصول على ثلاثة مقاعد وزارية لليبراليين مع تمثيل محدود في الكونغرس، وغفوا عام عن المتمردين الذين يضعون اسلحتهم . . وقد نقل الرسول امرا سريا من الكولونيل اوريليانو بونديا الذي لم يقبل شروط الهدنة مؤداه ان يختار الكولونيل جيريلدو ماركيز خمسة من أفضل رجاله ويستعد لمغادرة البلاد معهم . . وقبل اعلان الاتفاق بأسبوع، وفي إبان عاصفة من الشائعات المتناقضة، وصل الكولونيل اوريليانو بونديا الى ماكوندو سراً بعد منتصف الليل مع عشرة من ضباطه الموثوق بهم وفي عدادهم الكولونيل روك كارنيرو وصرفوا الحامية ودفنوا اسلحتهم ودمروا سجلاتهم . . وما ان اقبل الفجر حتى ارتحلوا عن البلدة، يرافقهم الكولونيل جيريلدو ماركيز وضباطه الخمسة المختارون . . ولقد بلغ من تكتم هذه العملية أن أورسولا لم تعلم بها إلا في اليوم التالي . . كما اكتشفت أن أوريليانو - جوزيه قد اوتحل مع أبيه . .

وبعد عشرة ايام صدر بلاغ مشترك من الحكومة والمعارضة يعلن انتهاء الحرب، مقترنا بنبا حركة التمرد الاولى من جانب الكولونيل أوريليانو بونديا عند الحدود الغربية . . ولم تحتل قوته الصغيرة المحدودة التسليح اكثر من اسبوع لتفريقها . . ولكن في خلال تلك السنة، بينما كان الليبراليون والمحافظون يحاولون اقناع البلاد بالمصالحة الوطنية، قام الكولونيل أوريليانو بونديا بسبع محاولات أخرى للتمرد . . وفي احدى المناسبات اقترب من ماكوندو الى أقل من خمسة عشر ميلا، ثم اضطر الى الاختفاء في الجبال تحت ضغط الدوريات الحكومية . .

وانقطعت اخباره عن أورسولا مدى سنوات، تردد فيها أنه كف عن مناوأة حكومة بلاده، وانضم الى حركة الفيدراليين في الجمهوريات الأخرى بهدف توحيد الحركات الفيدرالية في امريكا الوسطى سعيًا للقضاء على

أنظمة حكم المحافظين من الاسكا في الشمال الى بتاجونيا في الجنوب . .
وكانت اول رسالة تلقتها اورسولا منه بعد سنوات عديدة من ارتحاله مثنية
وباهتة لتبادلها بين أيد متعددة، حتى لم تتمالك بعد أن علمت بمضمونها ان
هتفت :

- لقد فقدناه الى الابد . . اذا واصل هذا الطريق فسوف يبقى مشرداً
في أرجاء الدنيا الواسعة . .

كان الذي قالت له هذا الكلام، وهو أول شخص أطلعت عليه على
الرسالة، هو الجنرال راكيل موكادا عمدة ماكوندو المحافظ الذي عين في هذا
المنصب منذ نهاية الحرب . . وقد رد عليها بقوله :

- من المؤسف ان اوريليانو هذا ليس من حزب المحافظين . .

والواقع ان هذا الرجل كان معجباً بأوريليانو رغم اختلاف
انتماءاتهما . . وكان شخصية دمثة استطاعت ان تكتسب قلوب أهل البلدة
بعد أن طرح حزبيته جانباً وقام فيها بإصلاحات واسعة أدت الى ازدهارها . .
وقد حدث ذات مرة عندما اضطرت له المناورات الحربية الى التخلي عن أحد
المواقع الحصينة للكولونيل أوريليانو بونديا أن ترك له رسالتين : تضمنت
الاولى دعوة له الى مشاركته في القيام بحملة واسعة لجعل الحرب اكثر
انسانية، وكانت الرسالة الثانية موجهة الى زوجته التي كانت باقية في منطقة
تحت سيطرة الليبراليين، وشفعها برجاء منه لتوصيل الرسالة اليها . . ومنذ
ذلك الحين درج القائدان العدوان، حتى في اشد مراحل الحرب ضراوة،
على ترتيب هدنات لتبادل الاسرى . . وقد ادى ذلك الى توثيق عرى الصداقة
بين الاثنين . . بل انهما فكرا في التنسيق بين المعطيات الأساسية للحزبين
بهدف تجاوز تأثيرات السياسيين المحترفين والعسكريين واستخلاص نظام
حكم إنساني يجمع أفضل ما في مبادئ كل من الفريقين . . .

وفي خلال ذلك كانت اورسولا رغم ضربات الزمن ترفض بعناد وإصرار الاستسلام للشيوخوخة. . ومضت في توسيع صناعة الحلوى التي بدأتها منذ حين، واستطاعت بمساعدة سانتا صوفيا بيدال أرملة اركاديو، أن تجعل منها صناعة مزدهرة ضاعفت من مدخراتها. . وكان ذلك هو الموقف عندما هجر أوريليانو- جوزيه «ابن أوريليانو وتيرنيرا» صفوف القوات الفيدرالية في نيكاراجوا وظهر أمام أورسولا في المطبخ قوياً كحصان، اسمر مرسل الشعر كالهنود، مصمماً بعزم على الزواج من أمارانتا. .

وحالما رآته أمارانتا عرفت في الحال سبب قدومه، بيد أنها تحاشت الاجتماع به على انفراد. . غير أنه بعد شهرين من اعتكافها عنه، تسلل ليلاً الى مخدعها، فصدمته عنها قائلة :

- اخرج. . اخرج والا صرخت. . أنا عميتك !. . . إنني كامك، لا بسبب السن، ولكن لأنني ربيتك !. . .

وفي مناسبة أخرى قالت له بعد أن أرهقها بإلحاحه :

- انت وحش !. . لا يمكنك ان تتزوجني الا بتصريح خاص من روما. .

ولما وعد أوريليانو- جوزيه ان يذهب الى روما ولو سعياً على ركبتيه خلال أوروبا كلها لتقديم التماسه تحقيقاً لأمنيته المضطربة، ردت عليه أمارانتا بقولها :

- ليس هذا فقط. . ان زواجاً كهذا سوف يثمر أطفالاً لهم ذيول خنازير. .

بيد أنه صم أذنيه عن كافة الحجج، قائلاً :

- لا يهمني حتى لو ولدوا خنازير كاملة !. .

ولكن رفض أمارانتا كان قاطعاً .

وبعد شهرين من عودة أوريليانو - جوزيه، جاءت الى البيت الكبير امرأة وافرة النمو والقوة معطرة بالياسمين ومعها طفل في الخامسة من عمره وقالت إنه ابن الكولونيل أوريليانو بونديا وأنها جاءت به الى أورسولا لتتولى تربيته . ولم يشك احد لحظة في منبته، اذ كان صورة مطابقة للكولونيل وهو في طفولته . وقد عمدوه باسم أوريليانو، مشفوعاً بلقب امه، نظراً لان القانون لا يسمح بحمل اسم الاب الا بعد اعترافه بأبوته للإبن . .

كانت أورسولا في ذلك العهد لم تسمع بالعادة السارية وهي إرسال العذارى الى مخادع مشاهير القادة لإنجاب ذرية ممتازة . ولكنها لم تلبث في خلال هذا العام أن سمعت وعرفت . . وفي أقل من اثنتي عشرة سنة تولت التعميد، باسم أوريليانو ولقب الام، لكافة الابناء الذين انجبهم الكولونيل أوريليانو بونديا في مختلف ميادين الحروب التي خاضها، وعددهم سبعة عشر . . وأول الامر كانت أورسولا تملأ جيوب هؤلاء الصغار بالنقود وتحاول أمارانتا استبقاءهم لتربيتهم . . ولكنهم كانوا ينصرفون تباعاً مع مهاتهم، اكتفاء بالتعميد وما نالوا من نقود . . وكانت أورسولا تدون اسماء الابناء وعناوين الامهات في سجل خاص اعدته لهذا الغرض، قائلة :

- ان أوريليانو في حاجة الى وثائق منظمة حتى يمكنه أن يبت في الامور عندما يعود اليها . .

وفي هذا قالت يوماً للعمدة موكادا اثناء دعوة للغداء وهي تعقب على هذا الخصب الفريد انها تتمنى ان يعود الكولونيل أوريليانو بونديا يوماً ما لكي يجمع كل هؤلاء الأبناء في البيت الكبير . . فرد عليها العمدة قائلاً بأسلوب غامض :

- لا تقلقي يا صديقتي العزيزة . . إنه سيعود بأسرع مما تتصورين . .

ان ما كان الجنرال موكادا يعرفه ولم يكن يرغب في اماطة اللثام عنه على مائدة الغداء، هو أن الكولونيل اوريليانو بونديا كان فعلا في طريقه للقيام بأطول وأعنف حركة في سلسلة حركات التمرد التي قام بها حتى الان . .

لقد عاد الموقف الى التأزم مثلما كان اثناء الشهور التي سبقت الحرب الاولى . . وتولى الكابتن اكويل ريكاردو قائد الحامية في ماكوندو تدريب قوات الاحتياط . . وكان الليبراليون يعدونه رجلا استفزازيا، حتى قالت اورسولا تحذر أوريليانو- جوزيه منه :

- سوف تقع هنا احداث رهيبة . . نصيحتي لك ألا تخرج الى الشارع بعد الساعة السادسة . .

بيد أن نصائحها ذهبت ادراج الرياح، اذ كان أوريليانو- جوزيه، مثل اركاديو من قبل، قد شق عصا الطاعة عليها، ودفعه يأسه من حب أمارانتا الى التمرد على كل شيء ويعكس اركاديو الذي لم يعرف قط أبويه، اكتشاف هو أنه ابن بيلار تيرنيرا، تلك التي اعدت له ارجوحة في بيتها لكي يقضي ساعة القيلولة كل يوم . . وكما فعلت أورسولا من قبل قالت له بيلار ناصحة :

- لا تخرج هذه الليلة . . ابق معي واقض ليلتك هنا . . ان صديقتك كارميليتا مونتيلا تعبت من كثرة ما سألتني ان ادعها تقابلك عندي . .

فلم يعد أن قال لها :

- قللي لها أن تنتظري عند منتصف الليل . . .

وذهب الى المسرح لمشاهدة مسرحية «خنجر الثعلب» ولم يعرف الا بعد أن قدم تذكرة الدخول ان الكابتن اكويل ريكاردو كان يقوم مع اثنين من الجنود المسلحين بتفتيش رواد المسرح، فقال له أوريليانو- جوزيه محذرا :

- احلر يا كابتن.. لم يولد بعد الرجل الذي يمكنه ان يضع يده علي..

فحاول الكابتن تفتيشه بالقوة، واذ لم يكن أوريليانو- جوزيه مسلحا فقد لجأ الى الفرار.. وقد عصى الجنديان الامر بإطلاق النار عليه، حتى قال احدهما :

- إنه من أسرة بوينديا..

فما كان من الضابط الذي اعماه الغضب الا أن انتزع منه البندقية وخرج الى وسط الشارع وسدد البندقية صائحا :

- يا جنءا..! ليه كان الكولونيل أوريليانو بوينديا..!

كانت كارميليتا مونتييل بنت العشرين قد أتمت زيتها وقطرها في بيت بيلار تيرنيرا عندما دوى صوت العيار الناري.. لقد ثنأت بيلار تيرنيرا ذات مرة بعد قراءة الطالع أن أوريليانو- جوزيه سوف يجد عند كارميليتا السعادة التي ضنت بها عليه أمارانتا، وأنه سوف يرزق منها بسبعة أبناء، وأنه سوف يموت بين ذراعيها ميتة الشيخوخة.. لكن الرصاصة التي دخلت ظهره وحطمت صدره قد ضلت طريقها بتأويل خاطيء لأوراق الطالع.. وأما الكابتن اكويل ريكاردو الذي كان مقدراً له أن يموت حقا في تلك الليلة، فقد مات فعلا، قبل أن يلفظ أوريليانو- جوزيه انفاسه الاخيرة.. فحالما دوى العيار الناري الذي صرع الشاب، خر الضابط صريعا برصاصتين في لحظة واحدة لم يعرف أبداً مصدرهما، ودوت في سكون الليل صيحة من أفواه عديدة :

- يحيا الحزب الليبرالي..! يحيا الكولونيل أوريليانو بوينديا..!

وعند منتصف الليل، بعد أن فاضت روح أوريليانو- جوزيه، تقاطر أكثر

من اربعمائة شخص أمام المسرح وأفرغوا مسدساتهم في جسد الكابتن
اكويل ريكاردو الطريح في الشارع . واضطرت إحدى الدوريات الى نقل
جثمانه فوق عربة يد لشدة ثقلها بما استقر فيها من رصاص . .

وبحلول شهر سبتمبر كانت الانباء متضاربة . فبينما أعلنت حكومة
المحافظين أنها وطدت سلطاتها في كافة أرجاء البلاد، كانت الانباء السرية
تتوارد على الليبراليين عن قيام حركات تمرد مسلحة في الداخل . . ولم
تعترف الحكومة بقيام حالة الحرب الا بعد صدور مرسوم بهذا اعقبه اجراء
محاكمة عسكرية صدر فيها الحكم بإعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا غيبيا .
وصدر الأمر بأن أول وحدة عسكرية تتمكن من أسره عليها تنفيذ الحكم
فوراً . . وفي هذا قالت أورسولا للجنرال موكادا بلهجة الفرح :

- يعني هذا أنه عاد ! . .

والواقع ان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد عاد الى البلاد منذ أكثر من
شهر . . ولم يسلم الجنرال موكادا بعودته الى بعد أن أعلن رسمياً انه استولى
على ولايتين على الساحل . . وفي هذا قال لأورسولا وهو يريها البرقية التي
تلقها :

- تهاني يا صديقتي العزيزة . . قريباً سيكون عندك ! . .

ولأول مرة شعرت أورسولا بالقلق، وقالت :

- وما الذي ستفعله ؟ . .

إن الجنرال موكادا سأل نفسه هذا السؤال عديد المرات، وما لبث ان
رد عليها قائلاً :

- نفس ما سوف يفعله هو . . يا صديقتي . . سأقوم بواجبي . .

وفي فجر اليوم الاول من شهر اكتوبر هاجم الكولونيل أوريليانو بوينديا

ماكوندو بألف رجل مسلحين تسليحا قويا، وتلقت الحماية أوامر بأن تقاوم حتى النهاية . . وعند الظهر، بينما كان الجنرال موكادا يتناول طعام الغداء مع أورسولا، انطلق مدفع للمتمردين دوى صدهاء في البلدة كلها ونسف الواجهة الامامية لدار الخزانة نفسا . . فتنهد الجنرال موكادا قائلا :

- إنهم مسلحون تسليحا جيدا مثلنا . . لكن الى جانب هذا فإنهم يحاربون لأنهم يريدون الحرب . .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر والأرض ترتج ارتجاجاً بنيران المدفعية من الجانبين ، استأذن من أورسولا وهو على يقين من أنه يقاتل في معركة خاسرة . . وقال لها :

- أدعو الله ألا يجيثك أوريليانو في البيت هذه الليلة . . . فإذا حدث هذا فلتقبله عني ، لأنني لا أتوقع أن ألتقي به أبداً مرة أخرى . . .

وفي تلك الليلة وقع أسيراً أثناء محاولته للفرار من ماكوندو بعد أن كتب رسالة للكونونيل أوريليانو بوينديا ذكره فيها بهدفهما المشترك لجعل الحرب انسانية ، وتمنى له الانتصار على فساد دعاة الحرب ومطامع السياسيين في كلا الحزبين . . . وفي اليوم التالي تناول الكولونيل أوريليانو بوينديا الغداء معه في بيت أورسولا حيث جرى احتجازه إلى أن تبت محكمة عسكرية في مصيره . . . وكان في الحق اجتماعا وديا . . . ولكن في الوقت الذي نسي فيه الغريمان الحرب لتذكر أحداث الماضي ، أحست أورسولا بالوجع لهما طالعهما من تبدل أطوار ولدها واتجاهاته العدوانية . . . لقد شعرت بهذا منذ أن شاهدته يدخل مصحوبا بحاشية عسكرية كبيرة عمدت إلى تفتيش غرف النوم وقلعها رأسا على عقب حتى اطمأنوا إلى عدم وجود أي خطر . . ولم يتقبل الكولونيل أوريليانو بوينديا هذا فقط ، بل إنه أصدر أوامر مشددة بعدم السماح لأحد بالاقتراب إلى أكثر من عشر أقدام حتى أورسولا ذاتها ، في

حين راح أفراد حرسه الخاص يكملون وضع الحراس حول البيت . . . وكان يرتدي كسوة عسكرية عادية بغير أية شارات ، وحذاء مرتفعاً بمهماز لطحه السطين والدم الجاف ، وتمنطق بحزام تدلى منه حامل مسدس مفتوح اللسان ، وكشفت يده التي كانت دائماً على مقبض المسدس مدى اليقظة والتحضر اللذين شفت عنهما نظراته . . حتى لم تتمالك أورشولا أن قالت لنفسها حين لمحت كل هذا وأكثر منه :

- رحماك يا ربي ! . . إنه يبدو الآن رجلاً لا يتردد عن شيء . . .

وحالما تم تنفيذ الأمر بدفن الموتى في قبر جماعي ، عهد إلى الكولونيل روك كارنيرو بمهمة تشكيل محكمة عسكرية ، وانهمك هو على الأثر في مهمة شاقة ، هي فرض اصلاحات راديكالية لا تدع حجراً في نظام حكم المحافظين في مكانه . . . وقال لمساعديه في هذا الصدد :

- علينا أن نسبق السياسيين في الحرب . . . فعندما يفتحون أعينهم على الواقع سوف يجدون أمامهم حقائق قائمة . . .

وكان من قراراته مراجعة عقود تملك الأراضي التي يرجع تاريخها إلى مائة سنة ، فاكتشف المظالم الصارخة التي ألبسها أخوه جوزيه أركاديو ثوب القانون ، وسرعان ما ألغى تسجيلاتها بجرة قلم . . . ولكي يقوم بلفتة ودية ترك مهامه ساعة من زمن وزار أرملة ريبكا ليطلعها على نوابه . . .

والحق أنه وجد هذه الأرملة التي كانت موضع سره في غرامياته السكينة والتي كان لها الفضل في انقاذه من كثير من المآزق وهي في عزلتها في ظلال بيتها أقرب إلى شيخ من أشباح الماضي وقد بدأ ينصحها أن تخفف من صرامة أحزانها ، وأن تدع الهواء يتجدد في المنزل ، وأن تغفر للعالم ما نالها من قتل جوزيه أركاديو . . . بيد أن ريبكا كانت بمنأى عن هذا كله ، وقبعت في مقعدها الهزاز تنظر إليه وكأنه هو ذلك الشيخ من أشباح

الماضي . . . بل إنها لم تنزعج بالنسبة الذي ساقه إليها عن الأراضي التي
إغتصبها جوزيه أركاديو وقرب أعادتها إلى ملاكها الشرعيين ، وإنما تنهدت
قائلة :

- إن كل ما تقرر يا أوريليانو سيكون أمراً نافذاً . . . كان رأيي فيك
دائماً ، وقد لمستك الآن بالدليل ، إنك شخص مرتد عن كل معتقد كان لك . . .

وقد تمت مراجعة وتعديل عقود التملك في نفس الوقت الذي انعقدت
فيه المحكمة العسكرية برئاسة الكولونيل جيريلدو ماركيز ، وانتهت بإعدام
كل الضباط الذين أسرتهم قوات المتمردين . . . وكان آخر من حوكم هو
الجنرال راكيل موكادا . . . وقد بادرت أورسولا بالتوسط من أجله ، وفي هذا
قالت للكولونيل أوريليانو بونديا :

- إن حكمه كان من أفضل ما رأينا في ماكوندو . . . ولن أحدثك عن
طيبة قلبه ، وعن مودته لنا ، لأنك تعرف هذا أكثر من أي أحد آخر . .

فما كان من الكولونيل أوريليانو بونديا إلا أن نظر إليها مستنكراً ، ورد
عليها قائلاً :

- لا يمكنني أن آخذ على عاتقي مهمة تصريف العدالة . . . إن كان
عندك ما تقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية . . .

وفي الحق أن أورسولا لم تفعل هذا فقط ، بل انها جمعت كل امهات
الضباط المتمردين المقيمت في ماكوندو للشهادة . . . فأقبلن كلهن واحدة
واحدة ، وبينهن كثيرات ممن اشتركن في تأسيس البلدة غير الجبال
والمستنقعات ، على أداء الشهادة وامتداح فضائل الجنرال موكادا ، وكانت
آخرهن أورسولا . . . وقد أدت حراة دفاعها وقوة اقناعها وما تهيأ لها من
مهابة واعتبار بين الجميع ، إلى جعل ميزان العدالة يتأرجح فترة . . . إذ
راحت تقول لهم :

- إنكم أخذتم هذه العملية مأخذ الجد الخطير ، وخيرا فعلتم لأنكم تقومون
بواجبكم ... لكن لا تنسوا أنه طالما أنعم الله علينا بالحياة فسوف نظل نحن
أمهات ، ومهما كتتم ثورين فإن لنا الحق في خلع بنطلوناتكم وتأديبكم بالعصا لأول
بادرة عدم احترام لنا نحن أمهاتكم ...

وقد انسحبت المحكمة للمساواة وما زالت هذه الكلمات تتردد في
الأسماع ... وعند منتصف الليل صدر الحكم بإعدام الجنرال موكادا ... وقد
رفض الكولونيل أوريليانو بونديا تعديل الحكم على الرغم من مهاترات
أورسولا ... وقبل الفجر بقليل زار المحكوم عليه في زنزاة السجن ، وقال له :

- تذكر أيها الصديق القديم أنني لا أعدمك ، وإنما الثورة التي تعدمك ...

لم يكلف الجنرال موكادا نفسه عناء النهوض من السرير الصغير عندما رآه
داخلاً ، ورد عليه قائلاً :

- إذهب إلى جهنم يا صاحبي ...

لم يكن الكولونيل أوريليانو بونديا قد منح نفسه حتى هذه اللحظة فرصة لقاء
الرجل قليلاً ... وقد روعه الآن ما رآه من تقدمه في السن ورعشة يديه وانتظاره
للموت بالامثال المأثور عن في موقفه ، وإذا هو يشعر بتقزز بالغ من نفسه ، مشوب
ببؤادر الرثاء ... ومهما يكن فإنه قال :

- أنت تعرف خيراً أنني أن المحاكمات مهازل ، وأنتك في الواقع تدفع ثمن
جرائم غيرك ، ذلك لأننا مصممون هذه المرة على كسب الحرب بأي ثمن ... أما
كنت تفعل نفس الشيء وأنت في مكاني ؟ ..

نهض الجنرال موكادا لكي يسمح نظارته السمكية في ذيل قميصه ، ورد قائلاً ؟

- جائز ... لكن ما يقلقني ليس هو إعدامك الي ، لأن هذا بالنسبة
لأناس مثلنا هو موت طبيعي ...

ووضع نظارته على الفراش ونزع ساعته وسلسلته ، واستطرد يقول :
- إن ما يقلقني هو أنه بعد كل أحقادك علينا ومحاربتنا بكل هذا
العنف ، قد انتهيت إلى صيرورتك أسوأ منا ... ولم يعد في الحياة شيء
يوازي هذه الوضاعة ...

ونزع خاتم زواجه وأيقونة العذراء ووضعهما بجانب النظارة والساعة ،
ثم اختتم قائلاً :

- وبهذا المعدل لن تكون فقط أشد دكتاتور طغياناً ودموية في تاريخنا ،
بل سوف تعدم صديقتي أورشولا في محاولة تهدئة ضميرك ...

وقف الكولونيل أوريليانو بوينديا مكانه جامداً ... وما لبث الجنرال
موكادا أن أعطاه النظارة والايقونة والساعة والخاتم ، ثم غير نبراته قائلاً :
- لكنني لم أبعث إليك لتأنيبك ... إنما أردت أن أطلب منك معروفاً
.. إن ترسل هذه الأشياء إلى زوجتي ...

وضع الكولونيل أوريليانو بوينديا الأشياء في جيوبه قائلاً :

- أهى لا تزال في بلدة مانور ؟ ...

فأبده الجنرال موكادا قائلاً :

- لا تزال في مانور ... في نفس البيت القائم خلف الكنيسة ...

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

- يسرني أن أفعل هذا ...

وعندما خرج الى الهواء المشبع بالضباب شعر بالرطوبة تلفح وجهه . .
واستقبله فريق الرماة بالرصاص المصطفين تجاه الباب محيينه بتحية رئيس
الدولة فامرهم قائلاً :
- ليخرجوا به الان . .

الفصل التاسع

كان الكولونيل جيريلدو ماركيز هو أول من ادرك عقم هذه الحرب وخواءها . وفي وضعه الأخير كقائد عسكري ومدني في ماكوندو، كان يتبادل الاتصال البرقي مرتين في الاسبوع مع الكولونيل أوريليانو بونديا للاطلاع على آخر تطورات الاشتباكات والبت في اتجاهاتها المستقبلية . وعلى الرغم من طول المحادثات البرقية بينهما، فقط لاحظ الكولونيل جيريلدو ماركيز في الأونة الأخيرة فتوراً غريباً في حماس الكولونيل أوريليانو بونديا للخوض في تفاصيل المعارك الدائرة، حتى انتهى به الأمر الى هذا الإحساس بعقم الحرب وخواتمها، وأصبح ملاذه الأخير لقتل الوقت والتخلص من أفعال الوحدة هو قضاء فترات بعد الظهر عند امارانتا التي احبها حبا عميقا لم تقابله الا بالفتور المهذب، ورغم ذلك ظل يتابعها بزياراته اليومية على أمل ان يلين قلبها يوما ما .

ثم كانت المفاجأة بعد شهرين عندما ظهر الكولونيل أوريليانو بونديا في ماكوندو على غير انتظار، تلك المفاجأة التي أذهلت صديقه الحميم وأذهلت حتى أرسولا، لما رأوه من تبدل أحواله . فقد جاء هذه المرة بلا ضجيج، ولا حرس، ملتفأ بعباءة رغم شدة الحر، بصحبة ثلاث محظيات أسكنهن في نفس البيت، وأخذ يمضي معظم وقته ممدداً في أرجوحته . وقبلما كان يطلع على البرقيات التي كانت ترد عن العمليات العسكرية العادية .

وفي احدى المناسبات زاره الكولونيل جيريلدو ماركيز يسأله عن

تعليماته بصدد اخلاء موقع على الحدود حيث كان ثمة خطر من تحول الصراع الى مشكلة دولية، فكان الرد هو :
- تضايقتني بالتفاهات .. سل السماء ...

في ذلك الحين كانت الحرب تمر بمرحلة عصبية .. فإن ملاك الاراضي الليبراليين الذين ساندوا الثورة في البداية قد تحالفوا سرّاً مع ملاك الأراضي المحافظين بهدف وقف عملية مراجعة وتعديل عقود الملكية .. وعمد السياسيون الذين كانوا يزودون الثورة بالأموال وهم في المنفى الى التبرؤ علانية من أهداف الكولونيل أوريليانو بونديا المبالغة في الشدة والتطرف .. هكذا انتابه ضيق بالغ جعله ينصرف عن كل شيء ويخلد الى الاسترخاء واللامبالاة بعد أن بلغت الحرب مرحلة ركود شامل .. وقد ظل على هذه الحال الى ان جاءت لجنة من الحزب الليبرالي كانت مخولة لدراسة اسباب هذا الركود الذي انتهت اليه الحرب .. وفي مجلسه بين مستشاريه السياسيين راح يستمع في صمت الى مقترحات المبعوثين .. فطلبوا أولاً نبذ مراجعة وتعديل عقود الملكية عملاً على استعادة تأييد ملاك الاراضي الليبراليين .. وطلبوا ثانياً ان يتخلى عن محاربة النفوذ الكاثوليكي لكي يحصلوا على تأييد الجماهير التي تدين بالمذهب الكاثوليكي .. ثم طلبوا اخيراً ان يعدل عن هدفه الخاص بالحقوق المتساوية للاطفال الشرعيين وغير الشرعيين حفاظاً على تماسك البيت ..

وهنا قال، الكولونيل أوريليانو بونديا باسماً بعد أن فرغوا من قراءة المطالب ..

- معنى هذا أن كل ما نحارب من أجله هو السلطة ..

فرد أحد اعضاء اللجنة قائلاً :

- هذه مجرد تغييرات تكتيكية .. المسألة الاساسية في المرحلة الراهنة

هي توسيع القاعدة الشعبية للحرب.. وبعد ذلك سوف تكون لنا نظرة اخرى..

وعندئذ سارع احد مستشاري الكولونيل أوريليانو بوينديا الى التدخل،
قائلاً :

- هذه تناقضات، ومعناها أننا كنا نحارب مدى عشرين عاماً ضد
مشاعر الامة!.. إن..

بيد أن الكولونيل أوريليانو بوينديا أوقفه عن الاسترسال بإشارة من يده،
قائلاً :

- لا تضيع وقتك يا دكتور.. الشيء المهم هو أننا منذ الآن فصاعداً،
سنحارب من أجل السلطة فقط..

وتناول الوثائق التي جاء بها المبعوثون وثأب للتوقيع عليها وما زال
يبتسم، قائلاً :

- لما كان هذا هو الموقف، فلا اعتراض عندنا للقبول..

جعل رجاله يتبادلون النظر بعضهم الى بعض في جزع، وقال
الكولونيل جيريلدو ماركيز بصوت خافت :
- معذرة يا كولونيل.. لكن هذا يعتبر خيانة!..

فرفع الكولونيل أوريليانو بوينديا القلم في الهواء، وأفقرغ جماع سلطته
عليه آمراً :
- سلم سلاحك!..

فنهض الكولونيل جيريلدو ماركيز ووضع سلاحه على المنضدة، بينما
مضى الكولونيل أوريليانو بوينديا في أوامره قائلاً :

- إرجع الى الشككات، وضع نفسك تحت تصرف المحكمة الثورية .

وما لبث ان وقع الوثائق وأعطاهما الى المبعوثين قائلاً :

- اليكم أوراقكم أيها السادة . وأرجو أن تحصلوا منها على المزايا المطلوبة . .

وبعد يومين حوكم الكولونيل جيريلدو ماركيز بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام . .

وقد أعار الكولونيل أوريليانو بوينديا أذناً صماء لكل طلبات الاسترحام التي قدمت اليه . وفي ليلة التنفيذ خالفت أورشولا كافة الأوامر الصادرة بعدم إزعاجه، ودخلت عليه في مخدعه متشحة بالسواد بالغة الرصانة وابتدرته قائلة وهي واقفة طيلة الدقائق الثلاث التي حددت للمقابلة :

- أنا اعرف انك ستعدم جيريلدو، وليس في قدرتي ان أفعل أي شيء لمنع إعدامه . . لكنني أوجه اليك تحذيراً واحداً : في اللحظة التي أرى فيها جثته، فأقسم لك بعظام أبي وأمي، وأقسم لك بذكرى جوزيه اركاديو بوينديا، وأقسم لك أمام الله أنني سوف أجرك جراً من حيثما تكون مختبئاً، وأقتلك بيدي هاتين ! . .

وقبل أن تبرح الغرفة، ودون انتظار لأي رد، إختتمت قائلة :

- إن هذا يساوي عندي كما لو كنت ولدتك بذيل خنزير ! . .

وبعد ليلة عصبية أمضاها في التأمل واستعراض الماضي والحاضر، ظهر عند الفجر في زنزانة الكولونيل جيريلدو ماركيز قبل ساعة واحدة من موعد تنفيذ حكم الإعدام، وقال له :

- انتهت المهزلة أيها الصديق القديم . . هلم بنا من هنا قبل أن يتكفل البعض بتنفيذ الإعدام ! . .

فلم يستطع الكولونيل جيوريلدو ماركيز أن يكتم رنة الارتواء التي ابتعتها فيه هذا المسلك ، ورد قائلا :

- لا يا أوريليانو . خير عندي ان أموت من أن أراك تتحول الى طاغية دموي . .

فقال له الكولونيل أوريليانو يونديا :

- لن تراني هكذا . . إلبس حذاءك وساعدني لوضع حد لهذه الحرب القذرة . .

والحق أنه حين قال قوله تلك لم يكن يعرف أن شن الحرب أيسر من وضع حد لها . . فقد لبث قرابة عام وهو يسلل جهودا عنيفة لإجبار حكومة المحافظين على عرض شروط صلح مقبولة لدى المتمردين ولبث عاما مثله وهو يجاهد لإقناع رفاقه في حمل السلاح بقبولها . . وقد توسل بكافة أساليب التشدد والقسوة لإخماد تمرد ضباطه الذين قاوموا وطالبوا بالنصر . حتى اضطر في النهاية الى الاعتماد على قوات العدو لحمل رفاقه على الامتثال . .

وباقتراب موعد الهدنة إغتيبت أسرة الكولونيل أوريليانو يونديا بقرب عودته الى العيش في أحضانها، بعيدا عن ويلات الحرب وأعبائها الباهظة، ليكون بشرا عاديا مثل سائر الناس، حتى قالت أورسولا في هذا :

- سيكون لنا أخيرا رجل في البيت، كما كنا في الماضي . .

ومن عجب ان الجيش الحكومي كان عليه أن يتولى حماية البيت عند هذه العودة المرتقة . . إذ كان وصوله مقترناً بالشتائم والإهانات والانتقام بأنه قد عجل بإنهاء الحرب بضمن باهظ . .

وفي خلال الأيام التالية التي استسلم فيها لعداوة جراحه الجسدية والنفسية، عمد الى إتلاف كل أثر يربطه بحياته الماضية . . فجرد مسبك

المعادن من كل ما له قيمة دائمة، ووزع ملبسه على أتباعه من رجال المراسلة، ولم يحتفظ الا بطبخة بها رصاصة واحدة .

وقبل ذلك بساعات جاءت بيلار تيريرا لزيارته فراحه تقبمها في السن وترهل بدنهما وانحسار ضحكتهما الرنانة المرححة، وإنما راعه أكثر من هذا نفاذ نبوءاتها العجيبة في قراءتها للطالع، إذ حذرته مرة أخرى، مثلما حذرته وهو في قمة مجده :

- خل بالك من فمك ا . .

وجاء طبيبه الخاص . . وبعد أن فرغ من مداواة جروحه، طلب منه بلهجة عرضية ودون ما اهتمام معين ان يشير له بالتحديد الى موضع القلب . . فسمع الطبيب بالسماحة ثم رسم دائرة على الطردر بقطعة قطن مغموسة في اليود، دون أن يعقب بسؤال . .

وحل يوم توقيع الهدنة . . ففي الخامسة صباحا دلف الكولونيل أوريليانو بوينديا الى المطبخ حيث شرب قهوته السوداء بغير سكر كمعاداته، وقالت له أورسولا :

- لقد جئت الى الدنيا في يوم ثلاثاء كهذا اليوم . . وكان الجميع في ذهول من عينيك المفتوحتين . .

يبد أنه لم يلق اليها بسمعه اذ كان منصتاً الى أصوات تشكيلات الجنود وصدى الاوامر ا سكرية ودوي الابواق وهي تمزق سكون الفجر . . ومن عجب ان هذه الاصوات المألوفة لديه جعلته يغص بطعام الافطار ويصد عنه . . وعندما اقبل الكولونيل جيريللو ماركيز مع زمرة من الضباط المتبردين لمرافقته الى مكان الاجتماع ألفاه صامتاً بالغ السهوم والوجوم . . وحاولت أورسولا ان تلقي بعباءة جديدة على كتفيه قائلة :

- ماذا سيظن رجال الحكومة عنك ؟ . . سيظنون انك استسلمت

لأنه لم يبق عندك شيء يكفي لشراء عباءة لك . . .

لكنه لم يقبل العباءة . . وعندما خرج الى الباب تركها تضع على رأسه قبة قديمة من اللباد كان يلبسها أبوه جوزيه اركاديو بوينديا . . وقالت له أخيراً :

- أوريليانو . . عدني أنك إذا وجدت ساعاً شديدة على نفسك هناك، فلتذكر أمك . .

فرد عليها بابتسامة متباعدة، وخرج من البيت لمواجهة الصيحات والشتائم والحملات التي كان مقدراً أن تلازمه حتى مغادرته ماكوندو . . وارتدت أورسولا الى الباب الخارجي فشددت رتاجه وفي عزمها ألا تفتح حتى نهاية حياتها، وهي تدبر هذه المخاطر في نفسها : «سوف نفنى هنا، ونتحول الى تراب في هذا البيت الذي لم يبق فيه رجال، لكننا لن نعد لهذه البلدة النكدة فرصة الشماتة بنا ورؤية دموعنا ! . .»

وأضمت ساعات الصباح كلها تبحث عن أي شيء يذكرها بولدها . بيد أنها لم تعثر على آثار تنفع للذكرى . .

ووصل الكولونيل أوريليانو بوينديا الى مكان الاجتماع على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، حيث تلاقى الوفد الحكومي المحافظ مع وفد المتمردين الليبراليين في خيمة كبرى بجوار بلدة نيرلانديا . . وكان راكباً بغلاً موحلاً . . وترك لحيته بغير حلاقة . . وكان يقاسي من آلام جروحه أشد من مقاساته لحبوط احلامه، ذلك لأنه وصل الى الحد الذي انتهت فيه كل الآمال والاحلام، وتلاشت كل الامجاد والانتصارات . . وعملاً بالتدابير التي طلبها، فقد خلا الاحتفال من الموسيقى او الالعاب النارية أو دق الاجراس أو هتافات النصر او غير ذلك من المظاهر التي تغير من الطابع الحزين للهدنة . .

ولم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثائق . . وكان بين

أعضاء الوفدين أواخر الضباط الذين بقوا على ولائهم للكولونيل أوريليانو بونديا . . وعندما هم رئيس الوفد الحكومي بتلاوة بنود الاستسلام، أبى الكولونيل أوريليانو بونديا قائلا :

- دعونا لا نضيع الوقت في الشكليات . .

وتأهب لتوقيع الوثائق دون قراءتها، وعندئذ قطع احد ضباطه السكون الثقيل قائلا له :

- يا كولونيل . . ارجوك ان تكرمنا بالآ تكون أول الموقعين . .

فنزل الكولونيل أوريليانو بونديا على رجائه . . وجرت التوقيعات في صمت رهيب، الى أن بقي السطر الأول في كل وثيقة خلواً، حتى إذا هم الكولونيل بملته، قال له ضابط آخر من رجاله :

- يا كولونيل . . لا يزال هناك وقت لتصحيح كل شيء . .

بيد أنه أجرى قلمه على الأوراق في المكان الخالي دون أن يتبدل شيء من ملامح وجهه . .

وما كاد يفرغ من التوقيع حتى ظهر في المدخل ضابط شاب يقود بغلا محملا بصندوقين كبيرين . . كان امين صندوق المتمردين في منطقة ماكوندو . . وقد امضى ستة أيام في رحلة شاقة وهو يسحب البغل المائت من الجوع لكي يصل الى مكان الهدنة قبل فوات الاوان . . وما لبث ان انزل الصندوقين وأخذ يخرج منهما قوالب من الذهب بلغ عددها اثنين وسبعين رضما فوق المنضدة . . لقد نسي الجميع وجود هذا الرصيد الضخم . . ففي فوضى العام الفات، عندما دب الانقسام الى القيادة المركزية لحركات التمرد وشاعت المنافسات الفردية بين زعمائها، كان من المستحيل قيام مسؤولية عن أي شيء . .

وفي الحال ادرج الكولونيل أوريليانو بونديا قوالب الذهب جميعا في

صلب وثائق الاستسلام، واختتم الاجتماع دون أن يسمح بأي خطاب أو تعقيب.. بيد أن الضابط الشاب وقف في مواجهته متفرباً بعينه الهادئتين، حتى سأله الكولونيل :

- أي شيء آخر ؟

فأجاب الضابط وهو يشد على فمه :

- الإيصال ..

فكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا إيصال تسلم الذهب بخطه .. وانسحب على الأثر إلى خيمة ميدان أعدت له ليستريح إذا شاء .. فلما خلا إلى نفسه نزع قميصه وجلس على حافة الفراش الصغير، وفي الثالثة والربع أخرج طبنجته وأطلق رصاصتها على نفسه في نطاق دائرة اليود التي رسمها طبيبه على صدره .. وفي تلك اللحظة رفعت أورسولا وهي في ماكوندو غطاء وعاء اللبن فوق الموقد وهي تعجب كيف استغرق فترة طويلة لكي يغلي، فوجدته مليئاً بالديدان .. فهتفت :

- انهم قتلوا أوريليانو .. لقد أطلقوا عليه النار في ظهره، ولم يجد إنساناً خيراً يغمض له عينيه ! ..

وعند الغروب جاءوا وهي تنتحب حاملين الكولونيل أوريليانو بوينديا ملفوفاً بملءة كانت ما تزال متيسرة بالدم الجاف وعيناه مفتوحتان حنفاً ..

لقد نجا من الخطر .. فإن الرصاصة سلكت مساراً مستقيماً حتى استطاع الطبيب أن يدس فتيلاً مغمساً من اليود ويسحبها من الظهر .. وقال وهو في غاية الرضى :

- كانت هذه آية البراعة مني .. كانت هذه النقطة التي حددتها هي المسار الوحيد الذي يمكن أن تمر فيه الرصاصة دون أن تعطب أي عضو حيوي ..

عندها نغم الكولونيل أوريليانو بوينديا على نفسه اذ لم يطلق الرصاصة في سقف حلقه كما كان في نيته أن يفعل، حتى ولو بقصد السخرية من نبوءة بيلار تيرنيرا . . وقال للطبيب :

- لو كانت لي سلطتي الماضية لأمرت بإعدامك رمياً بالرصاص في الحال ! . .

ولقد أدى حبوط موته الى استعادة مكانته الذاهبة في غضون ساعات معدودات . . إن نفس الجماهير التي اختلقت قصة تقول إنه باع الحرب في مقابل غرفة جدرانها من قوالب الذهب، قد وصفت محاولة الانتحار بأنها عمل من أعمال الشرف، وأسهبوا عليه منزلة الشهيد . .

وفي مدى شهرين استطاع الكولونيل أوريليانو بوينديا ان يغادر غرفته، وكانت نظرة واحدة الى مدخل البيت كافية لكي تعدل به عن كل تفكير في استئناف الحرب مرة أخرى . . فإن أورسولا قد انبرت بحبوة تفوق سنها الى تجديد البيت، إذ قالت عندما رأت أن ابنها سيبقى على قيد الحياة :

- الآن سوف يرى الجميع من أنا . . لن يكون في الدنيا كلها بيت اجمل ولا ارحب من بيت المجانين هذا ! . .

فقد أجرت تنظيفه وطلاءه، وغيرت أثاثه، وأعدت الحديقة الى سابق رونقها وغرست فيها أزهاراً جديدة، وفتحت الابواب والنوافذ حتى تتسرب أضواء الصيف الباهرة الى كافة الغرف حتى غرف النوم . . وأعلنت انتهاء فترات الحداد التي فرضتها من أجل الراحلين من أفراد الأسرة، وأبدلت هي نفسها بثياب الحزن الكالحة ملابس اخرى ادنى الى طابع الشباب . . وانطلقت عزف البيانولا يصدح من جديد في ارجاء البيت ويملاً جوه مرحاً . . ولم تمتلك أمارانتا اذ ذاك ان تذكرت بترو كريسي وتحركت اشجانها التي كانت هاجعة في قلبها اللداوي، ولكن الزمن طهره ونزع عنه كل حقد دفين . .

و ذات يوم بدا لاورسولا أن تستعين بجنود الحرس الذين كانوا يشرفون على حراسة البيت بأمر الحكومة - بدعوى حمايته - فلم يمانع رئيسهم الشاب . . وشيئاً فشيئاً اخذت أورسولا تعهد اليهم ببعض الأعمال . . وكانت تدعوهم لتناول الطعام ، وتعطيهم ملابس وأخذية ، وتكفلت بتعليمهم القراءة والكتابة . . وعندما امرت الحكومة بسحبهم استمر واحد منهم في الإقامة في البيت وظل في خدمة الاسرة سنين طويلة . . وفي عيد رأس السنة الجديدة عثر على قائد الحرس الشاب ميتاً تحت نافذة ريميديوس الجميلة بعد أن جن جنونه لطول ما صمدته عنها . . .

الفصل العاشر

عندما كبر الشقيقان التوأمان جوزيه اركاديو الثاني وأوريليانو الثاني، ابنا اركاديو، كانت الأسرة في حيرة من تصرفاتهما. . فقد بلغت المشابهة بينهما والمشاكسات الصادرة منهما حداً جعل حتى أمهما سانتا صوفيا بيدال تعجز عن التفريق بينهما ومعرفة من منهما المسمى بالاسم الذي أطلق عليه، دون خلط أو التباس. .

على أن هذا اللبس ما لبث أن تغير بعد تجاوزهما سن المراهقة، فإن أوريليانو الثاني استحال الى فتى ضخم البنية مثل أجداده، بينما شب جوزيه اركاديو الثاني بادي العظام مثل الكولونيل، وكانت المشابهة المشتركة بينهما هي سمة الانطواء والعزلة. .

ثم تكشف الفارق الحاسم بينهما في إبان الحرب، عندما طلب جوزيه اركاديو الثاني من الكولونيل جيريلدو ماركيز أن يدعه يشهد عملية من عمليات تنفيذ حكم الإعدام. . بعكس أخيه أوريليانو الثاني الذي ارتاع من هذه الفكرة مفقلاً البقاء في البيت. . وفي هذه المناسبة طلب من جدته أورسولا أن تترىه الغرفة المغلقة التي كانت معملاً لجده الأكبر «جوزيه اركاديو بونديا» والتي أطلق عليها في ما بعد اسم «غرفة مالكويداس» وجمع فيها كل ما تركه ذلك «العجري» الحكيم من كتب ومخطوطات فلم تجد أورسولا إزاء إلحاحه إلا أن تعطيه مفتاح الغرفة. .

ومن عجب أن أوريليانو الثاني عندما فتح الغرفة لم يجد بها آثاراً للأثرية والعناكب كما تصور، ووجد الكتب مصفوفة والمخطوطات منسقة. . وحين

تناول احد الكتب وقرأ بعض ما فيه راعته اعاجيب القصص التي تضمنها .
 أما المخطوطات فقد عجز عن فك طلاسمها إذ كانت بخط اقرب الى الرموز
 الموسيقية . وقد بلغ من فرط انبهاره بالغرفة وما فيها، ان ساوره ذات يوم
 إحساس خفي بأنه يرى شيخ مالكويداس دائماً في ظلال الغرفة، على
 استعداد لتثويره بكل ما يستعصي عليه فهمه وتزويده بالحكمة التي نهل منها
 جده الاكبر . .

أما جوزيه اركاديو الثاني فقد خرج من تجربة مشاهدة عملية تنفيذ
 الإعدام بفزع بالغ جعله يمقت الحرب ويهرب الى برج الكنيسة لكي يلقى
 ناقوسها لمساعدة الاب انطونيو ايزابيل والعناية بديوك المصارعة في حوش
 الأبرشية . ولما اكتشفت الكولونيل جيريلدو ماركيز الحقيقة زجره بشدة
 لاهتمامه بأشياء يستنكرها الليبراليون، فرد قائلاً :
 - الحقيقة هي أنني صرت من المحافظين، كما اظن . .

وعندما تضايق الكولونيل جيريلدو ماركيز وأبلغ اورسولا قالت له
 متعاطفة مع حفيدها :

- هذه الكيفية أفضل . . ندعو الله ان يصبح قسيساً، لكي يحل الايمان
 في بيت المجانين هذا . .

ولكن جوزيه اركاديو الثاني احترق مصارعة الديوك . . ولما رآته
 اورسولا يدخل البيت لأول مرة بديوكه عارضته بشده قائلة انها تجلب
 النحس، وإن احد اسلاف الاسرة قتل منافساً له بسبب هذه الديوك
 المشؤومة . . ولكنه استمر في تربيتها في بيت بيلار تيرنيرا «جدته»، التي
 اعطته كل ما يحتاج اليه في مقابل اقامته عندها . .

أما أخوه أوريليانو الثاني فكانت أطواره أدنى الى المعجب . . ففي الفترة
 التي أمضاها عاكفاً على القراءة في غرفة مالكويداس كان منطوياً على نفسه

مثلما كان الكولونيل أوريليانو بوينديا في شبابه . . ولكن بعد توقيع معاهدة الصلح في «نيرلانديا» حدث ما أخرجه عن انطوائه وجعله يواجه واقع الدنيا . . فقد التقى ذات مرة بامرأة شابة كانت تباع «يا نصيب الكارتيل» لجائزة «اكورديون» وحيته بحفاوة ومعرفة أكيدة، فلم يدهش أوريليانو الثاني إذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين أخيه التوأم . . بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن اخذته المرأة الى حجرتها . . والواقع ان المرأة أحبتة حباً شديداً منذ لقائهما الاول، حتى دبرت الامور بحيث تكون جائزة «الاكورديون» من نصيبه عند سحب ارقام «الكارتيل» . . . وبعد انقضاء اسبوعين تحقق أوريليانو الثاني ان المرأة كانت تعاشره بالتناوب مع أخيه، معتقدة انهما شخص واحد . . وبدلاً من ان يعمل على تصحيح الخطأ قرر ان يطيل امد الموقف . . ولم يعد يذهب الى غرفة سالكويداس . . وإنما كان يمضي عصر كل يوم في فناء البيت يتدرب على العزف على «الاكورديون» بالرغم من اعتراضات أورسولا التي كانت في ذلك الحين قد حرمت عزف الموسيقى في البيت بسبب الحداد العائلي ولأن «الاكورديون» في نظرها كان صنعة المتسولين . . وعلى الرغم من ذلك فإن أوريليانو الثاني غدا بارعا في العزف على «الاكورديون» وظل كذلك حتى بعد أن تزوج وأنجب اولاداً وأصبح من أكثر الناس احتراماً في ماكوندو . .

لقد دامت العلاقة بين بائعة «الكارتيل» والأخوين شهوراً . . ولكن «جوزيه اركاديو» الثاني مرض وانسحب . . أما أوريليانو الثاني فقد صارحها بالحقيقة والتمس صفحها، وبقي معها حتى مماته . .

كانت المرأة تدعى بيترا كوتيس، وكانت قد جاءت الى ماكوندو في إبان الحرب مع زوج عرضي يرتزق من «الكارتيل»، وبعد وفاته استمرت في المهنة . . كانت شابة مولدة ذات عينين لوزيتين أسبغتا على وجهها شراسة أفعى البانثر، بيد أنها كانت طيبة القلب فوارة العاطفة . . وبعد أن تحققت

أورسولا أن جوزيه أركاديو الثاني احترف مصارعة الديوك وأن أوريليانو الثاني يعترف على الاكورديون في تلك الحفلات الصاخبة التي كانت تقام في بيت عشيقته، بدا لها أنها توشك ان تفقد عقلها بشذوذ أطوار هذا الثنائي العجيب، حتى لكان نقائص الاسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت في الاثنين.. وعلى الرغم من أن أورسولا قد بلغت المائة من عمرها وأوشكت ان تفقد البصر بسبب «المياه البيضاء» فقد ظلت محتفظة بحيويتها البدنية الفائقة، واستقامتها الخلقية الماثورة، واتزانها العقلي الموفور.. وقد ندرت في نفسها اذا تزوج احد حفيديها وأنجب ولداً أن تتولى هي تربيته وصياغته ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للأسرة مكانتها الذاهبة.. الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات.. وهي النقائص التي عدتها عوامل فعالة في تقويض مكانة اسرتها..

أما أوريليانو الثاني الذي مضى رغم ذلك في حياته العابثة، فقد اعتبر أن ما ناله من ثراء بعد ذلك انما كان وليد علاقته مع بيترا كوتيس كما سيرى القارئ في ما يلي.. ان بيترا كوتيس ظلت حتى نهاية الحرب تعول نفسها بما تربحه من بيع «الكارتولا»، وكان أوريليانو الثاني يساعد بها يسطو عليه بين حين وآخر من مدخرات أورسولا.. وظل الاثنان يعيشان عيشة ماجنة، حتى اذا عاد أوريليانو الى بيته عند الفجر كانت أورسولا تتلقاه صائحة :

- إن هذه المرأة هي سبب ضياعك !.. إنها سلطت عليك سحرها الى حد انني سأراك يوماً وأنت تتلوى من المرض والالام !..

بيد أن أوريليانو الثاني لم يفكر وقتها الا في ايجاد حرفة تمكنه من اقامة بيت لبيترا كوتيس، يعيش معها بين جدرانهم متفانين في الحب حتى الممات.. وعندما فتح الكولونيل أوريليانو بونديا مسبكه المعدني مرة

اخرى، بدا لأوريليانو الثاني أن يتعلم صناعة حلى الاسماك الذهبية ليتخذ منها مورداً للعيش. . بيد أن المشقة التي كابدها في فترة ثلاثة أسابيع من التدريب جعلته يهرب من المسبك. . وحدث في خلال هذه المدة أن بيترا كوتيس خطر لها ان تجعل الارانب جائزة الريح في «الكارتيللا» . . والواقع أن الارانب تكاثرت بسرعة غريبة الى حد أن الوقت لم يكن يتسع لبيع تذاكر «الكارتيللا» بالتوازي مع تكاثر الارانب. . ولم يتمالك أوريليانو الثاني ان قال لها ذات صباح وقد اذهلته كثرة الارانب في الحوش :

ـ لماذا لا تجعلين جائزة «الكارتيللا» على البقر ؟ .

وفي محاولة من بيترا كوتيس لتنظيف الحوش قايمت على الارانب بنقرة، انجبت بعد شهرين ثلاثة عجول ! . .

كانت هذه هي البداية . . وفي سنوات قلائل، ودون ما جهود تذكر، وإنما بعامل الحظ وحده، جمع أوريليانو الثاني ثروة من اكبر الثروات في منطقة المستنقعات، بسبب ذلك التكاثر الخارق للمواشي. . كانت الأفراس تلد ثلاثاً، والدجاج يبيض مرتين كل يوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة ان احدا لم يصدق هذه الخصوبة الفذة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود ! . . ورسخ في ذهن اوريليانو الثاني ان حظه العجيب هذا انما هو بتأثير بيترا كوتيس، حتى أنه كان يحرص دائماً على عدم ابعادها عن مراعيه وحظائره، بل أنه بعد أن تزوج وأنجب ابناء استمر يعايشها بموافقة زوجته فرناندا ! . .

هكذا اصبح اوريليانو الثاني بين عشية وضحاها مالكا لأراضٍ وماشية متزايدة لم يكن يجد حتى الوقت لتوسيع حظائرها. . . وأوضحت حفلاته الصاخبة التي كان يريق فيها الشمبانيا بغير حساب مثار العجب في أرجاء ماكوندو. . وعبثاً كانت أورسولا تزجره لهذا الإسراف الذي لا حد له، اذ كان

يقابل زجرها بالتمادي وهو يضحك طرباً واستخفافاً . . بل إنه جاء ذات مرة بصندوق مليء بأوراق البنكنوت وإناء به معجون وأخذ يلقى الأوراق على حوائط البيت داخلاً وخارجاً بين انفعال الأسرة ونفجع اورسولا وطرب الجمهور الحاشد في الشارع، حتى صاح أخيراً بأعلى صوته :

- الآن لن يكلمني احد في هذا البيت عن النقود مرة أخرى . .

وقد عمدت اورسولا الى انتزاع اوراق البنكنوت وطلاء البيت باللون الابيض من جديد، وهي تدعو قائلة :

- سألتك، يا الهي، ان تعيدنا فقراء كما كنا عندما أنشأنا هذه البلدة حتى لا نجزي بهذا الاسراف في آخرتنا! . .

ومن عجب أن الدعاء جاء بعكس ما استهدفت . . فإن احد العمه القائمين بنزع اوراق البنكنوت اصطدم بتمثال ضخم من المصيص للقدية يوسف تركه احدهم في البيت اثناء السنين الاخيرة للحرب وسقط التمثل الأجوف محطماً على الارض . . كان التمثال محشواً بالعملات الذهبية . ولم يستطع احد أن يتذكر من الذي جاء بهذا التمثال . . وفي هذا قاله أمارانتا :

- إن ثلاثة رجال جاءوا به ورجونا أن نبقى عندنا الى أن تنتهي الامطار، فطلبت منهم أن يضعوه هناك في الركن حتى لا يصطدم به أحد، ففعلوا، وبقي في مكانه منذ ذلك الوقت، لأن احداً لم يعد قاط للمطالبة به . .

إن هذا الحادث ضايق أورسولا، اذ كانت تعتقد بادى الامر انه تمثال قدس حقيقي حتى أنها وضعت شمعة فوقه وأخذت تصلي أمامه . . فلما تبينت الحقيقة الآن لم تتمالك اذ بصقت على كوم الذهب البراق وعمدت الى وضعه في ثلاثة اكياس من القنب دفنتها في مكان سري، مؤملة أن يعود الرجال المجهولون عاجلاً أو آجلاً لاستردادها . . .

في ذلك العهد كانت مأكوندو تنعم بالرحاء وقد استخالت بيوتها القروية الى ابنية ذات مصاريع خشبية وأرضية من الاسمنت، مما جعل حر الظهيرة الخائق اقرب الى الاحتمال. ثم بدا لجوزيه أركاديو الثاني ان ينشئ مشروعاً ملاحياً يربط البلدة بالعالم الخارجي فعمل على تطهير قاع النهر من صخوره وشق قناة تصله بالبحر. ولما أطلع اخاه اوريليانو الثاني على مشروعه لم ييخل عليه بالمال، واختفى عن الأنظار مدة طويلة حتى ظن الكثيرون أن خطته لشراء سفينة لم تكن سوى خدعة للهرب بمال أخيه. الى أن جاء يوم هرع فيه سكان مأكوندو الى النهر وعيونهم جاحظة من الدهول، اذ شاهدوا جوزيه أركاديو الثاني يتصدر أول وآخر سفينة تمخر مياه النهر الى البلدة. . .

لم تكن في الواقع سوى طوف خشبي كبير يجذبه بالحبال عشرون رجلاً يتقدمون بمحاذاته على الضفة، وقد وقف في مقدمته جوزيه أركاديو الثاني تلمع عيناؤه زهواً وهو يشرف على العملية. ولقد وصلت معه مجموعة من نساء فرنسيات تحت مظلات ملونة تقيهن حرارة الشمس المتقدمة، وقد تدلت فوق اكتافهن مناديل حريرية كبيرة هفافة، وازدانت وجوههن بمعاجين ملونة، ورشقت الزهور الطبيعية في شعورهن، والتفت حول أذرعهن ثعابين من الذهب، ولمعت أسنانهن بالماس. ومن عجب أن جوزيه أركاديو الثاني بعد أن اطلع أخاه على تفاصيل المغامرة التي عدها دليلاً على قوة الارادة لا أكثر، ما لبث ان عاد الى ديوكه المتصارعة، وقضى على مشروع الخط الملاحى بالفشل. وكان الأثر الوحيد الذي بقي من هذه المحاولة الفاشلة هو روح التجديد التي جاءت بها النساء الفرنسيات، بما أدخلته من التطور الاجتماعي والسلوكي في هذا المجتمع المنعزل المغلق، الى حد أن هذا الأثر امتد الى حانة كانارينو العتيقة التي اغلقت أبوابها كساداً، واستحال الشارع ذاته الى ساحة تضيئها المصابيح البدائية وآلات العزف العصرية. .

بل لإنهن كن صاحبات السبق في إقامة «الكرنفالات» التي جعلت ماكوندو تعيش ثلاثة أيام في جو مرح صاخب محموم.. وكانت النتيجة النهائية لهذا كله هي إتاحة الفرصة لأوريليانو الثاني للالتقاء بزوجته فرناندا ديل كاربيو...

لقد اختيرت اخت ريميديوس الجميلة ملكة لمهرجان الكرنفالات ولم تستطع أورشولا التي كانت مروعة لجمال حفيدتها الصغرى الصاعق ان تمنع هذا الاختيار.. وكانت حتى ذلك الحين قد أفلحت في إبعادها عن أعين الناس خارج البيت، اللهم الا عند الذهاب الى الكنيسة لحضور القداس مع أمارانتا، ولكنها كانت تحملها ووجهها خلف شال اسود.. ومن الناس من كانوا يذهبون الى هناك لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على محيا ريميديوس الجميلة التي كانت ملاحظتها الفاتنة مثار الاحاديث المحمومة في أرجاء اقليم المستنقعات.

والحق ان ريميديوس الجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا.. لقد ظلت حتى سن المراهقة تحت رعاية امها سانتا صوفيا بيدال التي كانت تتولى تحميمها وإلباسها، وكانت تضعها تحت المراقبة لثلاث تشوه الحواشي بالرسوم الغريبة التي تنقشها.. وبلغت العشرين من عمرها دون ان تعرف القراءة والكتابة، جاهلة باستعمال ادوات المائدة، جاثلة في أرجاء البيت عارية اذ كانت طبيعتها تنبذ التستر... وعندما طالها قائد الحرس الشاب بحبه صدته عنها ببساطة لأن «مجنونه روعها»، وفي هذا قالت لأمارانتا :

- انظري الى سداخته... قال لي إنه سيموت بسببي، كأنني مرض موعد يؤدي الى الموت!...

وعندما عثروا على الضابط الشاب صريعاً تحت نافذتها، لم تعد ان قالت لأمارانتا :

- ألم أقل لك إنه ساذج ! .

إن أورشولا من ناحيتها قد حمدت الله أن منح الأسرة مخلوقة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كانت في نفس الوقت يقلقها مثل هذا الجمال، الذي عدته شركا شيطانيا تحت طابع البراءة . . ومن اجل هذا كان حرصها على إبعاد ريميدوس الجميلة عن الدنيا، حماة لها من كل اغراء دنسوى، غير عالمة بأنها كانت حتى وهي في رحم أمها بمنأى عن كل عدوى . . ولم يخطر ببالها قط أنهم سيختارونها ملكة جمال الكرنفال الجنوبي، ولكن أوريليانو الثاني الذى استدت به نزوة التنكر في إهاب نمر، استقدم الاب انطونيو ايزابيل الى البيت لإقناع أورشولا بأن الكرنفال ليس من الطقوس الوثنية كما قالت، بل هو من الممارسات التي لا تتنافى مع العقيدة . . ولما اقتنعت في النهاية، وأن كان على كره منها، وافقت على التويج . .

وسرعان ما انتشر نبأ اختيار ريميدوس بوينديا لتتويجها ملكة في المهرجان حتى تجاوز حدود اقليم المستنقعات في ساعات معدودة ووصل الى مناطق بعيدة لم تسمع بجمالها، الأمر الذي اثار قلق الدوائر التي ما زالت ترى في لقبها العائلي «بوينديا» رمزاً لحركات التمرد . . ولم يكن ثمة أساس لهذا القلق . . فلو كان هناك احد قد انحاز الى السلم والمهادنة فقد كان هو الكولونيل أوريليانو بوينديا، الذي دبت اليه الكهولة، وبعدت صلاته بكافة احوال أمته، والذي اعتكف في مسبكه المعدني يقتل الوقت بصياغة حلوى الاسماك الذهبية الصغيرة . .

هكذا لم يكن ثمة أساس للقلق الناجم عن عودة اسم عائلة «بوينديا» للظهور على نطاق شعبي لمناسبة اختيار ريميدوس بوينديا لكي تتوج ملكة فى مهرجان الكرنفالات، وإن كان هناك العديدون ممن لم يروا هذا الرأي . . ومهما يكن فإن البلدة التي كانت غافلة عن الفاجعة التي تهددها تدفقت الى الميدان الرئيسي في موجات صاخبة من المرح . . وقد بلغ المهرجان ذروته

من الهوس، وحقق أوريليانو الثاني حلمه أخيراً بالتتكر في إهاب نمر والسير في غمار الزحام وقد ببح صوته من فرط الصياح والانفعال، عندما ظهر على طريق المستنقعات موكب من عديد الاشخاص يحملون في محفة مذنبه ابهى امرأة يمكن أن يتصورها الخيال. . وفي مدى لحظة نزع أهل ماكوندو أقتعتهم لكي يحسنوا النظر الى الانباسة المنمقة الزهراء ذات التاج الزمردى والعباءة المحفوفة بالفراء الثمين والتي بدا وكأنها ملكة شرعية لا مجرد صورة مصنوعة. . وكان لكثير من الفطنة ما جعلهم يعدون هذا البهاء من قبيل الإغراء والإثارة. . ولكن أوريليانو الثاني سرعان ما تغلب على حيرته وأعلن أن الوافدين الجدد هم ضيوف شرف، ويادر فأجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على نفس العرش الذي أعد للتتويج. . وحتى منتصف الليل ظل الوافدون الغرباء، المتتكرون في أزياء بدوية، يشاركون في البهجة المحمومة، بل انهم ضاعفوا من أسباب المرح والبهجة بإطلاق ألعاب نارية وممارسة عروض بهلوانية جعلت الناس يتذكرون أفانين «العنجر» . . .

ثم فجأة، وفي ذروة الابتهاج والحبور، صاح احدهم هاتفا :

- يحيا الحزب الليبرالي ! . . يحيا الكولونيل أوريليانو بونديا ! . .

وسرعان ما دوت طلقات الرصاص تغطي قصف الألعاب النارية، وانبعثت صيحات الفرع تبث عذف الموسيقى، واستحالت البهجة الى ذعر وهلع. . وبعد انقضاء سنوات عديدة على هذه الفاجعة، ظل الكثيرون يؤكدون ان حراس الملكة الوافدة الدخيلة كانوا من الجنود النظاميين الذين أخفوا بنادقهم الحكومية تحت العباءات البدوية الفضفاضة، برغم ما اذاعته الحكومة في بيان رسمي من دحض هذا الاتهام. . وبعد أن ساد الهدوء لم يبق في البلدة احد من البدو النزائفين، وتناثرت على أرض الميدان جثث القتلى والجرحى في ثياب التتكر : اربع راقصات بانتوميم، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب، وشيطان، وثلاث مغنيات، واثنان من نبلاء فرنسا، وثلاث

إمبراطورات يابانيات . . وفي غمرة الفزع أفلح جوزيه لمركاديو الثاني في أنقاذ ريميديوس الجميلة وحمل أوريليانو الثاني الملكة الدخيلة الى البيت بين ذراعيه وقد تمزق رداؤها وتلوثت عباؤها بالدم . . كان اسمها فرناندا ديل كاريبو . . وكان الاختيار قد وقع عليها كواحدة من أجمل خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد، وقد جاءوا بها الى ماكوندو بناء على وعد بتسميتها ملكة مدغشقر . . وتولت أورسولا العناية بها كما لو كانت ابنة لها . . وبدلاً من ان ترتاب البلدة في أمرها فقد عطفت عليها ورثت لما نالها . . وبعد ستة أشهر من المجزرة، وبعد أن شفي الجرحى وذبلت الزهور فوق القبر الجماعي للقتلى، مضى أوريليانو الثاني لاستقدامها من المدينة البعيدة التي كانت تقيم فيها مع أبيها، وعقد قرانه عليها في ماكوندو في احتفال كبير امتد عشرين يوماً . .

الفصل الحادي عشر

كاد الزواج ان يتحطم بعد شهرين، لأن أوريليانو الثاني في محاولة منه لاسترضاء بيترا كوتيس عمل على تصويرها في زي ملكة مدغشقر. وعندما اكتشفت فرناندا ما حدث، حزمت حقائب العرس وغادرت ماكوندودون كلمة وداع.. واستطاع أوريليانو الثاني ان يلحق بها على طريق المستنقعات، وبعد توسلات كثيرة ووعود بالاستقامة أفلح في إعادتها الى بيت الزوجية، وهجر عشيقته...

وثقة من بيترا كوتيس في قدرتها، فإنها لم تبت أي قلق أو انزعاج، وهي التي أخرجته من عزلته وقلة خبرته، وصاغت منه رجلا يعرف كيف يستمتع بالحياة، فضلا عن تأثيرها في إنماء ثروته... وكان الشيء الوحيد الذي استبقته عندها من ملابسها هو زوج الحذاء الفاخر الذي قال إنه يريد الاحتفاظ به للبس في الثيابوت حين وفاته... وفي هذا قالت بيترا كوتيس لنفسها مصابرة:

- سوف يعود اليّ عاجلا أو آجلا، حتى ولو لمجرد لبس الحذاء...!

ولم يكن لها أن تنتظر طويلا... فالحقيقة أن أوريليانو الثاني ادرك منذ ليلة الازفاف أنه عائد الى بيت بيترا كوتيس لا محالة... فإن فرناندا كانت امرأة غريبة الاطوار هائمة في هذه الدنيا... لقد نشأت في تلك المدينة القاتمة، التي تبعد ستمائة ميل والتي تدرج فيها المركبات الملكية، نشأة قوامها التزم والاعتكاف في بيت أبوين من اسرة رفيعة. وكثيراً ما سمعت أمها المريضة تردد على سمعها:

- كانت جدتك الكبرى ملكة . . وسوف تصبحين أنت ملكة ذات

يوم . . .

لقد صدقت فرناندا هذا الكلام حتى بعد وفاة أمها وإدخالها الدير وهي في الثانية عشرة من العمر للتعليم، وحتى بعد اضطراب والدها «دون فرناندو» لرهن بيت الأسرة ليتمكن من شراء جهاز العرس طبقاً للتقاليد . وبعد ثماني سنوات عادت إلى البيت لتجده مجرداً من الأثاث الفاخر والتحف الثمينة التي اضطّر أبوها لبيعها سداً لنفقات تعليمها . . وهكذا مضت فرناندا في عيشتها المنزوية لا أصدقاء لها ولا تعرف شيئاً من أحوال الدنيا حولها، حتى ولا أبناء الحرب التي كانت تمزق البلاد، ولا يشغلها سوى تعلم دروس البيانو وصنع الكاليل الموتى . . بل إنها بدأت تفقد الحلم الذي راودها بأن تصبح ملكة في يوم ما بتأثير ما بُثته أمها في رأسها، إلى أن جاء يوم سمعت فيه دقاً آمراً على الباب الخارجي، ولما فتحتة طالعها ضابط شاب أنيق، وطلب مقابلة أبيها . . . وبعد أن اختلى به ساعتين خرج الأب إليها في غرفة الحياكة وقال لها :

- جهزي امتعتك . . ستقومين برحلة طويلة . .

وعلى هذه الصورة كانت رحلتها إلى ماكوندو التي صحبوها إليها دون أن تعرف ما يراد بها . . وفي ليلة واحدة صدمتها الدنيا صدمة قاسية عنيفة بواقعة المرير وحقيقتها المروعة . . وبعد عودتها إلى البيت أغلقت على نفسها باب غرفتها واستسلمت للبكاء والنحيب، غير عابئة باستعطاف «الدون فرناندو» لها ومحاولات الشرح والتفسير رغبة في تلافٍ آثار الجراح العميقة التي خلفتها تلك الدعابة الخادعة الغريبة . . وقد أقسمت ألا تبرح غرفتها حتى الموت، عندما جاء أوريليانو الثاني للزواج منها . .

كان ذلك هو بداية حياتها الفعلية . . وكان في نفس الوقت هو البداية، والنهاية، لسعادة أوريليانو الثاني . . .

منذ ليلة الزفاف أبدت فرناندا تزمناً غريباً حتى صدفت عن فراش الزوجية مدى اسبوعين كاملين مما اضطر أوريليانو الثاني الى اطالة أيام الفرح عشرين يوماً دارت فيها الشمبانيا ونحرت فيها الذبائح وأقيمت الولائم بكرم باذخ، والسر كما اكتشفت أورسولا أن فرناندا كانت ملتزمة بمراعاة أيام معينة طبقاً لتقويم لفتته وهي في الدير...

ولما ثابت اليه في النهاية عانى من تزمته الامرين، حتى لم يمض شهر الا وقد رجع الى بيت بيترا كوتيس وأخذ لها تلك الصورة في زي الملكة على ما تقدم... ويعد أن أفلح في اعادة فرناندا الى بيت الزوجية وخفت حدة نزمته، أحس في النهاية أنها لا تستطيع أن تهيم له تلك السعادة التي راودت خاطره حين سعى اليها في تلك المدينة البعيدة للفرز بالزواج منها...

ثم ذات ليلة، قبل فترة قصيرة من مولد طفلهما الأول، عرفت فرناندا أن زوجها قد عاد سرّاً الى بيت بيترا كوتيس... وقد اعترف لها بذلك وقال بشرح لها الموقف بلهجة المستسلم لقضائه:

... هذا ما حدث... وكان لا بد لي أن أفعل هذا، لكي تستمر المواشي في التكاثر والزيادة...

ولم يستغرق الا وقتاً قليلاً لإقناعها بصدق هذه الدعوى الغريبة وبما قدمه من براهين بدا أنه لا سبيل الى دحضها، وكان الوعد الوحيد الذي طلبته منه فرناندا هو ألا يدع الموت يفاجئه في فراش عشيقته... وعلى هذه الصورة مضى الثلاثة في حياتهم دون أن يضايق احدهم الآخر: أوريليانو الثاني المحب المتفاني، لكل منهما... وبيترا كوتيس المزهوة المنتصرة... وفرناندا المتظاهرة بأنها لا تعرف شيئاً...

بيد أن هذا الميثاق الغرامي لم ينجح في ادماج فرناندا في حياة أسرة

بورينديا . . . فمئذ أول يوم فشلت أورسولا في إقناع فرناندا باستخدام دورة المياه بدلا من «القعادة» الذهبية التي جاءت بها في جهاز العرس ولكي تعطيها الى الكولونيل أوريليانو بورينديا لصهرها وصنع اسماء ذهبية صغيرة منها . . . وقد شعرت أمارانتا بالضيق من التزام فرناندا أسلوب التحذلق في الكلام حتى كانت تهكم عليها، مما أدى في النهاية الى القطيعة بين الاثنتين وأصبحتا لا تتصلان الا بالمذكرات الكتابية . . .

وعلى الرغم من العداوة الظاهرة من جانب الاسرة لفرناندا، فإنها لم تنفض يدها من فرض اتجاهاتها وعادات أسلافها على هذه البيشة الجديدة . . . فقد وضعت حداً لتناول الطعام في المطبخ كلما شعر أحدهم بالجوع. وألزمهم بأن يكون هذا في مواعيد منتظمة وحول المائدة الكبرى في قاعة الطعام، مكسوة بمفرش كتاني وعليها ادوات المائدة ومن فوقها الثريات . . . وعلى هذا النحو صارت هي المتصرفة في شؤون البيت، خصوصاً بعد أن طعنت أورسولا في السن وكف بصرها واضطرها ثقل السنين الى الانزواء في أحد الاركان . . . ثم إن أبواب البيت التي كانت تفتح على مصاريعها منذ الفجر حتى موعد النوم، اضحت توصد اثناء فترة القيلولة بدعوى ان الشمس تسخن غرف النوم، وفي النهاية كان اغلاقها دائما . . . وعندما قرر زوجها تسمية ابنتها الأولى باسم جده الأكبر «جوزيه اركاديو» لم تلجأ فرناندا الى مخالفته اذ لم يكن قد مضى على وجودها في البيت أكثر من عام، ولكن عندما ولدت البنت الاولى صممت على تسميتها «ريناتا» وهو اسم أمها، في حين أرادت أورسولا أن تسميها ريميديوس . . . وبعد احتدام الخلاف الذي كان الاب يقوم فيه بدور الوسيط الضاحك، تم الاتفاق على تسميتها «ريناتا - ريميديوس» ثم اشتهرت في البلدة باسم «ميم» . . .

ثم توالى الايام وتعاقبت الاعوام . . . وفي خلال ذلك شهدت بلدة ماكوندو تطورات كبرى غيرت معالم الحياة فيها حتى اصبحت تعج

بالنشاط... فقد مدت اليها خطوط السكك الحديدية، وأدخل التليفون والكهرباء، وأنشئ مصنع للثلج وبعض المشروبات المثلجة... ولكن كان اكبر تطور مؤثر في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية هو زراعة الموز على نطاق واسع بعد أن تولته شركة خارجية جلبت معها مئات الخبراء والفنيين الذين أقيمت لهم مساكن خاصة ومرافق معيشية وترفيهية متنوعة، حتى كان ذلك في نظر أهل البلدة اقرب الى الغزو منه الى التعمير...

واحد فقط رحب بهذا الغزو الخارجي وسعد به الى حد كبير... هو أوريليانو الثاني... فقد كان القادمون الجدد ينزلون ضيوفا على البيت الكبير قبل استقرارهم في منشآتهم الجديدة، فكانت المآدب تقام لهم بغير حساب... وإذا كانت أورسولا قد أبدت كرمها المعهود، فإن أمارانتا استبشعت ما عدته اقتحاماً للبيت، وعادت الى تناول طعامها في المطبخ مثل ما كان في الماضي... وعمد الكولونيل أوريليانو بوينديا الى اغلاق صومعة السبك على نفسه اعتزالاً للوافدين الذين وان تظاهروا بأنهم يؤدون واجب التحية لبطل قومي، الا أنه عدهم دخلاء متطفلين يرونه في واقع الامر أثراً من مخلفات الماضي... وكانت فرناندا بالطبع اشد الجميع جزعاً ازاء هذه الفوضى التي شملت البيت وعصفت بكل ما وضعته من ترتيبات ونظم...

الا ريميديوس الجميلة التي كانت في منعة من التأثير بشيء من هذا كله، بحكم طبيعتها الهادئة، ونفورها من المظاهر، وإعراضها عن كل تشكك وسوء ظن، وسعادتها بدنياها الخاصة القائمة على الواقعية والبساطة... ومن قبيل ذلك انها لم تكن تفهم لماذا تلجأ النساء الى التعقيد والتكلف بارتداء الجونلات والمشدات، ولهذا خاطبت نفسها ثوباً خشناً فضفاضاً كالجلباب حسمت به مسألة الفستان، وإن لم تغفل عن الإحساس بأنها تبدو فيه شبه عارية، ولكنها عدته الرداء الوحيد المناسب للبيت... ولما رأتهم ينتقدونها بسبب شعرها المرسل الذي استطل الى الفخذين

ويطالبونها بعقد جداول وتمشيطة ورشق « الفيونكات » الحمراء فيه، خلقت رأسها ببساطة واستخدمت الشعر في عمل عاريات لتماثيل القديسين... وكان الشيء المروع في تبسيطها لكل شيء هو أنها كلما استغنت عن متطلبات الهندام اللائق إيثاراً لراحة البدن، وكلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لعفويتها. كلما بدا جمالها الصارخ أشد اشارة، وإغراؤها للرجال أكثر وأفذح... والواقع أن ريميديوس الجميلة ظلت حتى آخر لحظة لها على الأرض غير مدركة ولا مقدرة أن قدرها الذي لا تبديل له كامراً مثيرة للقلق واضطراب المشاعر هو كارثة يومية... كانت في كل مرة تدخل فيها قاعة الطعام على رغم نواهي أورسولا تثير في نفوس الغرباء الوافدين موجة من البلبلة والجزع، إذ كان يبدو بكل وضوح أنها متجردة تماماً تحت رداها البدائي الخشن... ولم يستطع احد أن يفهم ان رأسها الحليق وجمجمتها البدئية التكوين ليساً ضرباً من ضروب التحدي، وأن جراتها في الكشف عن ساقها تليقاً للحر ليس من قبيل الاستفزاز والإثارة الأثمة... ومثل ذلك ما كانت تعتمد اليه من لعق أصابعها بعد الأكل...!

أما هي فكانت غافلة تماماً عن البلبلة والاضطراب اللذين كانت تتقلب فيهما، وعن البلاء الدائى الذي كانت تحدثه كلما مرت بمكان، ومن ثم كانت تعامل الرجال دون ما ادنى سوء طوية ولا خبث، وإن كانت في نهاية الأمر تنزلهم بهدونها البريء... وحينما أصرت أورسولا على جعلها تتناول الطعام في المطبخ مع أمارانتا لكيلا يبصرها الغرباء الوافدون، كان ارتياحها بالغاً، إذ كانت أبعد الناس عن التزام التقاليد والمجاملات والنظام المرسوم... والواقع انه لم يكن يعنياها اين ولا متى تأكل... أحيانا كانت تستيقظ من النوم في الثالثة صباحاً لتناول طعام الغداء، ثم تنام النهار طوله... بل كانت تمضي شهوراً متوالية ومواعيد طعامها في منتهى الاختلال... ثم اذا طرأ تحسن على هذا الجدول الزمني كانت تستيقظ في

الحادية عشرة صباحا وتغلق على نفسها باب الحمام حتى الساعة الثانية بعد الظهر وهي عارية تماما، تتسلى بقتل العقارب الى أن تفيق من تأثير نوم عميق، ثم تأخذ في صب الماء عليها بكوز من الحوض، وكانت تطيل أمد هذه العملية وتبالغ في طقوسها الى حد أن من لا يعرفها جيدا يظن أنها قد كرست نفسها لعبادة جسدها... أما بالنسبة اليها فإن هذه الطقوس الفردية كان يعوزها كل احساس ذاتي، وكانت مجرد ملهاة لإزجاء الوقت الى أن تشعر بالجوع...

وذات يوم حين بدأت في الاستحمام، رفع أحد الضيوف الغرباء بلاطة من سقف الحمام، فتوقفت أنفاسه لدى المشهد الصاعق الذي صافح عينيه... ولقد رأت هي عينيه البائستين من خلال البلاطة المكسورة، فلم يخامرها رد فعل ينم عن الخجل، بل عن الانزعاج، وهتفت :

- احترس !.. ستقع !..

فغمغم الغريب قائلا :

- أردت فقط ان اشاهدك !..

فقالت :

- لا بأس... لكن احترس... فإن هذا البلاط مخلخل...

لقد شاعت امارات الدهول الممزوج بالتألم في وجه الغريب، وبدا كأنه يكافح في صمت ضد مشاعره لثلا يتلاشى من أمام عينيه هذا السراب... أما ريميديوس الجميلة فقد ظنت انه يقاسي من الخوف من احتمال تكسر البلاط كله، فأخذت تتعجل إتمام حمامها بأسرع من المعتاد لثلا يتعرض الرجل للخطر... وفيما كانت تصب الماء فوق جسدها من الحوض قالت له إن السقف بهذه الحالة لأن ورق الشجر الذي يحشوه قد دب اليه العطن بسبب الامطار على ما تظن، وأن هذا هو سبب امتلاء الحمام

بالعقارب... وقد توهم الغريب أن كلامها هذا هو مجرد تغطية لهدوئها المذهل، ولذلك ما أن رآها تضع الصابون على جسدها حتى استسلم للإغراء وتقدم خطوة أخرى مغمغماً :
- دعيني أضع لك الصابون... .

فقلت :

- أشكر لك حسن نواياك... لكن يدي فيهما كل الكفاية... .

فقال راجئاً :

- حتى ولو كان الصابون لظهرك فقط ؟.. .

فقلت :

- هذه بلاهة... الناس لا يضعون الصابون على ظهورهم أبداً !... .

وعندئذ، وبينما كانت تجفف نفسها، توصل إليها الغريب وقد امتلأت عيناه بالدموع ان تتزوجه... . فردت عليه بلهجة مخلصه قائلة إنها لا يمكن ان تزوج رجلاً بلغت به السذاجة الى حد ان يضيع ساعة من وقته بل حتى يحرم نفسه من طعام الغداء لمجرد أنه شاهد امرأة تستحم... . وأخيراً، وعندما كانت تلبس جلبابها، لم يحتمل الرجل البرهان الذي رآه بعيني رأسه عما كانوا يستريون فيه من أنها لا تلبس شيئاً غير الجلباب، وأحس ان كشف هذا السر كان له وقع حديد محمى في النار عليه... . وعندئذ نزع بلاتين آخرين من السقف لكي ينزل الى الحمام... . فقلت تحذره مروعة :

- السقف عال جداً !... . ستقتل نفسك !... .

ولقد انكسر البلاط المعطوب بقصف له نذير الشؤم، ولم يمهل الرجل لإتمام صرخة الهلع التي أطلقها، اذ تهشمت جميعته على الارض الاسمنتية ولقي مصرعه على الأثر.

كان هذا الحادث البشع، مقترناً بمصرع ضابط الحرس الشاب عند نافذة ريميديوس الجميلة، هو مصدر الاعتقاد الذي ساد على الأثر، بأن جمالها الطاغى يجلب الموت . . . ومن ثم تخلت أورسولا عن قلقها على الفتاة ورقابتها الدائمة لها وتركتها لمصيرها، خصوصاً بعد مولد الحفيد الأصغر جوزيه اركاديو وما نذرته أورسولا من السهر على تربيته ليكون من رجال الدين . . . هكذا مضت ريميديوس الجميلة تهيم في بيدااء وحدتها واعتزالها، تضح في احلام بغير كوابيس، وتواصل حماماتها التي لا تنتهي، وتتناول طعامها دون التزام بأي موعد، مستسلمة لصمتها الذي لا تعرفه ذكريات . . الى أن جاء يوم وقفت فيه فرناندا في الحديقة تطوي ملاءتها طالبة مساعدة نساء البيت . . . وما كادت تبدأ حتى لاحظت أماراننا أن ريميديوس الجميلة يغطيها شحوب بالغ، فسألتها :

- هل تشعرين بأي انحراف ؟ . .

فأجاب ريميديوس الجميلة بابتسامة رائية وهي ممسكة بطرف الملاءة :

- بالعكس . . . أنا في أحسن حال . . .

وما ان فاهت بهذا الرد حتى شعرت فرناندا بلفحة هواء وضياء جذبت الملاءة من يدها ودفعت وسطها الى اعلى . . . وشعرت اماراننا بدورها برفرة خفية في اشرطة جونلتها حتى حاولت ان تشد قبضتها على طرف الملاءة لثلا تقع، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع . . . وكانت أورسولا التي كاد بصورها يذهب تماماً في ذلك الحين من الهدوء بحيث فهمت طبيعة لفحة الهواء والضياء هذه وتركزت الملاءة تحت رحمتها وهي تراقب ريميديوس الجميلة تلوح مودعة في وسط الملاءة الخفاقة التي ارتفعت معها، مخلفة وراءها بيئة الهوام والزهور، صاعدتين في الهواء الى أن غابتا عن الأنظار في أطباق الجو، الى حيث لا تدركهما حتى أطياف الذكريات . . .

ولقد فكر الخارجون عن نطلق البيت بالطبع أن ريميديوس الجميلة قد انتهت النهاية المحتومة لملكة نحل، وأن أسرتها إنما حاولت بتسريب حكاية الارتفاع عن الأرض تلك، انقاذ شرفها. . . أما فرناندا التي كانت تحترق حسداً لمنافستها في الجمال فقد تفجرت هذه المعجزة في النهاية، وظلت وقتاً طويلاً وهي تبتهل وتصلي عسى أن تعود إليها ملائمتها الثمينة ١١. . . وقد صدق أكثر الناس المعجزة، ومنهم من ذهبوا يقبضون الشموع تبركاً. . .

الفصل الثاني عشر

اصرت اورسولا يعناد شليد على أن تختص هي بتربية حفيدها الاصغر «جوزيه اركاديو» تربية دينية تؤهله للترقي في مراتب الكهنوت العليا الى ذروتها، وبذلت في هذا اقصى الجهد على الرغم من اشرافها على المائة عام وانطماس بصرها تماما، وإن كان لها من حدة حواسها الاربع الاخرى وبأسها الماضي الطويل طوع لها ان تمضي في حياتها العائلية كالمبصرين، الى حد ما... ثم جاء الوقت الذي اخلوا يستعدون فيه لإرسال «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا... وفي نفس الوقت كانت اخته «ميم» الموزعة بين صرامة فرناندا وأحقاد اماراتنا تستعد هي أيضاً لإرسالها الى مدرسة السيد، حيث تؤهل اثناء تعليمها للتفوق في العزف على «الكلافيكورد»...

وأما أبوهما اوريليانو الثاني فما لبث ان عاد الى حياته اللاهية العابة، فامتلا البيت من جديد بالسكرارى يسكبون الشمبانيا بغير حساب، ويعزف «الأكورديون» يتردد صدها بلا انقطاع، حتى لم تتمالك أورسولا ان تمت الموت لكي يريحها من أثقال هذا «البيت المجنون»، على حد تعبيرها...

ثم حل اليوم المحدد لرحيل «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا، فبدا هادئا رهينا لا يذرف دمعا، وظل كذلك طوال وليمة الغداء الوداعية التي اقيمت لهذه المناسبة، وفي خلالها كانت الاسرة تتكلف السكينة والمرح، ولكن ما إن نقلت حقبة امتعته الى الخارج حتى بدا لهم وكأن تابوتا يحمل الى خارج البيت... وكان الوحيد الذي ابى ان يشارك في الوداع هو الكولونيل اوريليانو بوينديا المعتزل الا من المكوف في صومعة السبك على

صنع اسماءه الذهبية الصغيرة قتلاً للوقت وزهداً في كل شيء حتى الحياة ذاتها، اذ غمغم يقول :

- كاهن ! .. كان هذا هو كل ما نحتاج اليه ! ..

وبعد ثلاثة شهور صحب اوريليانو الثاني وفرناندا ابنتهما «ميم» الى المدرسة وعادا ومعهما معزف «الكلافيكورد» الذي وضعاه في مكان البيانولا . . . وحوالي هذه الفترة بدأت اماراتنا تخطط قماش كفنها . . . واقررن ذلك بغفور «الحمي» التي جاءت بها شركة زراعة الموز في المنطقة، وبعد أن وجد سكان ماكوندو القدامى انفسهم محاطين بأفواج الغرباء الوافدين، مما دفعهم الى الاستمسك بمواردهم المحدودة التي كانت لهم منذ الازمان الخوالي، ولكن كان عزاؤهم على أي حال انهم استطاعوا الصمود والنجا في خضم هذا الغرق الاكبر. . . أما في البيت الكبير فكان الضيوف ما يزالون يتوافدون لتناول الغداء، ولم يتمكن اصحابه من استعادة انماط حياتهم القديمة الا بعد رحيل شركة الموز بعد ذلك بسنوات . . . ومع ذلك فقد طرأت تغييرات أساسية على نظم الضيافة القديمة، لأن فرناندا هي التي اضطلعت الآن بإقرار نظمها الجديدة. . . فإنه بتحية اورسولا الى الخلف بعد أن طعنت في السن وفقدت البصر، وبانهماك أماراتنا في اعداد لفائف الكفن، فقد تهيأت لملكة الكرنفال الحرية في اختيار الضيوف وفرض النظم والتقاليد المنقولة عن أبويها. . . ولقد جعلت صرامتها من البيت مشابه للعادات والتقاليد القديمة في بلدة روع اهلها بالسفاهة التي كان الغرباء الوافدون يبعثون بها أسوالهم. . . وكان افاضل الناس عندها هم اولئك الذين لا صلة لهم بشركة الموز. . . وحتى جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها لم يسلم من هذا التغيير، اذ اضطر الى التخلي عن هواية مصارعة الديكة مرة اخرى والالتحاق بالعمل كرئيس عمال في شركة الموز. . . وفي هذا قالت فرناندا :

- لا يصح بعد هذا ان يعود الى البيت، طالما انتقلت اليه لوثة
الاغراب...

على هذه الصورة فرض التشدد في البيت الى حد أن اوريليانو الثاني
أحس أنه أوفر راحة عند بيترا كوتيس... أولاً، بدعوى رفع العبء عن
زوجته والتخفيف عنها، فقد نقل مقر يلائمه وحفلاته من البيت الكبير...
وثانياً، بدعوى أن مواشيه بدأت تفقد خصوصيتها ووفرتها، فقد نقل
إسطبلاته وملحقاتها... وثالثاً، بدعوى أن حرارة الطقس اخف في بيت
عشيقته، فقد نقل مكتبه الصغير الذي كان يباشر فيه أعماله... وعندما
ادركتُ فرناندا أنها امرأة لم يتوف زوجها بعد، كان الوقت قد فات لكي تعود
الامور الى حالتها السابقة... وأصبح اوريليانو الثاني لا يأكل في بيته الا
لحماً، وكانت المظاهر القليلة التي حاول ان يستر بها موقفه، مثل النرم في
فراش الزوجية، من الندرة بحيث لا تقنع احدا... وذات ليلة طلع عليه
النهار، بعامل الإهمال، وهو في مخدع بيترا كوتيس... بيد أن فرناندا،
بعكس كل التوقعات، لم تبد أي استياء، إنما ارسلت في نفس اليوم
صندوقين كبيرين مملوئين بملابسه الى دار عشيقته... ولقد ارسلتهما في
رائعة النهار، وحرصت على أن يكون المرور بهما في وسط الشارع، حتى
يستطيع كل انسان رؤيتهما، ظناً منها بأن زوجها الأبق لن يقوى على احتمال
هذا العار ويبادر بالعودة الى الحظيرة مطأطئ الرأس... ولكن هذه البادرة
البطولية من جانب فرناندا كانت مجرد برهان آخر على مبلغ جهلها بطباع
زوجها، الذي ابتهج بهذه الحرية التي جاءت إليه تسعى، بإقامة حفلة دامت
ثلاثة أيام... وفي مواجهة هذه الفترة من حياة الزوجية التي التزمت فيها
فرناندا بملاسلها القاتمة الطويلة وحليها العتيقة وترفعها النابي عن المكان،
بدت العشيقة وهي تكاد تنفجر بشباب متجدد، بملاسلها الحريرية الزاهية
وعينيها البارقتين بوميض الظفر والتشفي... وهكذا أسلم اوريليانو الثاني

نفسه اليها بعنفوان الفتوة والمراهقة... وكان ينحدر بلا حساب عديد الأبقار والخنازير والدجاج من أجل ولائمه المتلاحقة حتى اسود الحوش ملطخاً بالدم والوحل وتكدست فيه العظام والأمعاء، الى حد انهم كانوا يفجرون الديناميت في كل وقت ابعاداً للجوارح المنفضة لئلا تنفخ أعين الضيوف!..

ولقد أصبح أوريليانو الثاني بديناً، مورد الوجه، مكوراً كسلحفاة بحرية بسبب شهيته التي لا يباريه فيها أحد... بل إن شهرته كمضيف كبير ومبلر أكبر تجاوزت حدود اقليم المستنقعات. واجتذبت الى دار عشيقته الأكرلين من الاقاليم الساحلية، فتوافد مشاهيرهم الى الدار للمساهمة في تلك الولائم الخرافية التي كانت تدور فيها المباريات بينهم، كان فيها أوريليانو الثاني الفارس المجلي والأكول الذي لا يشق له غبار... وظل الحال كذلك الى أن جاءت الساعة المحتومة التي أصيب فيها أوريليانو الثاني بتخمة عاتية أفقدته الوعي وبدأ أنه ملق حثفه بسببها... ولم يتمالك في بارقة صحو عابرة ان غمغم:

- خذوني الى فرناندا...

وهكذا حمّله اصحابه الى البيت الكبير طناً منهم بأنهم قد ساعدوه على تحقيق وعده لزوجته بالألموت في فراش عشيقته... وبادرت بيترا كوتيس الى «تلميع» حدائه الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته، واخذت تفكر فيمن ترسله بالحذاء، عندما جاءوها ليقولوا إنه نجا من الخطر... والواقع أنه ثاب من غاشية التخمة في أقل من اسبوع، وبعد اسبوعين كان يحتفل بنجاته من الموت بولائم لم يسبق لها مثيل... واستمر يعيش مع بيترا كوتيس، بيد أنه كان يزور فرناندا كل يوم، وكان أحياناً يبقى ليأكل مع الاسرة، وكان القدر قد عكس الموقف، وجعله زوج العشيقة، وعشيق الزوجة!...

كان ذلك بمثابة راحة لفرناندا... وفي غمرة الملل اثناء هذا الهجر، كانت تسليتها الوحيدة دروس «الكلافيكورد» وقت القيلولة والرسائل التي

كانت تكتبها لولدها وإبنتها... والحق ان جميع الرسائل المطولة التي كانت تبعث بها كل اسبوعين لم تتضمن سطرا واحدا يتطوي على الصديق... فقد حرصت على اخفاء متاعبها عن ولديها... وكانت تهيم وحدها بين الاشباح الثلاثة الحية في البيت الكبير وشيخ «جوزيه اركاديو بونديا» مؤسس الأسرة الراحل والذي كانت اورسولا كثيرا ما تعرج على مكانه تحت شجرة الكستلة تحدث وتلتجي وتتفنى متاعبها وأحزانتها وكأنه لا يزال على قيد الحياة!..

وكان اشد ما يقلق فرناندا في سنوات الهجر تلك هو خشيتها من عودة «ميم» في إجازتها السنوية الاولى فلا تجد أبلاها أوريليانو الثاني في البيت... ولكن الوعكة التي نزلت به وضعت حدا لهذا التخوف... فعندما رجعت «ميم» كان الاتفاق قد تم بين الاثنين على أن يكون أوريليانو الثاني موجودا في البيت كنزج مثالي، وعلى ألا تلاحظ العيبة شيئا عن علام كالن أوريليانو الكأبة المخيمة على البيت... وعلى مدار شهرين من كل عام كان أوريليانو الثاني يقوم بخير قيام يدور هذا الزوج المثالي، ويقيم حفلات لها تقدم فيها الحلوى ويدور فيها عزف «الكلافيكورد»... وقد بدا جليا منذ ذلك الحين أن العيبة لم يخلطها ذلك المزاج الانطوائي الذي كان طابع الأسرة وأنها على وثلم مع دنياها بغير عقد ولا اشجان، وقد تجلى هذا في عكوفها على «الكلافيكورد» في قسرة القيلولة تسلرب عليه وعلى ترحيبها بصحبة الشباب الذين كان مقدمها يجيء بهم الى البيت الأمر الذي كان يوحي بأنها لم تكن بعيدة عن التطبع بطباع والدها المنسطة السخية... وكانت أول علامة على هذا الميراث المحفوف بالكواوت هو قدومها الى البيت الكبير في إجازتها السنوية الثالثة برفقة اربع راهبات واربعين من زيلاتها في الدوامة اللاتي دعتهن من تلقاء نفسها الى قضاء اسبوع مع أسرته ودون سابق احتفال!...

إن فرناندا لم تتمالك إن هتفت نائحة :

- يا للفضاعة !.. إن هذه الطفلة همجية مثل أبيها !..

ولم يكن هناك مفر من اقتراض أسرة وأراجيح نوم من الجيران. وتخصيص تسع نوبات للجلوس الى مائدة الطعام، وتحديد مواعيد للاستحمام، واقتراض اربعين مقعداً خشبياً صغيراً حتى لا تقضي الفتيات طوال نهارهن وهن يجربن من مكان الى مكان... كانت هذه الزيارة في الواقع فشلاً ذريعاً، لأن التلميذات الصاخبات كن لا يفرغن من طعام الافطار حتى تتخذ الاستعدادات لطعام الغداء، ثم للعشاء، وفي مدى الاسبوع كله لم يتسع لهن الوقت لزيارة مزارع الموز سوى مرة واحدة... وعند حلول الليل كانت الراهبات يغلبهن الإعياء ويعجزن عن كل أمر أو نهى، في حين تبقى الفتيات المتوثبات في الحوش يرددن الاناشيد المدرسية بنغم كله نشاز... وذات مرة كدن يدسن أورسولا بأقدامهن لاعتراضها الطريق وهي تظن في ظلمة بصرها أنها تخدم وتفيد... ومرة اخرى كادت أمارانتا ان تثير الفزع عندما دخلت احدى الراهبات عليها في المطبخ وهي تضع الملح في الحساء، وكان أول ما خطر لها أن تقوله هو السؤال عن نوع ذلك المسحوق الأبيض الذي تضعه، فردت أمارانتا بكلمة واحدة :

- زرنينخ !..

وعلى الرغم من ان بعضهن اصبن بالحمى وبلذعة البعوض، الا انهن أبدين روح الجلد الوافر وهن يقاومن اشد المصاعب. وحتى في خلال فترات الحر الملهب كن يلهون ويتواثبن في الحديقة... وعند رحيلهن في النهاية كانت الزهور مقطوعة، والأثاث مكسوراً، والحوائط مغطاة بالرسوم والكتابة، غير أن فرناندا سامحتهن بعد ارتياحها للرحيل...

وفي خلال تلك الايام عاد «جوزيه اركاديو» الثاني الشقيق التوأم لرب

البيت الى الظهور فيه . . . لقد دلف في المدخل دون أن يتندر احدا بتحية، واعتكف على الاثر مع الكولونيل اوريليانو بوينديا في مسبك المعادن . . . ولم يكن هذا التصرف مثار دهشة اورسولا عندما عرفت بحضوره من وقع خطى حذائه العمالي الثقيل، وهي التي عهدته متنائيا عن الاسرة، مختلفا عن اخيه التوأم اوريليانو الثاني على الرغم من تشابه اطوارهما في الصغر وبلبلة أفكار الاسرة والجيران بما كانا يقومان به من الخدع والاحابيل الماكرة التي يولدها هذا التشابه . . . كان الان مختلفا عن اخيه تماما، ادنى الى النحول والجد والسهرم والوجوم . . . ولم يكن احد يعرف الان دقائق حياته . . . وفي فترة ما عرف انه ليس له مقر معين، وأنه يربي ديوك المصارعة في بيت بيلار تيرنيرا حيث ينام لديها احيانا . . . ولكنه كان يمضي اكثر ليلاته منتقلا من مكان الى مكان، دون أن تربطه مودة بأحد، ودون ما أي هدف محدد، وكأنه نجم شارد في نظام اورسولا الكوكبي . . .

ولقد حاولت أورسولا ان تستعين بجوزيه اركاديو الثاني لحمل الكولونيل اوريليانو بوينديا على الخروج من حبسه الاختياري في المسبك، وفي هذا قالت له :

- اجعله يذهب الى السينما . . . وحتى اذا كان لا يحبها، فعلى الأقل سوف يتنفس بعض الهواء النقي ! . . .

لكنها لم تلبث ان ايقنت انه مثل الكولونيل تماما، لا يعيرها أدناً صاغية، وأن كليهما قد صيغ من معدن واحد لا تنفذ منه خوالج المودة والتآلف . . . وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرف لا هي ولا غيرها كنه تلك الاحاديث التي يتبادلانها في المسبك، الا أنها قدرت انها العضوان الوحيدان في الاسرة اللذان يبدوان بينهما رابطة وثيقة . . .

وحل اليوم الحادي عشر من اكتوبر والكولونيل لا ينسى هذا اليوم

ماعاش، اذ هو اليوم الذي استيقظ فيه من نومه فوجد زوجته ريميدوس قد فارقت الحياة فجأة وتركت له مراة الذكريات... ولكن «جوزيه اركاديو» الثاني لم يحضر للقائه في المسبك كعادته اخيرا، ثم تذكر انه يوم دفع الاجور في مزارع شركة الموز. ثم بدا له ان يذهب الى الحمام، فوجد امارانتا قد سبقته اليه.. فعكف في المسبك على صنع اسماكه الذهبية، حتى اذا كانت الساعة الرابعة سمع موسيقى بعيدة صادرة عن آلات نحاسية وطبول مقترنة بصياح اطفال، ولأول مرة منذ شبابه وقع في حنين الذكريات عندما تذكر بعض ظهر ذلك اليوم الذي صحبه فيه أبوه الى مضارب «الفجر» للفرجة الى ألعابها وغرائبهم... وفي هذه اللحظة تركت سائتا صوفيا بيدال ما كان بيدها في المطبخ وجرت الى الباب قائلة :

- هذا هو السيرك !..

ومن عجب ان الكولونيل اوريليانو بوينديا ذهب هو ايضا الى الشارع واختلط بالمتفرجين الذين كانوا يراقبون مرور الموكب فرأى امرأة مرتدية ملابس موشاة بالذهب جالسة على رأس فيل... ورأى دبا في زي فتاة هولندية يواكب نغمات الموسيقى بمغرفة وإناء حساء... ورأى «البهلوانات» يدورون في الهواء في آخر الموكب... ومرة اخرى ألغى نفسه في وحدته المطبقة بعد أن مر الموكب كله ولم يبق أمامه سوى الشارع المهجور الا من بعض المتفرجين المتسكعين... فعاد الى الداخل وقصد الى الحوش للتبول تحت شجرة الكستناء، وفي خلال ذلك حاول أن يستعيد ذكرى السيرك ولكنه لم يستطيع... فجلس واضعاً رأسه بين كتفيه مثل كتكوت، وظل جامدا في مكانه مسندا رأسه الى جذع الشجرة... ولم تعثر عليه الاسرة الا في صباح اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة، عندما خرجت سائتا صوفيا بيدال لإلقاء الفاتحة فاسترعى نظرها مشهد الجوارح المحلقة فوقه..

الفصل الثالث عشر

تصادف وقوع اجازة «ميم» الاخيرة في فترة الحداد على الكولونيل اوريليانو بوينديا، فإن البيت الموصد الابواب والنوافذ ليس بالمكان الملائم لإقامة الحفلات... كانوا يتكلمون همسا، ويأكلون سكوتا، ويرددون الصلوات والادعية ثلاث مرات يوميا... وكانت فرناندا هي التي فرضت صرامة الحداد، متأثرة بما أبدته الحكومة من تكريم لذكرى عدوها الراحل... وعاد اوريليانو الثاني للنوم في البيت الكبير اثناء اجازة ابنته، ولا بد أن فرناندا قد اوفت بمقتضيات الزوجية، اذ وجدت «ميم» في العام التالي اختاً لها وليدة تم تسميتها وتسميتها على خلاف رغبة فرناندا باسم «أمارانتا اورسولا»...

لقد أتمت «ميم» دراستها ونالت دبلوما يقرر أنها عازقة «كلافيكورد» متخصصة في حفل رسمي اقترن بانتهاء فترة الحداد، وكان ذلك ايدانا باختتام مرحلة الطفولة وانتقالها الى مرحلة الشباب... أما الحقيقة فإن «ميم» التي كانت تعاني الامرين من تزمتم امها وتحكمها في كل تصرفاتها والتي كانت في دخیلتها مطبوعة على حب المرح والانطلاق، لم تختار هذا التخصص الا استرضاء للام، خصوصا وان الراهبات لم يمنعه باعتباره ملهة بريئة مورثة من الماضي... وفعلًا كان ذلك ثمنًا لحريتها المنشودة، اذ أصبحت فرناندا مزهوة ببراعة ابنتها في العزف حتى لم تعد تمنع بعد انتهاء فترة الحداد في استقدام صديقات «ميم» الى البيت وفي قضائها معهن لفترة بعد الظهر في المروج والبساتين، وفي ارتياد السينما مع ابها اوريليانو الثاني وبعض السيدات الفضيلات طالما كان الفيلم المعروض مما يجيزه الأب

انطونيوايزابيل... وفي خلال فترات الاسترواح هذه تكشف مبول «ميم» على حقيقتها... اذ كانت سعادتها قائمة على النقيض من تطرف أمها وأنظمتها الصارمة : على الحفلات الصاخبة، والثرثرة بأحاديث العشاق، والخلوات الطويلة مع صاحباتها حيث تعلمن التدخين، وحيث امتدت ايديهن الى شراب مسكر من عصير القصب أفضى بهن الى التجرد من الملابس واستعراض اعضاء الجسد في تلك الخلوات...

إن «ميم» لن تنسى قط تلك الليلة التي عادت فيها الى البيت بعد قضاء ساعتين مشهودتين في مخدع صديقتها تضحكان بلا حساب وتذرفان الدمع من الخوف، لتجد فرناندا وأمارانتا تتناولان طعام العشاء دون تبادل للكلام... لقد راعها مشهدهما ذاك حتى بذلت جهدا كبيرا لئلا تصارحهما بحقيقة شعورها حيالهما وتقدف في وجهيهما تزمتهما وفقر مشاعرهما وأوهام عظمتهم المصطنعة... والواقع ان «ميم» عرفت منذ ثانية اجازة لها أن اباهما يقيم في البيت الكبير سترًا للظواهر فقط... ولمعرفتها بأطوار امها، فقد بدا لها ان أباهما محق في مسلكه... ولم تتمالك في جلستها هذه الى المائدة ورأسها يدور مما شربته ان بدرت منها ابتسامة خبث ودهاء اذ فكرت في مدى الفضيحة التي كانت تحدث لو أنها صارحت الاثنتين بحقيقة خواطرها... وإذا فرناندا التي فطنت لحالها تقول لها :

- ماذا جرى ؟ ..

فأجابت «ميم» :

- لا شيء... اكتشفت الان فقط الى اي حد احبكما !...

إن امارانتا قد ريعت مما انطوى عليه هذا التصريح من كره دفين... أما فرناندا التي تأثرت به فقد كان جزعها هذه الليلة لا حدود له عندما استيقظت «ميم» في منتصف الليل وهي تشكو من صداع حاد عنيف وقد

في القيء... فسارعت الى اعطائها زيت خروج ووضعت
ت « على معدتها ومكعبات ثلج على رأسها، وألزمته الفراش مدى
يام كانت تقتصر في خلالها على الغذاء الذي وضعه الطبيب الفرنسي
الوافد والذي قرر بعد الفحص مدى ساعتين انها تشكو من داء غير معهود في
امراض النساء... ولم يكن أمام «ميم» التي انهارت كل شجاعة كانت
عندها الا ان تصمد الى النهاية... الا اورسولا التي كانت رغم عماها
المطبق محتفظة بحيويتها وشفافيتها... فهي وحدها التي عرفت حقيقة
التشخيص، اذ قالت :

- بقدر ما يصل اليه علمي، فان هذا هو ما يحدث للسكرارى...

ورغم ذلك فإنها نبذت هذه الفكرة، بل انبت نفسها للتفكير فيها...
أما اوريليانو الثاني فقد شعر بوخز الضمير عندما رأى حالة ابنته، وأخذ على
نفسه عهدا بأن يوليها رعايته في المستقبل. وهكذا كانت بداية تلك الصبحة
الودودة بين الاب والابنة، تلك التي خلصته الى حين من اثقال مجونياته،
وكفلت للفتاة ان تتحرر من عين فرناندا الدائمة اليقظة، ودرأت عنهم جميعا
تلك الازمات العائلية التي كان محتما ان تحدث في المستقبل... فكان
يصحبها الى السينما او السيرك، وأخرجها من غرفة نومها الكالحة التي كانت
حبيسة فيها منذ أول طفولتها، وأعد لها غرفة نوم اخرى وثيرة الاثاث مزودة
بكل ادوات التجميل والعطور للمرأة العصرية... ولقد روعت فرناندا حقا
عندما شاهدت هذا المخدع، بيد أنها كانت موزعة الجهد في تلك الايام بين
رعاية طفلتها الوليدة «أمارانتا اورسولا» وبين اطباء خارج ماكوندو كانت
تراسلهم سرا لاستشارتهم في امور صحية تعنيها...

وهكذا فإنها عندما لمست هذا التواطؤ وهذا التوافق بين الاب والابنة،
كان الوعد الوحيد الذي استخلصته منه هو ألا يأخذ «ميم» أبدا الى دار بيترا
كوتيس... ولم يكن لهذا من موجب، لأن العشيقة كانت في ضيق واستياء

من هذه الصحبة بين عشيقها وابنته بحيث لم تكن تريد أن يكون لها شأن بالفتاة... ولكن لعلها بطبيعة اوريليانو الثاني وفرط ثقتها في مبلغ سلطاتها عليه، فإنها لم تنفذ ما كان يشاء من اعادة صندوقي ملابسه المتجولين الى البيت الكبير، واستبقتهما لديها الى حين يعود اليها مستكيناً منزلاً...

وكان بين صديقات «ميم» ثلاث فتيات امريكيات نشأت صداقة بينهن وبين فتيات ماكوندو... وكانت احدهن باتريشيا براون ابنة مستر براون من مدبري شركة مزارع الموز، الذي اعرب عن امتنانه لما لقيه من كرم الضيافة في بيت اوريليانو الثاني، بدعوة «ميم» الى دارة للمشاركة في الحفلات الراقصة أيام الاحاد، وهو المكان الوحيد الذي يختلط فيه الاجانب الوافدون بالاهلين... ولكن ما أن سمعت فرناندا بهذا حتى هاجت وماجت واستنجدت بأورسولا لولا أن هذه رأت، بعكس ما كانت فرناندا تتوقع، انه لا تأخذ على «ميم» في الذهاب الى الحفلات الراقصة الخاصة هذه ومصاحبة فتيات امريكيات من سنها... بل إن «ميم» خصصت حفلاً عزفت فيه على «الكلافيكورد» فاستأثرت بأشد الاعجاب، مما هيا للام ان تهدأ في النهاية وتطيب خاطراً... وبعدها كانت تدعى الى حفلات السباحة أيام الاحاد وتناول الغداء مرة في الأسبوع. وقد أبدت براعة في السباحة ولعب التنس وتعلم اللغة الانجليزية، حتى أن اوريليانو الثاني ابتاع لها دائرة معارف انجليزية معسورة من ستة اجزاء كانت «ميم» تطلع عليها في وقت فراغها - الأمر الذي باعد بينها وبين الخلوات الماضية مع صاحباتها للثرثرة بأحاديث العشاق ومكاشفة بعضهن البعض بما لا يباح... بل إنها استنكرت مضامرة السكر الماضية وعدتها من قبيل الطفوليات ولم تتردد في مكاشفة والدها بها، فأغرق في الضحك وامتدح شجاعته في الصدق، وطلب منها وعداً بأن تخبره يوم أن تقع في الحب بنفس الصراحة والصدق هذين...

هكذا رد نضج «ميم» الوثام والسكينة الى البيت الكبير، ويمكن

اوريليانو الثاني من أن يكرس وقتنا اكثر لبيترا كوتيس، وإن غدا الان اكثر اعتدالا بعد الوعكة الصحية التي ألمت به . . .

ثم قطع هذه السكينة وفاة امارانتا فجأة . . . وسرعان ما عاد الاضطراب الى البيت الكبير . . . وكانت «ميم» تعزف «الكلافيكورد» في حفل خاص خارجي عندما أبلغت النبأ، فقطعت الحفل وعادت بسرعة الى البيت، لتجد والدها اوريليانو الثاني يشق طريقه بين جمهور المعزين ليلقي نظرة على جثة العذراء المعجوز بوجهها الممتنع الكالح ويدها المعصوبة بالسواد منذ مغامرتها البغرامية الفاشلة إثر انتحار بشرو كريسي، وقد سجيت في الفراش ملفوفة في الكفن الفاخر الذي تأنقت في اعداده . . .

ولم تعد اورسولا تقوم من مكانها مرة اخرى بعد أيام الحداد التسعة، وتولت سانتا صوفيا بيدال العناية بها . . . وكانت متعلقة بأمارانتا اورسولا الصغيرة حتى علمتها القراءة . . . وفي اعتكافها هذا الذي فرضته المائة عام ونيف من عمرها، تيسر لها من الفراغ ما اصبح يمكنها من التسمع والإحاطة بكل ما يدور في البيت، حتى كسأت أول من لاحظ بلوى «ميم» الصامتة . . . فاستدعتها اليها وقالت لها :

- نحن الان وحدنا، فاعترفي لجذتك الكبرى المعجوز بما يقلقك . . .

فتحاشت «ميم» الحديث بضحكة قصيرة . . . ولم تلح عليها اورسولا، ولكنها استخلصت ما اكده شكوكها بعد ان كفت «ميم» عن زيارتها . . . كانت تعرف أن «ميم» تستيقظ في ساعة ابكر في الصباح من عاداتها، وأنها لم تكن على استقرار وهي تنتظر ساعة الخروج المعهودة، وأنها كانت تمضي الليالي بطولها وهي تروح وتجيء في غرفة النوم المجاورة . . . وكان واضحا كل الوضوح ان «ميم» كانت منغمسة في شؤون خفية وأمور مقلقة قبل فترة طويلة من تلك الليلة التي اقامت فيها فرناندا البيت وأقعدته بعد أن ضبطتها تقبل رجلا في السينما . . .

والواقع أن فرناندا رغم انشغالها بشؤونها الخاصة والبيتية لم تلبث هي
الآخرى ان استرعى انتباهها انحياز «ميم» الى الصمت العميق، وبوادر
الحدة الفجائية، واختلال المزاج، والسلوك المتناقض من جانب فتاتها،
حتى قررت في النهاية ان تسهر عليها وتراقبها سرا. . . وقد توسلت في هذا
بالحذر حتى لقد تركتها تمارس حريتها المحدودة في الاختلاف الى حفلات
الرقص والسباحة لكي لا تثير ارتياها. . . الى أن كانت ليلة قالت فيها
«ميم» انها ذاهبة الى السينما مع أبيها. . . ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى
سمعت فرناندا صخب احدى الحفلات التي درج زوجها اوريليانو الثاني
على إقامتها في بيت عشيقته بيترا كوتيس مقترنة بنصف الالعاب النارية
وعزف الأكورديون. . . وسرعان ما قامت فرناندا الى ملابسها وقصصت من
فورها الى دار السينما، واستطاعت في ظلام المقاعد ان تعرف ضحك
ابنتها. . . إن وقع المفاجأة على نفسها حال دون أن تتبين الرجل الذي كانت
ابنتها تقبله، ولكن صوته المتهدج سرى الى سمعها رغم جلبة الضحك
واللغظ وهو يقول لها :

- أنا أسف يا حبيبي ! . . .

وفي الحال انتزعت «ميم» من مكانها دون أن تقول شيئا، وعرضتها
لمهانة المرور بها في الشارع تحت انظار اصحاب الدكاكين، ثم حبستها في
غرفة نومها. . .

وفي الساعة السادسة من بعد ظهر اليوم التالي عرفت فرناندا صوت
الرجل الذي جاء لزيارة «ميم». . . كان شاباً اسمر شاحباً، تشف عيناه
السوداوان عن الاكتئاب، وتشيع في وجهه سمات حالمة تكفي لكي تجعل
أية امرأة اقل صلابة من فرناندا تفهم بواعث ابنتها في التعلق به. . . وكان
يرتدي بذلة رثة من التيل وحذاء لم يفلح الطلاء المتراكم في اخفاء ترقيعه،
وقيعة من الخوص اشتراها منذ عهد قريب. . . وبدا أنه في كل حياته الماضية

لم يشعر بوجل ورهبة كاللذين كان يشعر بهما في هذه اللحظة، ولكن كان به من الكرامة والاعتداد ما نفى عنه المهانة، وإن نال منهما ما بدا من تلوث يديه وأظافره بآثار قدرت منها فرناندا انه ليس اكثر من ميكانيكي... وقد صح ظنها اذ لمحت في صدر قميصه شارة العاملين في شركة الموز...

ومهما يكن فإن فرناندا لم تدع له فرصة للكلام... بل إنها لم تدع له سبيلاً حتى للدخول من الباب الذي اضطرت بعد قليل الى اغلاقه اذ امتلأ البيت بفراش اصفر...
قالت له :

- اذهب... لا حق لك في الحضور وزيارة الناس الشرفاء!..

كان يدعى موريشيو بابلونيا... ولد ونشأ في ماكوندو وعمل مساعد ميكانيكي في جراجات شركة زراعة الموز... وقد التقت به «ميم» مصادفة عصر يوم عندما ذهبت مع صاحبته باتريشيا الاميركية لاستحضار سيارتها للنزهة بين البساتين... ولما كان السائق الخاص مريضاً فقد تهيأت الفرصة لميم لجلوسها الى جانب موريشيو بابلونيا وتلقي الدرس الاول في تعليمها قيادة السيارات... ثم تلته دروس اخرى...

ويوم أن ذهبت «ميم» الى السينما مع والدها شاهدت موريشيو بابلونيا جالسا في مقعد غير بعيد، ولاحظت انه ظل طول الوقت منصرفاً عن متابعة الفيلم، متجها بكليته نحوها...

لقد صعبها هذا الشاب واكتسح قلبها اكتساحاً... ولم تعباً بوضعه المتواضع... وتكررت لقاءاتهما بمعزل عن أعين الرقباء... وانما استرعى نظرها تلك الفراشات الصفراء التي كانت تحلق لدى ظهور موريشيو بابلونيا، ولكنها قدرت أن لها ارتباطاً به على نحو ما...

وتكررت اللقاءات، والخلوات، على مدار الايام والاسباع، الى ان

كانت تلك الليلة التي فاجأتهما فرناندا فيها في دار السينما . . .

في أعقابها شعر اوريليانو الثاني بوقر باهظ يثقل ضميره، وزار «ميم» في غرفة نومها حيث حبستها فرناندا، واثقا أن «ميم» سوف تكاشفه بسرها على ما تعاهدا عليه . . . بيد أنها أنكرت كل شيء وأبدت من التباعد ما جعله يرى أن كل رابطة بينهما قد انتهت وأن ما حسبه صحبة ومشاركة بينهما إنما كان وهمًا مضى . . . وهكذا ترك الموقف كما هو، على أمل أن احتجازها في غرفة النوم سوف يكون فيه ختام متاعبها . . .

ولم يسدر من ناحية «ميم» ما ينم عن أي ابتساس . . . وكان الشيء الوحيد الذي حير اورسولا بعد شهرين من العقاب هو أن «ميم» لم تعد تأخذ الحمام في الصباح مثل الباقيين، بل في السابعة مساء . . . وكانت الظاهرة الغريبة هي أن الفراش الأصفر كان يجتاح البيت عند الأصيل . . . وفي كل ليلة عندما كانت «ميم» تعود من الحمام كانت ترى فرناندا في حالة حنق وهي تقتل الفراش بميد حشري . . . وكانت تسمعها تقول :

- هذا شيء فظيع ! . . . سمعتم طول حياتي يقولون أن الفراش في الليل، يجلب الشر ! . . .

وذاث ليلة دخلت فرناندا الى غرفة «ميم» بينما كانت في الحمام فوجدتها مملوءة بالفراش الى حد عجزت معه عن التنفس . . . فاختطفت اقرب قطعة قماش أمامها لهش الفراش، وإذا قلبها يكاد يجمد من الرعب، اذ سرعان ما ربطت بين حمامات ابنتها المسائية وبين دواء الإجهاض الذي تدرج من القماش على الأرض . . .

لم تتغفر فرناندا لحظة أخرى . . . وفي اليوم التالي دعت عمدة ماكوندو الجديد لتناول الغداء، وكان مثلها من اقليم المرتفعات وقد طلبت منه ان يقيم حارسا على الحوش الخلفي لشكها في وجود لصوص يسرقون

«دجاج... وفي نفس الليلة صرع الحارس موريشيو بايلونيا برصاصة وهو يرفع البلاط للتسلل الى الحمام حيث كانت «ميم» تنتظره على أحر من الجمر غير عابئة بالعقارب والفراش، كما كانت تفعل كل ليلة طوال الأشهر القليلة الماضية... ان الرصاصة التي استقرت في عموده الفقري أقعدته الفراش بقية حياته... وقد مات بالشيخوخة في عزله دون أن يبوح بشيء، تعذبه الذكريات والفراش الاصفر، مدموغا بأنه لص دجاج...»

الفصل الرابع عشر

إن الأحداث التي كان مقدراً أن توجه إلى ماكوندو ضربة قاصمة لم تلبث أن بدت بواكيرها حينما جيء بمولود « ميم بوينديا » إلى البيت الكبير . . .

كان الموقف الشعبي مزعزعا إلى حد أن الناس لم يكن لديهم الاستعداد الكافي للزج بأنفسهم في فضائح شخصية، وهكذا استطاعت فرناندا أن تعتمد على جو عام مكنها من ابقاء الطفل مخفياً عن العيان وكأنه لم يوجد قط . . . ولقد اضطرت إلى قبوله لأن الظروف التي جيء به فيها جعلت رفضه أمراً مستحيلاً . . . ولم يكن أمامها مناص من احتماله ضد ارادتها طوال حياتها، إذ أعوزتها الشجاعة في اللحظة الفاصلة لتنفيذ ما اعتزمته من اغراق الطفل في صهريج الحمام . . . وكذلك أغلقت عليه الباب في مسبك الكولونيل أوريليانو بوينديا . . . وقد أفلحت في إقناع سانتا صوفيا بيدال بأنها وجدته في سلة طافية في النهر . . . وسوف تموت أورسولا قبل أن تعرف منشأه . . . وصدقت « أمارانتا أورسولا » الصغيرة التي دخلت عليها المسبك وهي تطعم الطفل هي أيضاً حكاية السلة الطافية . . . ولم يعرف أوريليانو الثاني الذي انفصل عن زوجته نهائياً بوجود حفيده إلا بعد ثلاث سنوات من المعجزة به إلى البيت الكبير، إثر فرار الطفل من الأسر نتيجة سهو من جانب فرناندا، حين ظهر في مدخل البيت الكبير مدى لحظة خاطفة عاري الجسد ملبد الشعر كمخلوق متوحش . . . وما كان لفرناندا أن تغالط نفسها وهي تعلم أن الطفل يمثل عاراً حسب أنها تخلصت منه إلى الأبد إذ اقصت ابتها عن البيت . . .

ف عندما حملوا موريثيو بابلونيا من البيت وقد تحطم عموده الفقري ،
ر ضعت فرناندا خطة رتبت تفاصيلها بكل دقة مستهدفة ازالة كل اثر لتلك
الكارثة . . ودون ما استشارة لزوجها حزمت حقائبها ووضعت لإبتها الملابس
الضرورية في حقيبة صغيرة وذهبت اليها في غرفة نومها قبل وصول القطار
بنصف ساعة وقالت لها :

- هيا بنا . . .

لم تبادرها بأي بيان أو تفسير . . . ومن ناحية « ميم » فإنها لم تتوقع غير
هذا . . . انها فقط لم تعرف الى أين تذهبان ، بل كان سائناً لديها لو كانوا
سيدهيون بها الى المجزر . . إنها لم تنف بكلمة واحدة ولن تفوه بكلام مدى
حياتها، منذ اللحظة التي سمعت فيها صوت العيار الناري في الحوش
وصيحة الألم التي اقترنت بها صادرة من موريثيو بابلونيا . . . وعندما أمرتها
أمها بالخروج من غرفة نومها لم تمشط شعرها ولم تغسل وجهها، ودلفت
معها الى القطار وهي تمشي كمن يمشي في نومه، ولم تلاحظ حتى الفراش
الأصفر الذي ما فتى يصاحبها . . . ولم تعرف فرناندا قط ولا حاولت ان
تعرف إن كان ذلك الصمت المطبق وليد تصميم جازم أو ان الفتاة قد أصيبت
بالخرس من وطأة المفاجعة . . . وظل ذلك حالها اثناء الرحلة الطويلة في
القطار وفي السفينة النهرية التي اقلتهما الى تلك المدينة البعيدة القائمة وراء
التلال . . . وغداة وصولهما صحبتها فرناندا الى مبنى قائم عرفت فيه « ميم »
الدير الذي ربيت فيه لكي تصبح ملكة، وعندها فقط أدركت انها وصلتا الى
خاتمة المطاف . . . وبينما كانت فرناندا مجتمعة بشخص في المكتب
المجاور، وقفت « ميم » تنتظر في بهو الاستقبال وهي لا تكف عن التفكير
في موريثيو بابلونيا، الى أن أقبلت راهبة مبتدئة موفورة الحسن من غرفة
المكتب ويدها حقيبة ملابسها الصغيرة، فأخذت بيدها دون توقف قائلة :

- تعالي معي . . .

وكانت آخر مرة رأتها فيها فرناندا وهي تمشي الى جانب الراهبة عندما أغلق الباب الكبير خلفها. . . وفي كل ذلك لم تكف « ميم » لحظة عن التفكير في موريشيو بابيلونيا وهالة الفراش التي تلاحقه، ولن تكف عن هذا التفكير طوال حياتها. . حتى ذلك اليوم البعيد من أيام الخريف عندما توفيت بالشيخوخة وقد تغير اسمها وحلق شعرها ودون ما كلمة واحدة فاهت بها. . في مستشفى قائم بمدينة كراكاو. . .

وعادت فرناندا الى ماکونندو في قطار يحرسه جنود البوليس المسلحون. . . ولاحظت أثناء الرحلة جو التأزم الذي كان يسود الركاب، والاستعدادات العسكرية في البلدان القائمة على طول الطريق، مما استشفت منه قرب وقوع أحداث خطيرة. . بيد أنها لم تعرف حقيقة الموقف إلا عند وصولها الى ماکونندو، حيث علمت ان جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها التوأم يقوم بتحريض عمال شركة زراعة الموز على الإضراب. . . فلم تمالك فرناندا ان قالت لنفسها :

« هذا ما كان يتقصنا. . فوضوي في العائلة ! . .

والواقع ان جوزيه اركاديو الثاني كان بعد المصادمات الأولى بين الشركة الأجنبية وبين العمال المطالبين بتحسين اوضاعهم الاجتماعية قد استقال منها متضماً الى جانب العمال. . . وعلى الأثر انهم بأنه عميل لمؤامرة دولية ضد الأمن القومي. . وذات ليلة في اسبوع اتسم بالشائعات المبليلة للأفكار نجا بمعجزة من اربع رصاصات اطلقها عليه مجهول وهو يغادر احد الاجتماعات السرية. . وكان الجو السائد طيلة الشهور التالية بالغ التأزم الى حد أن أرسولا احست به حتى وهي في ركنها المظلم بالبيت الكبير، وبدا لها أنها تعيش مرة اخرى في حياة المخاطر عندما سلك ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا مثل هذه المسالك المهلكة. . . وقد حاولت ان تكلم جوزيه اركاديو الثاني ناصحة « محذرة » ، غير ان أوريليانو الثاني أخبرها ان احداً اصبح لا

يعرف مكانه منذ الليلة التي تعرض فيها للاعتداء على حياته . . . فما كان من أورسولا إلا أن هتفت قائلة :

- مثل أوريليانو تماما! . . . كأن التاريخ يعيد نفسه! . . .

أما فرناندا فكانت معرضة عن أحداث تلك الأيام . . . فلم يكن لها أي اتصال بالعالم الخارجي منذ تلك المشادة العنيفة التي حدثت بينها وبين زوجها بعد أن قررت وحدها مصير ابنتها بإدخالها الدير . . . وكان أوريليانو الثاني على استعداد لإنقاذ ابنته بمساعدة البوليس إذا لزم الأمر، بيد أن فرناندا أطلعت على أوراق تثبت أن « ميم » دخلت الدير بمحض إرادتها الحرة . . . والواقع أن « ميم » وقعت مرة على وثيقة تتضمن هذا المعنى، وقد فعلت هذا بنفس اللامبالاة التي كانت منها عندما اقتيدت إلى هذا المصير . . . ومع أن أوريليانو الثاني لم يؤمن بمصادقية هذا الإجراء وشرعيته، إلا أنه وجد فيه ما يريح ضميره، لكي يعود دون ما وخز من ضمير إلى حظيرة بيترا كوتيس وإلى لياليه وحفلاته الصاخبة الماجنة . . . وأما فرناندا التي اعادت أذنًا غير صاغية لقلقل البلدة وتنبؤات أورسولا المتوجسة، فلم تلبث أن مضت في خططها الشاملة إلى النهاية، إذ كتبت إلى ابنها « جوزيه أركاديو » البعيد في المدرسة العليا والذي كان يوشك على التخرج في دراساته اللاهوتية تبلغه فيها أن اخته « ميم » قد توفيت إلى رحمة الله نتيجة لعدوى وبائية . . . ثم عهدت بابنتها الصغيرة « أماراتا أورسولا » إلى رعاية سانتا صوفيا بيدال جدتها . . . وبعد ذلك تفرغت لمراسلاتها مع أطبائها الخصوصيين طالبة تحديد موعد لإجراء عملية استئصال لذلك الورم الذي شخصوه في الرحم . . . غير أنهم ردوا عليها مستصوين أرجاء العملية بالنظر إلى حالة الاضطرابات المشتدة في ماكوندو . . . ولكنها عادت تخبرهم في رسالة جديدة أن الموقف ليس بالخطورة التي تصورها، وأن كل ما يحدث هو نتيجة تهوس من جانب شقيق لزوجها تورط في هذه الأعمال بعد أن

كان يضيع وقته في مصارعة الديوك وما الى ذلك من العبث . . .

وظلت الشهور تمضي وفرناندا في هذا التعارض بينها وبين الأطباء الى أن جاء ذلك الارباء الحار الذي أقبلت فيه راهبة مسنة تطرق الباب ومعها سلة صغيرة . . . وعندما فتحت سائنا صوفيا بيدال الباب حسبت القادمة تحمل هدية وحاولت ان تأخذ منها السلة الصغيرة التي كانت مغطاة بمفرش مطرز جميل . . . غير أن الراهبة حالت دونها قائلة إن عندها تعليمات دقيقة بأن تعطي السلة شخصياً وبصورة سرية الى « الدونا فرناندا ديل كاربيو دي بوينديا » . . كان في السلة ابن « ميم » المولود . . . وقد أبلغتها رئيسة الدير ومربيها الروحية السابقة في رسالة خاصة أنه ولد منذ شهرين، وأنهم تصرفوا من تلقاء أنفسهم فسموه أوريليانو، باسم جده، نظراً لأن أمه ثم تفتح فمها لتخبرهم برغبتها في هذا الشأن . . . ولقد ثارت فرناندا في دخيلتها ضد هذه الخدعة القدرية، بيد أنها سيطرت على أعصابها لإخفاء شعورها عن الراهبة، وقالت لها باسمه :

- سنقول لهم إننا وجدناه في سلة طافية في النهر . . .

فقالت الراهبة :

- لن يصدق أحد هذا . . .

فردت فرناندا قائلة :

- اذا كانوا قد صدقوه في الماضي، فلم لا يصدقونه الان ١٩ . .

وتناولت الراهبة طعام الغداء في البيت انتظاراً لعودة القطار. وعملاً بالتوجيهات التي صدرت اليها، لم تذكر شيئاً عن الطفل، ولكن فرناندا عدتها شاهداً غير مرغوب فيه على عاها، وتحسرت على انقراض تلك العادة التي كانت متبعة في العصور الوسطى، من شق الرسول الذي يحمل انباء مشؤومة! . . وعند هذا الحد قررت ان تغرق الطفل في الصهريج حالما ترحل الراهبة، غير أن قلبها لم يكن بهذه القوة، وآثرت ان تنتظر صابرة الى

أن تسنح لها الفرصة المواتية للخلاص منه . . .

وكان أوريليانو الصغير قد أتم العام الأول من عمره عندما اشتدت الأزمة بين العمال وبين شركة زراعة الموز الى حد اعلان الإضراب الذي تطور الى أعمال للعنف وإتلاف للمزارع . . . وبقي الموقف على تأزمه حتى أصدرت السلطات المحلية بيانا دعت فيه العمال الى الاجتماع في ماكوندو للاستماع الى القائد العسكري والمدني للقليم الذي سيصل في اليوم التالي للتوسط في الخلاف الناشب ووضع حد له بما يرضي الفريقين . . .

وكان جوزيه أركاديو الثاني بين الجماهير التي احتشدت في ميدان المحطة والتي قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثة آلاف . . . ولاحظ أن القوات قد حاصرت المكان مزودة بمدافع رشاشة . . . وما أن انتصف النهار حتى سرت شائعات تقول ان القائد قد أجل حضوره الى اليوم التالي . . . وبعدها اعتلى قائد القوة المنصة وأعلن في الميكروفون نص الأمر الصادر من الحاكم العسكري يصف المضربين بأنهم مجموعة من المشاغبين وأنه خول القوات اطلاق النار عليهم اذا لم يبادروا بالتفرق . . .

وفي غمار الهياج والهرج الذي ساد على الأثر لم يستطع احد ان يعرف على وجه التحديد كيف بدأ اطلاق النار وكيف اصبح الميدان كله مساحة اختلط فيها الحابل بالنابل وتدافع الناس في كل مكان يلتمسون النجاة بأنفسهم من وابل الرصاص . . .

وبعدها استمر تعقب زعماء الإضراب واقتناصهم واحداً بعد الآخر . . .

وكان جوزيه أركاديو الثاني إثر افلاته مختبئاً في غرفة مالكويداس عندما طرق الباب ليلاً بكموب البنادق ودخل ستة جنود بقيادة ضابط لتفتيش البيت بحثاً عن الهارب والمطر يقطر من ملابسهم في إبان عاصفة مطيرة استمرت

أياماً وليالي بعد جفاف طويل . . وكان أوريليانو الثاني موجوداً بعد ان عاقه المطر الغزير عن الانتقال الى بيت عشيقته . . . ودون ما كلمة اخذوا يفتشون البيت غرفة غرفة من قاعة الاستقبال الى المطبخ . . . وقد استيقظت أورشولا عندما سلطوا الضوء عليها، فلم تكذب تنفس اثناء عملية التفتيش، وجعلت اصابعها على شكل صليب أخذت توجهه الى حيث كانوا يوالون تفتيش بقية الغرف . . . وفي خلال ذلك استطاعت سانتا صوفيا بيدال تحذير ابنها جوزيه ارКАДيو الثاني حيث كان نائماً في غرفة مالكويداس، بيد أنه رأى أنها جاءت بعد فوات الأوان وأنه يستحيل عليه الهرب . . . وبعد أن أغلقت عليه الباب بالقفل لبس قميصه وحذاءه وجلس على حافة السرير الصغير منتظراً حضورهم . . . وفي تلك اللحظة كانوا يفتشون غرفة المسبك . . . فقد أمر الضابط جنوده برفع القفل وسلط ضوء مصباحه بحركة شاملة في أرجاء الغرفة، ولما رأى الدواليب الزجاجية وزجاجات الأحماض سأل أوريليانو الثاني ان كان يشتغل بسبك المعادن، فأجاب أن هذا مسبك الكولونيل أوريليانو بونديا . . . فهز الضابط رأسه هزة العارف وتناول اناة كان به مجموعة من الاسماك الذهبية الصغيرة، وبعد ان فحصها ملياً قال وقد هزته عاطفة انسانية :

- بدوي ان آخذ واحدة منها اذا أمكن . . . في وقت ما كانت هذه الاسماك رمزاً للعمل السري، أما الآن فهي شيء تذكاري . .

فأعطاه أوريليانو الثاني ما طلب . . . ووضع الضابط السمكة في جيب قميصه قائلاً :

- هذا تذكاري جميل . . . ان الكولونيل أوريليانو بونديا كان واحداً من عظماء رجالنا . . .

ومع ذلك فإن هذه البادرة الانسانية لم تغير من سلوكه الوظيفي وعند

باب غرفة مالكويداس التي أعيد اغلاقها بالقفل حاولت سانتا صوفيا بيدال التعلق بأمل أخير، فقالت :

- لم يسكن أحد في هذه الغرفة منذ عشرات السنين . . .

ولكن الضابط امر بفتحها، وسلط ضوء مصباحه عليها . . وأبصر أوريليانو الثاني وأمه عيني جوزيه أركاديو الثاني في اللحظة التي مر فيها شعاع الضوء على وجهه، وشعرا بأن النهاية قد حانت . . . بيد ان الضابط استمر في فحص الغرفة بالمصباح ولم يبد منه اهتمام بأي شيء . . . وكان جوزيه أركاديو الثاني جالساً على حافة الفراش على إستعداد للذهاب وقد اشتدت على وجهه علامات الرصانة والسهوم . . . ووقف الضابط برهة موجهاً نظره الى الفراغ الذي كانت فيه الأم وابنها يصبران فيه جوزيه أركاديو الثاني وقد أدركا ان الضابط كان ينظر ايضاً دون ان يبصره . . . وما لبث الضابط ان أطفأ المصباح وأغلق الباب، ثم قال لرجاله :

- من الواضح ان احداً لم يكن في هذه الغرفة منذ مائة سنة على الأقل . . . ولا بد ان فيها تعابين ايضاً . . .

منذ هذه اللحظة زاد جوزيه أركاديو الثاني اقتناعاً بأن غرفة مالكويداس هي حصنه الحصين وملاذه من الخوف في العالم الخارجي المضطرب بالقلاقل والحروب، ففي جوها الخارق عمي الضابط عن رؤيته، وفي رحابها بات يشعر بالسكينة والراحة النفسية التي طالما افتقدهما طوال حياته الماضية . . وهكذا كرس جوزيه أركاديو الثاني نفسه للاطلاع على مخطوطات مالكويداس ومحاولة اكتشاف رموزها . . ولقد أصبح صوت سقوط المطر معهوداً في سمعه، وكان الشيء الوحيد الذي يقلق عزلته هو تردد أمه سانتا صوفيا بيدال عليه بالطعام، فطلب منها ان تضعه على حافة النافذة وتعلق الباب بالقفل . . . ثم نسيته العائلة، بما فيها فرناندا التي لم

تمانع في تركه هناك بعد ان وجدت ان الجنود رأوه دون أن يصبروه . . . وبعد ستة أشهر رفع أوريليانو الثاني القفل عن الباب طلباً لشخص يتحدث اليه الى ان ينقطع هطول المطر المتواصل . . . وما كاد يفتح الباب حتى صدمته الروائح المنبعثة من الغرفة ووجد أخاه جوزيه أركاديو الثاني الذي عراه الصلع ما يزال عاكفاً على قراءة المخطوطات ومحاولاً فك طلاسمها في وهج خفي نوراني يتخللها . . . ولم يكذب يرفع عينيه حتى سمع صوت فتح الباب، بيد ان تلك النظرة كانت كافية لكي يعرف فيه اوريليانو الثاني مصير جده الأكبر الذي كان ذلك مآله . . .

كان جوزيه أركاديو الثاني لا يفتأ يردد هذه العبارة :

- كانوا اكثر من ثلاثة آلاف في ميدان المحطة . . . لقد حصدهم الرصاص حصداً، ونقلت جثثهم في القطار حيث ألقى بهم ليلاً في البحر . . .

الفصل الخامس عشر

انهمرت الأمطار في ماكوندو. . . وظلت تنهمر مدى أربع سنوات،
وأحد عشر شهراً، وثلاثة أيام . . .

وكانت تحدث فترات يقل فيها انهمار المطر الى رذاذ، فكان الناس
يخرجون من بيوتهم احتفاء به، ثم لا يلبثون ان يجدوها فترة صحو عابرة
يتضاعف بعدها انهمار المطر. . .

وكانت السماء ترسل عليهم عواصف مدمرة، ومن الجانب الشمالي
كانت تهب اعاصير تنتزع السقوف وتقوض الجدران وتستأصل زراعات الموز
من منابتها. . . وفي البيت الكبير اضطروا الى حفر قنوات لتسريب مياه
الأمطار الى الخارج والعمل على تجفيف الأرضيات تخلصاً من الضفادع
والقواقع المتخلفة، والأسماك أحياناً . . .

وفي خلال ذلك احتبس اوريليانو الثاني في البيت بعد ان كان قد عرج
عليه لبعض شأنه، مؤملاً ان يتحسن الطقس ليعود الى بيت عشيقته بيترا
كوتيس . . .

ومضى عام على هذه الحال تشاغل خلاله بالانهماك في اصلاح ما
أفستده المطر من أبواب ونوافذ البيت وسائر أثاثه دون ان يتوقف انهمار
الأمطار . . .

وفي خلال هذه الفترة وقع ذلك التهاون الذي كان من جرائه ظهور
اوريليانو الصغير في مدخل البيت وما أدى اليه من تصرف جده اوريليانو

الثاني على هويته . . . فقص شعره، وكساه بعد عري، وعلمه ألا يخاف من الناس. وبعد فترة وجيزة بدا واضحاً أنه من سلالة بوينديا بما لا يدع مجالاً لأي شك : بعضام الخدين العالية، وسمات الانطواء والعزلة . . . وكان ذلك مبعث ارتياح فرناندا . . . فلو كانت تعلم ان اوريليانو الثاني سيسلك هذا المسلك وسيسر بصيرورته جداً، لما عرضت نفسها لكل ما تعرضت له من عناء وكرب . . . وأما « أمارانتا أورسولا » الصغيرة التي بدلت أسنانها فقد وجدت في ابن اختها لعبة تلهو بها في مواجهة متاعب الامطار . . . ولم يلبث اوريليانو الثاني ان تذكر دائرة المعارف الانجليزية المصورة التي بقيت سالمة في غرفة « ميم » القديمة . . . فبدأ يطلع الطفلين على الصور، خصوصاً صور الحيوانات، وانتقل من ذلك الى الخرائط وصور الأقطار البعيدة ومشاهير الناس . . . ولما كان لا يعرف اللغة الانجليزية ولم يكن بوسع ان يتعرف الا على المدائن المشهورة وأبرز زعمائها، فقد كان يخترع الأسماء والاساطير اختراعاً لإشباع فضول الطفلين الذي لا يرتوي .

وكانت فرناندا تعلم يقيناً أن زوجها ينتظر تحسن الأحوال الجوية لكي يعود الى معشوقته بيترا كوتيس . . . ومع ذلك لم تتضايق لأن علتها التي كانت تخفيها عن كل انسان وهي تورم. الرحم والتي كانت تراسل بسببها اطباءها الخصوصيين البعيدين عنها، أصبحت حائلاً بينها وبين زوجها . . . والآن وقد أدى استمرار هطول الأمطار الى قطع كل سبل التراسل والاتصال، فلم يكن أمامها سوى الاعتصام بالصبر والانتظار . . .

وزادت الأحوال الجوية سوءاً حتى لم يعد أحد يخرج الى الشارع . . . وبلغ من تشاؤم أورسولا ان قالت إنها لا تنتظر سوى انقطاع الأمطار لكي تقضي نحبها وتستريح . . .

والواقع أن حالة الشوارع ازعجت اوريليانو الثاني، وتزايد انزعاجه

بشأن مواشيه، حتى اضطر أخيراً أن يغطي رأسه بمشع ويذهب الى بيت بيترا كوتيس . . . فوجدها في الحوش غارقة في المياه الى وسطها وهي تحاول تعويم جثة حصان . . . فساعدها بواسطة رافعة حتى أمكن دفع الجثة الى تيار الوحل المتدفق ليحملها بعيداً . . . وكان هم بيترا كوتيس منذ بدأت الامطار هو تطهير الحوش من الحيوانات الميتة . . . وخلال الأسابيع الأولى كانت تبعث برسائل الى أوريليانو الثاني لاتخاذ الاجراءات العاجلة التي يقتضيها الموقف بعد ان زاد تفاقمها، فكان يرد عليها بأنه لا لزوم للعجلة، وان الوقت سيكون متسعاً للتفكير في ما يجب عمله بعد ان ينكشف الجو . وكان مما قالته ان مراعي الخيل قد غمرتها المياه، وان المواشي تهرب الى المناطق المرتفعة حيث لا يوجد ما تأكله وحيث تكون تحت رحمة الوحوش والامراض . . . والواقع ان بيترا كوتيس كانت ترى الحيوانات تنفق جماعات، وكانت تعمد الى ذبح بعضها وهي غارقة في السحور . . . بل رأت وهي عاجزة عن أي فعل ان الفيضان كان يستأصل بكل قسوة ثروة كانت معدودة في وقت من الاوقات اصخم ثروة في ماكوندو، ثم ذهبت بدداً . . . وعندما قرر أوريليانو الثاني في النهاية أن يذهب اليها ليرى ما هو حادث، لم يجد سوى جثة حصان وبغل قذر في الإسفل . . . ولما رآته بيترا كوتيس تلقته بنظرة لا هي نظرة دهشة أو فرحة أو استياء، وابتسمت سخرية قائلة :

- جئت في وقتك . . .

لقد تقدمت بها السن، وبدت كتلة عظام وجلد، وغدت عينها الوحشيتان مستأنستين مكتئبتين بطول النظر الى الامطار . . . ولبث أوريليانو الثاني في بيتها أكثر من ثلاثة أشهر، لا لأن المقام فيه كان أفضل من بيت اسرته، ولكن لأنه احتاج الى كل هذه المدة لكي يحزم امره ويضع قطعة الشمع الواقية فوق رأسه مرة اخرى . . . وخلال الاسبوع الأول من اقامته اعتاد ما فعلته الأمطار والزمن بمحاسن عشيقته، شيئاً فشيئاً غدا يراها كما

كانت تبدوله في ماضي ايامها المليئة بالمغريات، ولكنها صدته عنها برفق،
مذكرة اياه بما فعلت بهما الايام والسنون، مما لا يدع مجالاً لأي عبث أو
فتون ...

وعاد أوريليانو الثاني الى البيت الكبير مع حقائب ملابسه وقد اقتنع بأنه
ليست فقط أورسولا هي التي كانت تنتظر انقطاع الأمطار لكي تموت، بل كل
سكان ماكوندو. . . فقد أبصرهم في الطرقات جائعين في ردهات بيوتهم
بأذرع مشبكة وأعين محدقة في الأمطار التي لا تنقطع، حتى ما عاد لتعاقب
الأيام والأسابيع والشهور حساب عندهم. . . ولكن الطفلين تلقيا عودته
بالاحتفال والفرح، ومرة أخرى كان يصحبهما الى غرفة « ميم » ليريهما دائرة
المعارف الانجليزية المصورة ويلاعبهما باللعب المتخلفة في الغرفة. . .
وظلت الايام تمضي على هذه الوتيرة الى ان جاء يوم قالت له فيه زوجته
فرناندا إنه لم يبق في « الكرار » من القوت إلا ثلاثة أرطال من اللحم المقدد
وكيس أرز واحد. . . فقال لها :

- وماذا تريدني مني أن أفعل من أجل هذا ؟ . .

فردت فرناندا قائلة :

- لا أعرف. . . هذا اختصاص الرجال . . .

فقال أوريليانو الثاني :

- لا بأس. . . سنفعل ما يمكن عندما يتكشف الجو. . .

كان أوريليانو الثاني اكثر اهتماماً بدائرة المعارف المصورة منه بالشؤون
المعيشية، حتى عندما راض نفسه على الاكتفاء بمزقة لحم وقليل من الأرز
في طعام الغداء. . . وكان يقول لزوجته :

- لا يمكن ان تستمر الأمطار الى آخر حياتنا. . . أما الآن فيستحيل
عمل أي شيء ! . .

وبقدر ما كان رصيد «الكرار» يتناقص ويتضاءل، كان احتياج فرناندا يشتد ويتزايد، الى ان تفجرت غضبتها المكظومة حتى صارت كالسيل الدافق، اذ بدأت ثورتها العارمة في الصباح وامتدت طيلة النهار وهي تدور في أرجاء البيت شاكية انهم ربوها في بيت أبويها كملكة لكي تصبح في النهاية خادمة في بيت مجانيين مخبولين، مع زوج كسول عريد يستلقي على ظهره انتظاراً لخبز ينزل عليه من السماء، بينما تكده هي وتكدح طول النهار لتدبير شؤون بيت مفكك الأوصال لا صلاح لأمره...

أما أوريليانو الثاني فقد ظل يستمع الى هديرها الساعات وهو جامد الملامح وكأنه أصم... ولم يرد عليها ولم يقاطعها حتى كاد النهار ان ينصرم، وعندها لم يطق صبراً، قال لها :
- أرجوك أن تسكتي!..

ولكن فرناندا بالعكس زاد صوتها ارتفاعاً قائلة :
- لا سبب يدعوني الى السكوت!.. من لا يريد ان يسمعني فليذهب الى أي مكان آخر!...

عندئذ فقد أوريليانو الثاني كل سيطرة على اعصابه، وفي سورة الاحتدام التي تملكته راح يحطم أصص الزهور والأطباق والكؤوس وكل ما يمكن تحطيمه، حتى تناثر الحطام في كل مكان... بل امتدت سوره الى الصور الزيتية المعلقة فمزقها تمزيقاً، والى أواني المطبخ فهشمها تهشماً... ثم غسل يديه، وألقى قطعة الشمع الواقية على رأسه وخرج... وقبل منتصف الليل عاد ومعه مزق من اللحم المقدد، وبعض أكياس الأرز والقمح، وعنقود موز أعجف... وبعدها لم يعد البيت يشكو نقصاً في القوت...

وفي خلال ذلك كان الصغيران امارانتا وأورسولا وأوريليانو يتذكران

الأمطار كشيء جالب للبهجة . . وعلى الرغم من صرامة فرناندا فإنهما كانا يلهوان بفقايع المياه في الحوش ويقتنصان السحالي ويقومان بتشريحها بدعوى أنها تعمل على تسميم الحساء بالغبار الذي تنشره اجنحة الفراش، وذلك في غفلة من فرناندا وسانتا صوفيا بيدال . .

وكانت أورسولا هي لعبتهما المفضلة . . . كانا ينظران إليها على انها « عروس » كبيرة مكسورة ينقلانها من مكان الى آخر . . . وكادا مرة أن يبقأ عينيها بمقص تقليد الزهور كما كانا يفعلان بالضفادع . . وما كان لشيء ان يستهويهما ويمتعهما سوى شطحات شرود العقل التي كانت تلم بها في العام الثالث من تساقط الأمطار المستمر، وفيها كانت تفقد الإحساس بالواقع وتخلط الزمن الحاضر بعهود حياتها الماضية، اذ يمضي الوقت وهي تبكي أقرباء لها ماتوا منذ أزمان غابرة، وتحسب الحفيدين أبناءها المغيبين تحت الثرى . . ثم كانت تعود الى الصحو والرشد فتذكر رجلاً جاء الى البيت الكبير يتمثال للقديس يوسف طالباً حفظه الى أن ينقطع المطر فيعود لاسترداده . . فكان من جراء ذلك ان تذكر أوريليانو الثاني الثروة المدفونة في مكان لا يعرفه سوى أورسولا، ولكن كل ما توصل به من الاسئلة والمناورات لم يفلح في استدراجها الى البوح بالسر، اذ إنها برغم خيالها قد بقيت لها بارقة تعقل جعلتها تحرص على الاحتفاظ بالسر الا للرجل الذي يقدم الدليل على أنه هو صاحب الكنز الذهبي الدفين . . . بل لقد بلغ من فكرها وتدقيقها أنه عندما لقن أوريليانو الثاني واحداً من بطانة مبادئه ومجونه للتقدم الى المعجوز على أنه هو صاحب الثروة، لم تزل أورسولا بهذا الدعي تستجوبه وتضيق الخناق عليه بأسئلتها الماكرة حتى تخلى أوريليانو الثاني في النهاية عن المحاولة . . .

وكما ان لكل شيء بدايته، فلكل شيء في الحياة نهايته . . . فذات يوم من أيام شهر يونيو بعد تلك السنوات المطيرة الطوال، بدأت الأمطار تقل:

والسحب تنقشع، وبدا واضحاً بين لحظة وأخرى ان الجوي يوشك ان يتكشف... وهذا ما حدث.. ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة اضاعت السماء بأشعة قرمزية لشمس مترنحة، وبعدها لم يسقط المطر مرة أخرى مدى عشر سنوات ..

وكانت ماكوندو قد استحوطت الى خرائب... ففي الشوارع تناثرت بقايا الاثاث المحطم وهياكل الحيوانات.. وغدت البيوت التي بنيت على عجل للعاملين في زراعات الموز قاعاً صفيصافاً بعد أن فر منها سكانها، وقوضت شركة زراعة الموز ذاتها منشأتها ومراقفها.. أما الناجون من الكارثة من سكان ماكوندو الأصليين فقد وجدهم أوريليانو الثاني عند خروجه أخيراً لتفقد الأحوال جالسين في وسط الشوارع يستمتعون بدفء الشمس، فرحين باستعادة البلدة التي ولدوا فيها رغم الدمار الذي حل بها..

وكانت بيترا كوتيس هي أكثر سكان البلدة تجلداً... فقد شاهدت الدمار الشامل للإسطبلاتها، واكتساح العاصفة لمخازن حبوبها، بيد أنها أفلحت في استبقاء بيتها قائماً.. ولما رأت تقاعس أوريليانو الثاني عن نجدها عندما استغاثت به أكثر من مرة، أقسمت على ان تعمل لاستعادة الثروة التي بعثها عشيقها ثم أتى عليها الفيضان.. ولقد كان عزمها في هذا القرار راسخاً الى حد أنه عندما زارها أوريليانو الثاني بعد ثمانية أشهر من رسالتها الأخيرة اليه، ألفاها ممتعة غائرة العينين، ولكنها كانت تكتب أرقاماً في قطع صغيرة من الورق لاستئناف عملية يانصيب « الكارتيل » السالفة... لقد دهش أوريليانو الثاني حقاً، أما هي فقد بدا لها لفرط ما رآته من علامم التشعث في مظهره ان القادم ليس عشيقها، بل شقيقه التوأم... وقال يعبر لها عن دهشته :

- أنت مجنونة... إلا اذا كنت ستعرضين في الكارتيل...
المعظم!..

وعندئذ طلبت منه أن ينظر في غرفة النوم . . فرأى أوريليانو الثاني
 بغلاً . . كان جلده ملتصقاً بعظامه مثل صاحبه، بيد أنه كان حياً ومتناسكاً
 مثلها أيضاً . . لقد اطعمته بيترا كوتيس من غضبها، وعندما لم يبق لديها قمح
 ولا عليقة ولا جذور، آوته في غرفة نومها، وجعلت تطعمه قماش الشيت، ثم
 السجاد، ثم الستائر المخملية، ثم مظلة السرير الموشاة بخيوط الذهب . .
 وكلها من مخلفات غرفة النوم الفاخرة التي افتن أوريليانو الثاني في تأثيثها بها
 عندما كان في أوج النشوة والافتتان . .

الفصل السادس عشر

كان على أورسولا ان تبذل جهداً كبيراً لكي تفني بنبوءتها أن تموت بعد انقطاع الأمطار. . . فإن موجات الصحو والشفافية التي كانت تلم بها نادراً إبان فصل الأمطار، غدت كثيرة بعد ان بدأت الرياح الجافة نهب على البلدة وترد إليها بعض الذاكرة. . . ولقد بكت أورسولا الى حد العويل والندب عندما اكتشفت ان الطفلين أوريليانو وأمارانتا أورسولا جعلا منها العوبة يتقاذفانها على مدار ثلاث سنوات ونيف. . . ولأول مرة منذ وفاة ابنتها أمارانتا قامت من الفراش بغير مساعدة من أحد لكي تشترك في حياة الأسرة من جديد، وكان لها من روح العزم في قلبها الذي لا يقهر ما جعلها تدرج في أرجاء البيت رغم عماها مستهدية بحواسها الأخرى. . . ومنذ قومتها تلك لم تسمح لنفسها بلحظة راحة، بل جعلت كل افراد الأسرة يشاركونها في تنظيف البيت وإصلاح ما أفسدته الأمطار من متاع وأثاث. . الى أن وصل بها المطاف الى غرفة مالكويداس المغلقة بالقفل من الخارج تنفيذاً لمطلب جوزيه اركاديو الثاني من أمه سانتا صوفيا بيدال ألا تفتحها إلا بعد وفاته. . . فقد أصرت على أن يفتحوا لها الغرفة خصوصاً وقد تذكرت انه في إحدى الليالي المطيرة. . جاءت شلة من الجنود وفتشت البيت بحثاً عن جوزيه أركاديو الثاني ولم تستطع اكتشاف وجوده. . . ولما نزلوا على اصرارها كادت تسقط في المدخل من فساد الهواء لولا ان تعلقت بالباب، هائفة وكأنها رأت ما بالداخل :

- الرحمة يا ربي! . علمتك طول حياتي النظافة يا بني، فإذا بك تنتهي مثل خنزير! . . .

كان جوزيه أركاديو الثاني لا يزال عاكفاً على فك طلاسم المخطوطات... وكان الشيء البادي منه هو الشعر القليل المنتثر في رأسه وأسنانه المخضرة وعينه الجامدتان... وعندما سمع صوت جدته الكبرى أدار رأسه نحو الباب وحاول الابتسام، ولم يسعفه من الكلام سوى العبارة التي طالما سمع أورشولا ترددها :

- وماذا نتوقع ؟ .. الزمن يمر...

لكنها لم تبال بقوله، وراحت تويخه كأنه طفل، وأصرت على أن يأخذ حماماً ويحلق ويمد يده للمساعدة في اصلاح ما حل بالبيت... والواقع ان فكرة خروجه من الغرفة التي أعطته الامان والسكينة قد أفرغته، حتى لقد صاح بأنه لا توجد قوة بشرية يمكن ان تحمله على الخروج لانه لا يريد أن يرى القطار المحمل بالموتى الذي غادر ماكوندو ليلاً متجهاً الى البحر... وعندئذ فقط أدركت أورشولا انه يعيش في عالم من الخيالات اكتف من عالمها وأشد عزلة من عالم جده الأكبر « جوزيه أركاديو بوينديا » عندما أطبق عليه الجنون... وهكذا تركته في الغرفة، ولكنها اصرت على ان يرفعوا القفل عن الباب وأن يجعلوه نظيفاً لائقاً مثلما كان حال جده الأكبر تحت شجرة الكستناء... وأول الأمر فسرت فرناندا تلك الجلبة كسوبة من خيال الشيخوخة، وكان من الصعب ان تكتم سخطها... ولكن حدث في ذلك الوقت ان ولدها جوزيه أركاديو بعث اليها برسالة قال فيها إنه ينوي القدوم الى ماكوندو من روما قبل ان يرسم في منصبه الديني بصورة نهائية، فكان في هذا النبأ ما أفعم نفسها حماسة حتى راحت تروي الزهور أربع مرات في اليوم، لكيلا ينطبع في نفس ولدها اثر سيء عن البيت..

وكان أوريليانو الثاني الذي اعاد صناديق ملابسه المتجولة الى دار بيترا كوتيس يجاهد ما وسعه الجهد لكيلا تتضور أسرته جوعاً... فقد استطاع هو وبيترا كوتيس بعد عرض البقل في يانصيب « الكارتيل » أن يشتريا بعض

حيوانات اخرى، مما مكنهما من ادارة عملية يانصيب جديدة كان اوريليانو خللها يطوف بالبيوت لبيع التذاكر، وإن نال ذلك من صحته حتى ذهبت عنه البدانة والتورد وغدا أقرب الى النحول والضعف، ولكنهما كانا يقرنان على نفسيهما لتوفير أسباب المعيشة الضرورية لأهل البيت الكبير. . .

وقد أدى انهماك اوريليانو الثاني في عمليات اليانصيب هذه الى اهمال رعاية الطفلين. . . فعمدت فرناندا الى إلحاق ابنتها « امارانتا اورسولا » بمدرسة خاصة صغيرة لا يجاوز عدد تلميذاتها ست بنات، ولكنها رفضت السماح لحفيدها اوريليانو الصغير « ابن ميم » بالذهاب الى مدرسة عامة. . . فقد اعتبرت انها تسامحت أكثر من اللازم اذ تركته ييارح الغرفة. . . وفضلاً عن ذلك فإن المدارس في ذلك العهد لم تكن تقبل سوى الابناء الشرعيين، في حين قد ورد في شهادة ميلاده التي جاءت معه من الدير أنه لقيط. . . وهكذا بقي اوريليانو الصغير معزولاً تحت رحمة سانتا صوفيا بيدال الطيبة ونزوات اورسولا المتقلبة بين الصحو والخيال، لا يتعلم في دائرة البيت الضيقة سوى ما يتلقاه من جدتيه. . . كان في الحق مخلوقاً نحيلاً رقيقاً شديد حب الاستطلاع الى حد يضايق الكبار، لا تكف عيناه عن الاختلاج. . . وفي حين كانت « امارانتا اورسولا » في روضة الأطفال، كان هو يسيّد الدارين ويعذب الحشرات في الحديقة. . . ولكن عندما ضبطته فرناندا يوماً يضع بعض العقارب في علبة لدسها في فراش أورسولا، حبسته في غرفة « ميم » القديمة حيث أصبح يمضي ساعات العزلة في تصفح صور دائرة المعارف. . . وعندما وجدته اورسولا في هذه الغرفة عصر ذات يوم، وعلى الرغم من انها كانت معه مراراً، فإنها سألته من يكون، فأجابها :

- انا أوريليانو بوينديا . . .

فردت عليه قائلة :

- تمام. . . والآن جاء الوقت لكي تتعلم سبك المعادن . . .

لقد خلطت بينه وبين ابنها الكولونيل أوريليانو بونديا في صغره، فلإن الرياح الحارة التي جاءت في أعقاب الفيضان وكانت تجلب لها فترات الصحو والإدراك قد ولت . . . ولم تسترد عقلها بعد ذلك قط . . . وأصبحت تجلس في فراشها تكلم نفسها وتبتعث سير الموتى من أقربائها ومعارفها وتخلط الماضي بالحاضر على نحو مثير للرائ . . . وغدت تزيد انكماشاً وضآلة بمرور الأيام حتى أصبحت في الشهور الأخيرة مثل ثمرة ذابلة في فراغ جلبابها . . . وذات يوم ظلت جامدة عدة أيام حتى راحت سائتاً صوفياً يبدل تهزها لكي تقتنع بأنها على قيد الحياة، ثم أجلستها في حجرها وسقتها بضع ملاعق من ماء محلى بالسكر . . . ومرة أخرى أخفاها أوريليانو وأمارانتا أوروسولا في دولاب في الكرار، حيث كان يمكن ان تنهشها الفئران . . .

ثم وجدوها ميتة صباح يوم الجمعة الحزينة . . . وكانت آخر مرة سألوها ان تقدر عمرها التقريبي أيام وجود شركة زراعة الموز، قدرته في ما يتراوح بين مائة وخمسة عشرة سنة وبين مائة واثنين وعشرين . . . وقد دفنوها في تابوت لا يزيد حجمه عن حجم السلة التي جاء فيها أوريليانو الصغير، ولم يشهد جنازتها الا نفر معدود من الناس، ومرجع ذلك الى قلة من يتذكرونها من أهل البلدة، ثم الى شدة القيقظ في ذلك اليوم الى حد ان الطيور في اضطرابها كانت تترامى على جدران البيوت وتشق ستائر النوافذ لكي تموت. افواجاً في غرف النوم . . .

وبوفاة أوروسولا ارتد البيت الكبير مرة اخرى الى حالة من الإهمال لا يمكن انقاذه منها حتى بعزيمة قوية مثل عزيمة « أمارانتا أوروسولا » . تلك التي تهباً لها بعد تعاقب اعوام كثيرة وبعد ان أصبحت امرأة عصرية سعيدة خالية من العقد، ان تفتح ابواب البيت ونوافذه على مصارعها لكي تطرد عنه الدمار وتعيد للحديقة نضارتها وتستأصل النمل التي أصبحت تسعى في

المدخل في وضع النهار، وإن حاولت عبثاً أن تبحث في البيت روح الضيافة
الذاهبة

كانت تلك كلها هي الصورة بعد الامطار والفيضان... وفي خلال
ذلك كانت فرناندا مشغولة بمرضها الذي لم تكاشف احداً من اهل البيت
بحقيقته ترفعاً واستعلاء، وإن كان الباقون منهم على قيد الحياة لا يعيرونها
اهتماماً... فإن سانتا صوفيا بيدال كانت تمضي ايام شيخوختها الهادئة في
طهي الطعام القليل الذي يأكلونه، متفرغة أكثر الوقت لرعاية ابنها جوزيه
اركاديو الثاني... وكانت «اماراتا اورسولا» التي ورثت بعض محاسن
ريميديوس الجميلة تقضي وقتها الذي كانت تضعه من قبل في تعذيب
اورسولا في استذكار دروسها وقد ابدت في هذا من التقدم والتفاني ما جعل
أوريليانو الثاني يعد بإيفادها الى مدينة بروكسل لإتمام تعليمها... وكانت
المرات القليلة التي زار فيها البيت الكبير، من اجل «اماراتا اورسولا»...
فقد اصبح يمضي الوقت غريباً عن زوجته فرناندا، وغدا أوريليانو الصغير
اكثر انطواء وهو يقترب من دور المراهقة... وكان أوريليانو الثاني يؤمل ان
يلين قلب فرناندا بتقدمها في السن حتى يتهيأ للطفل ان يندمج في حياة بلدة
اصبح اهلها لا يتشددون في شيء مثل الاهتمام بمبته... بيد ان أوريليانو
الصغير ذاته كان يفضل العزلة ولا يبدي اقل رغبة في معرفة العالم الذي يبدأ
من باب الشارع في البيت الكبير... وعندما عملت اورسولا على فتح باب
غرفة مالكويداس اخذ أوريليانو الصغير يتلصص بنظره الى داخلها، ولم
يعرف احد في اية لحظة توثقت الصلة بينه وبين جوزيه اركاديو الثاني حتى
استحالت الى مودة مشتركة... وقد اكتشف أوريليانو الثاني هذه المودة بعد
وقت طويل من بدئها، حين وجد الصبي يردد ما كان يقوله جوزيه اركاديو
الثاني عن مذبحه القتل في ميدان محطة سكة الحديد ونقل القتلى بالقطار
الليلي لإلقائهم في البحر... لقد ردد الصبي هذا الكلام اثناء الجلوس الى

المائلة بين افراد الأسرة بلهجة إنسان ناضج ، مؤكداً ان هذا من تدبير شركة الموز خلاصاً من الاستجابة لمطالب العمال . . . ولما كانت فرنسا مقنعة بما جاء في البيانات الرسمية من دحض لهذه الدعوى ، فقد بدا لها ان الصبي ورت الآراء المتطرفة عن الكولونيل اوريليانو بوينديا ، وانتهرت له كي يصمت . . . اما اوريليانو الثاني فقد عرف في كلام الصبي تأثير اخيه التوأم . . . وعلى الرغم من ان الجميع كانوا يعدون جوزيه اركاديو الثاني من المجانين ، فإنه كان اكثر اهل البيت تعقلاً اذ ذلك . . . فقد علم اوريليانو الصغير القراءة والكتابة ، وكان يشركه في محاولة فك طلاسم المخطوطات ويعمل على توسيع دائرة معلوماته . . .

وتتعاقب الأيام والشهور على هذا النحو ، الى أن يأتي يوم يستيقظ فيه اوريليانو الثاني في منتصف الليل وهو يشعر باختناق شديد في حلقه وكأنما انشب فيه سرطان بحري مخالفه . . . وكانت هذه اول بادرة أحس فيها بقرب ديو أجله . . . لكنه لم يخبر أحداً . . . كان يعذبه في ذلك الحين ان يموت قبل ان يحقق وعده بإرسال « امارانتا اورسولا » الى بروكسل لإتمام تعليمها . . . وهكذا راح يجهد نفسه في العمل بما لم يفعل مثله في كل حياته الماضية . . . وبدلاً من السعي الى توزيع يانصيب كارتيليا واحدة في الاسبوع ، اتجه الى توزيع ثلاث كارتيلات . . . فكان يبدأ في ساعة مبكرة من الصباح طوافه بالبلدة الى ساعة متأخرة من الليل ملحاً على الناس لشراء تذاكر اليانصيب ، وهو في ذلك يتعرض لنوبات الألم الفتاكة في حلقه الى حد يقعه في حالة يرثى لها في الطريق . . . وكثيراً ما غدا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم لفرط ما كان يبدي من إلحاح وترغيب في الشراء . . . وبعد وقت بدا له ان عملية عرض الخنازير والمعز وما اليها في يانصيب الكارتيليا لن تكفي لإرسال ابنته الى بروكسل . . . وهكذا هداه طول التفكير الى عرض الاراضي البور التي أتلّفها الفيضان في هذا اليانصيب . . . وعندما عرض هذه الفكرة على

عمدة البلدة رحب بها، وتكونت على الأثر روابط لشراء تذاكر بقيمة مائة جنيه للتذكرة الواحدة بيعت كلها في أقل من أسبوع. . وفي ليلة السحب اقام الفائزون حفلاً كبيراً عزف فيه اوريليانو الثاني على الأكورديون. . لآخر مرة. . .

ولم ينقض شهران حتى ذهبت « امارانتا اورسولا » الى بروكسل. . . وقد اعطاها اوريليانو الثاني كل النقود التي جمعها من يانصيب الاراضي، مضافاً اليها ما ادخره في الماضي، مما عده كافياً للوفاء بنفقات الدراسة والمعيشة. . . وكانت فرناندا في أول الأمر ضد الرحلة بعد ان روعها رحيل ابنتها الى بروكسل القريبة من باريس مدينة اللهو والمفاتيح، لولا ان الأب انجبل الكاهن الجديد زود الفتاة بتوصية الى دار للإقامة مخصصة للفتيات تشرف عليها راهبات. . . وقد اعدت لها فرناندا مع الملابس والمتاع الضروري حزاماً من القنب تحفظ فيه نقودها وشدت عليها ألا تخلعه حتى في نومها. . . وبعد اشهر معدودة، عندما حانت ساعة اوريليانو الثاني الأخيرة وهو على فراش الموت، لم تبرح ذاكرته صورة فتاته وهي تطل من نافذة القطار ملوحة لوالديها على رصيف المحطة وقد تجلت رشاقتها ونضوجها ولكن دون دموع ولا ضعف، مما دل على قوة عزم مبكر. . . وظلا واقفين على الرصيف يلوحان مودعين وقد تأبطا ذراعيهما لأول مرة منذ الزواج، الى ان غاب القطار عن الانظار. .

وفي التاسع من شهر اغسطس، قبل ورود الرسالة الاولى من بروكسل، كان اوريليانو الصغير يتحدث مع جوزيه أركاديو الثاني في غرفة مالكويداس، ودون سابق تمهيد قال له هذا :

- تذكر دائماً انهم كانوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل، وأنهم إلقي بجثثهم في البحر. .

وعلى الأثر وقع جوزيه اركاديو الثاني على ظهره فوق المخطوطات

وفاضت روحه وهو مفتوح العينين . . . وفي اللحظة نفسها تقريباً، وفي فراش فرناندا، كانت نهاية أخيه التوأم أوريليانو الثاني، بعد المرض الطويل المفترس الذي اكل حلقة وغيب صوته تماماً في الأسابيع الأخيرة وحبس أنفاسه أو كاد . وفاء بما وعد من أن يكون موته بجانب زوجته . . . وكانت بيترا كوتيس قد عاونته في الفترة الأخيرة في جمع ملابسه وودعته قبل رحيله من دارها دون أن تذرف دموعاً واحدة، ولكنها نسيت أن تعطيه الحذاء الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته . . . وهكذا ما أن سمعت بوفاته حتى انتشحت بالسواد ولفت الحذاء في جريدة وطلبت الإذن من فرناندا لإلقاء نظرة أخيرة على الجثة . . . فلم تسمح لها فرناندا بأن تخطأ قدمها عتبة البيت، فقالت بيترا كوتيس مستعطفة :

- ضعي نفسك مكاني . . . تصوري مقدار حيي له بحضوري اليك والتعرض لهذه المهانة . . .

فردت عليها فرناندا قائلة :

- ليست هناك مهانة لا تستحقها عشيقته . . . ولك أن تتظري حتى يموت واحد آخر من عشاقك الكثيرين لكي تلبسه الحذاء ! . . .

وعملًا بوصية جوزيه أركاديو الثاني الذي طالما خشي أن يدفن حياً بعد موته - متأثراً بما رآه في صغره مرة من دفن المحكوم بإعدامهم وعيونهم لا تزال مفتوحة - فقد تولت أمه سانتا صوفيا بيدال حزن رقبته بسكين المطبخ . . . وقد وضعت جثتا الأخوين التوأمين في تابوتين متماثلين، وهكذا تحقق في الموت عودة التماثل بينهما كما كانا حتى عهد المرافقة . . . وجاء أصحاب أوريليانو الثاني في اللهو لوداعه الأخير ومعهم إكليل زهور محفوف بشریط وردي كتبت عليه عبارة كانت شعارهم في مجونهم : « تمتع ، فالحياة قصيرة » . . . بيد أن فرناندا التي أسخطها هذا الاجترأ على حرمة الموتى

رفعت الإكليل وألقته في القمامة . . . وفي ثانيا المهرج الذي ساد في اللحظة
الاحيرة، خلط السكارى المحزونون التابوتين وهم يحملونهما، وهكذا دفن
التوأمان في القبرين المغلوقين . . .

الفصل السابع عشر

لم يفارق اوريليانو الصغير غرفة مالكويداس زمناً طويلاً . . . لقد لفظ عن ظهر قلب الأساطير الخرافية التي تضمنتها تلك الكتب العنيفة، من مذكرات عن علوم الجن والشياطين، ومفاتيح الوصول الى حجر الفلاسفة، وحوليات نوسترا داموس وأبحاثه . . . الى غير ذلك مما جعله يبلغ سن المراهقة دون ان يعرف شيئاً عن الزمن الذي يعيش فيه، مزوداً فقط بالمعرفة الأساسية لانسان من العصور الوسطى . . . وكلما دخلت عليه جدته سانتا صوفيا بيدال وجدته مستغرقاً في القراءة . . . وكانت تأتيه عند الفجر بإبريق القهوة يغير سكر، وعند الظهر يطبق أرز وشرائح الموز المقلي، وهو الطعام الوحيد الذي كان يؤكل في البيت منذ وفاة أوريليانو الثاني . . . وكانت تعمل على قص شعره، وإلباسه الملابس القديمة التي تعثر عليها بعد جعلها على مقاسه . . . وعندما نبت شاربه جاءته بموسى الكولونيل اوريليانو بوينديا والإناء الصغير الذي كان يستخدمه في حلق ذقنه . . . وكان يبدو لها أحياناً انه يكلم نفسه . . . اما الواقع فإنه كان يكلم طيف مالكويداس . . . فقد حدث ظهر يوم متقد الحر بعد وفاة الأخوين التوأمين ان أبصر منعكساً من وهج النافذة طيف مالكويداس كما كان يتصوره . . . وقد سأله مالكويداس بعد ان رآه يراجع الحروف الأبجدية للمخطوطات كما تلقاها عن جوزيه اركاديو الثاني، عما اذا كان قد اكتشف اللغة التي كتبت بها المخطوطات، فأجاب اوريليانو :

- اللغة السنسكريتية . .

فبين له طيف مالكويداس ان ظروف عودته الى هذه الغرفة محدودة لأنه عائد في سلام الى رحاب الموت الكلي، ومن ثم سيجد اوريليانو الوقت

متسعا لتعلم اللغة السنسكريتية خلال السنوات الباقية على بلوغ عمر المخطوطات مائة عام ، وعندها سيحين أوان فك رموزها . . وكان هو الذي دل أوريليانو على أنه يوجد في الشارع الضيق المؤدي الى النهر رجل حكيم من ابناء قطلونيا عنده مكتبة بها مفتاح اللغة السنسكريتية في كتاب مزخرف سيأتي عليه العث في مدي ست سنوات اذا لم يبادر بشرائه وشد ما كانت دهشة سانتا صوفيا ببدال التي لا يدهشها شيء عندما طلب منها أوريليانو ان تعجبه بالكتاب الذي يمكن العثور عليه بين مجلدي « تاريخ أورشليم » و« أشعار ميلتون » في أقصى الجسائب الأيمن للرف الثاني من رفوف المكتبة واذا كانت لا تعرف القراءة فإنها وعت هذا في ذاكرتها ودبرت مبلغا من بيع الاسماك الذهبية الصغيرة السبعة عشر الباقية في المسبك ، والتي لم يكن احد غيرها هي وأورسولا يعرف مكانها منذ الليلة التي فتش الجنود فيها البيت . .

وتقدم أوريليانو في دراسة اللغة السنسكريتية فيما كانت زيارات طيف مالكويداس تتناقض ويزيد الطيف شحوبا في ضوء الظهيرة الشديد . . وآخر مرة شعر أوريليانو بوجود الطيف عندما همس في سمعه كيان غير منظور بهذه العبارة : « لقد توفيت بالحمى في رسال سنغافورة » وبعدها لم تعد الغرفة في منعة من الأتربة والحرارة وحشرات الترميت والتمل والعث ، وهي كفيلة بإحالة المخطوطات الى نشارة . . .

ولم يعد البيت يعاني من نقص القوت فغداة يوم وفاة أوريليانو الثاني ، جاء رجل من بطانة السكر الذين احضروا الاكيليل غير المحتشم ليدفع الى فرناندا نقودا كانت دينا عليه لأوريليانو الثاني وبعد هذا كان يأتي كل يوم اربعاء صبي ومعه سلة طعام كانت تكفي قوت أسبوع ولم يعرف احد قط ان هذه المؤونة كانت ترسلها بيترا كوتيس ، وفي ضميرها ان هذا الاحسان المستمر هو طريقة لإذلال فرناندا التي أذلته غير أن هذه

الضعيفة ما لبثت ان ثلاثت بمرور الايام، وبعدها استمرت في ارسال القوت من قبيل التكبر، ثم في النهاية من قبيل الرحمة... وكثيرا ما كانت بيترا كوتيس - بعد أن كانت لا تجد حيوانات للبانصيب ويعد فقد الناس الاهتمام بذلك - كثيرا ما كانت هي تبقى دون طعام، لكي تجد فرناندا ما تأكله، وظلت وفيه لعدها هذا الى ان رأت جنازة فرناندا تمر في الشارع...

وفي خلال ذلك كانت سانتا صوفيا بيدال دائبة في خدمة البيت وتنظيفه من الأتربة والعناكب والحشرات القارضة، فلا تمضي ساعات حتى يعود كل هذا إلى سيرته الأولى، الى أن شعرت في النهاية ان شيخوختها وعظامها المكدودة لن تحتمل هذا الجهد الشاق، واذا هي تحزم ما بقي لها من متاع قليل وتتأهب للرحيل عن البيت... وعندما سألتها اوريليانو الى أين هي ذاهبة اجابته بلهجة غامضة أن لها أقرباء في بلدة ريوهاشا ستقيم عندهم، وان موته عليه في ذلك. فأعطاه أوريليانو اربعة عشر من الاسماك الذهبية بعد أن وجدها مصرة على الذهاب بما معها وهو لا يجاوز ييزو واحدا وبضعة سنتات... وبعد رحيلها لم يسمع شيء عنها بعد ذلك...

وعندما سمعت فرناندا برحيلها هاجت وماجت يوما بطوله... وقد اصيبت بحروق في أصابعها وهي تحاول إيقاد النار لأول مرة في حياتها، واضطرت ان ترجو اوريليانو ليريها كيف تعمل القهوة... وبمضي الوقت كان اوريليانو هو الذي يباشر شؤون المطبخ... فكانت فرناندا تجد افطارها معدا عندما تقوم من النوم، وكانت تبرح غرفتها مرة ثانية لتجد طعامها فوق الموقد مجهزا، فتحمله الى المائدة لتجلس على رأسها في مواجهة خمسة عشر مكانا خاويا، فوق مفرش من النيل وبين الثريات...

لقد كانت فرناندا تعيش في عالم خاص بها ولا شاغل لها سوى مكاتبه ولديها وتلقي رسائلهما، حتى لم يعد يعينها شيء من مرور الزمن انتظارا

لعودتهما . . وعلى سبيل المثال لم تتضايق عندما أخبرها ابنها جوزيه
اركاديو - بعد مضي سنوات من اعلان قرب تخرجه النهائي - انه سينتظر
لإتمام دراساته في علوم اللاهوت المتقدمة، فقد سرت بهذا التأخير وسعدت
به وهي تعرف الطريق الشاق الى المناصب الكهنوتية العليا . . كما كان
سرورها وسعادتها بالمثل عندما أخبرتها ابنتها «أمارانتا أورسولا» أن دراساتها
سوف تطول أكثر من المقدّر لها لأن تفوقها في الدرجات قد هيا لها مزايا لم
تكن في الحسبان عندما قدر والدها موقفها الدراسي . . .

وانقضت ثلاثة اعوام ونيف منذ أن احضرت سانتا صوفيا بيدال الى
أوريليانو كتاب القواعد الذي مكّنه من ترجمة الصفحة الاولى . . ولم يكن
هذا جهدا ضائعا، ولكنه كان خطوة أولى في طريق لم يمكن التنبؤ بطوله،
لأن النص الاسباني لم يفصح عن أي شيء، إذ كان مكتوبا بشفرة خاصة
تعذر على أوريليانو ان يحلها . . . غير أنه لما كان مالكويداس قد أخبره ان
الكتب التي يحتاج اليها للتوصل الى اعماق المخطوطات موجودة في مكتبة
القطالوني، فقد قرر أن يكلم فرناندا لكي تسمح له بالذهاب . . ولهذا قص
شعره الذي طال وحلق ذقنه ولبس، بنطلونا قصيرا وقميصا بياقة صناعية ورثهما
ممن لا يدري، ثم جلس في المطبخ ينتظر حضورها لأخذ طعام الافطار . .
لكن المرأة التي عهدا كل يوم والتي كانت ترفع رأسها شموخا وتعاليا لم
تصل، وإنما جاءت امرأة عجوز ذات جمال خارق تشع بحرملة من الفرو
الشمين وتاج من الورق المقوى المذهب، وتبدو عليها علائم انسان كان يبكي
لنفسه ليلا . . . والواقع ان فرناندا منذ أن عثرت على زيتها كملكة في امتعة
زوجها أوريليانو الثاني راحت ترتديه مرارا رغم ما أكل منه العث . . . ولو قدر
لأحد أن يراها وهي تختال أمام المرأة بهذا الزي الزائف لظنها مجنونة . . .
لكنها لم تكن . . . وإنما كانت تفعل ما فعلت للذكرى، وحيثاً الى الماضي
المولى، وتسرية لنفسها عن سوء حالها الراهن . . .

هكذا عدل أوريليانو مشفقاً عن طلب الاذن منها بالخروج اذ كان مفتاح البيت لديها، وان كان بوسعه ان يتسلل خارجا وعائدا دون ان تظن اليه، لولا أن طول سجنه في البيت وخوفه من مواجهة الناس والعالم الخارجي واعتياده طاعة الاوامر، كل ذلك قضى على روح التمرد في نفسه وفرض عليه عزلة الغريبة... وكذلك عاد الى محبسه عاكفا على قراءة المخطوطات مرارا وتكرارا، متسمعا في الليل صوت فرناندا وهي تتنحب في غرفة نومها... الى أن ذهب الى المطبخ ذات صباح لإيقاد النار كالمعتاد، فوجد الطعام الذي تركه لفرناندا بالامس لم تمسه يد... وعندئذ نظر في غرفة نومها، فرأها ممددة فوق الفراش مغطاة بحرملة الفراء وهي اوفر جمالا مما عهد وقد استحالت بشرتها الى لون العاج... ولما عاد ابنها جوزيه اركاديو بعد اربعة اشهر، وجدها على نفس تلك الصورة..

كان من المستحيل أن يتصور احد شابا اكثر منه مشابهة لأمه... كان يرتدي بذلة من الحرير وقميصا بياقة صلبة مستديرة وشرطا حريريا في مكان ربطة العنق... وكان مليء الوجه سورده، واقرب الى الاسترخاء والترهل... وكان شعره الاسود اللامع الناعم مفروقا من وسط الرأس... وكان يتختم في يديه الناصعتي البياض بخاتم ذهبي مرصع بحجر من العقيق حول سبابة يده اليسرى.. وعندما فتح باب الشارع لم يحتج أوريليانو الفتى الى من يدلّه على أنه جاء من سفر بعيد... وما أن خطا بضع خطوات في البيت حتى فاحت منه رائحة العطر الذي طالما نثرته اورسولا عليه وهو طفل لكي تستدل من الرائحة على مكانه بعد أن كف بصرها.. وقد تقدم جوزيه اركاديو من فوره الى مخدع أمه، حيث كان أوريليانو قد تولى غلي زيتي مدى اربعة اشهر كاملة لحفظ الجثة طبقا لتعاليم مالكويداس المتوارثة.. ولم يبادره جوزيه اركاديو بأي سؤال... وانما قبل الجثة فوق الجبين، ثم جذب من ثايبا ملابسها مفتاح دولاب صاحبها الخاص، ولما فتحه اخرج منه علبة

صغيرة كان بداخلها الرسالة المطلوبة التي باحت فيها فرناندا بكافة الحقائق التي كانت حريصة دائما على إخفائها عنه في رسائلها اليه . . . فعكف على قراءتها واقفا بلهفة ولكن دون قلق، وما أن وصل الى الصفحة الثالثة حتى توقف وتفرس في أوريليانو بنظرة تعرف بعد النظرة الأولى العابرة، وقال له بصوت كحد موسى :

- إذن . . أنت ابن الحرام . . .

- أنا أوريليانو بوينديا . . .

فقال جوزيه اركاديو :

- إذهب الى غرفتك . . .

فذهب أوريليانو، ولم يخرج ثانية حتى من باب الفضول عندما سمع صوت موكب الجنائز المحدود . . . وأحياناً كان يرى من المطبخ جوزيه اركاديو وهو يتنقل في البيت، ويسمع خطواته في غرفة النوم المهجورة بعد منتصف الليل، بيد أنه لم يسمع صوته مدى شهور كثيرة، لا لأن جوزيه اركاديو لم يتجه اليه أبدا بكلام، بل كذلك لأن أوريليانو نفسه لم يرد أن يحدث هذا ولم يحن الوقت ليفكر في أي شيء آخر غير المخطوطات . . . فعقب وفاة فرناندا حمل سمكة ذهبية وذهب الى مكتبة القسطلوني الحكيم بحثاً عن الكتب التي يحتاج اليها . . . فوجده عاكفا على منضدة مستطيلة بين أكداش الكتب العتيقة البالية فوق الرفوف وفي الاركان وهو مستغرق في الكتابة بأحرف حمراء في كراسة مدرسية مفككة الصحائف، وبدا له أبيض الشعر أزرق العينين تلوح عليه مخائل انسان مهذب قرأ كل الكتب . . . ولم يرفع الرجل رأسه ليرى من القادم، غير أن أوريليانو لم يجد صعوبة في استخلاص الكتب الخمسة التي جاء يبحث عنها في القوضى الضاربة أطنابها حوله، لأنه عثر عليها في الموضوع الذي أرشده اليه طيف مالكويداس . . .

ودون كلمة واحدة وضع اوريليانو الكتب والسمة الذهبية أمام القطالوني الذي ما أن نظر حتى ضاقت عيناه قائلاً :
- لا بد أنك مجنون ! ...

بيد أنه هز منكبيه ورد إليه الكتب والسمة الذهبية قائلاً :
- لك أن تأخذها ... ان آخر رجل قرأ هذه الكتب أصيب بالعمى ...
وإذن فلتتدبر جيداً ما أنت فاعل ...

وأما جوزيه اركاديو فقد أصلح غرفة نوم اخته «ميم» وحوض الاستحمام الاسمتي ... وكان ينام حتى الحادية عشرة صباحاً او ما بعدها، فيذهب الى الحمام حيث يعطر الحوض بأملح جاء بها، ويمكث فيه ساعتين طافياً على ظهره مستمتعاً بالطراوة ... وبعد أيام قلائل من وصوله وضع جانباً بذلته الحريرية وهي الوحيدة التي جاء بها، واستبدل بها بنظولنا ضيقاً وقميصاً حريرياً نقش فوق مكان القلب منه الحرفان الاولان من اسمه ... ومرتان في الاسبوع كان يغسل هذا اللباس ويرتدي روب الحمام الى أن يجف، اذ لم تكن لديه ملابس غيرها ... ولم يكن يأكل في البيت قط ... كان يخرج بعد أن تخف وقدة القيلولة ولا يعود الا في وقت متأخر ليلاً ... كانت المكدعة الكبرى التي أجازها على الجميع هي دراسته للاهوت. أما الحقيقة فهي أنه لم يكد يستقر في روما حتى هجر المعهد واستمر يغذي برسائله هذه الخرافة لكي لا يخاطر بذلك الميراث الكبير الذي كان ينتظره من أمه على نحو ما كانت تمنيه به اختلاًقاً هي الاخرى طبقاً لطبيعتها التي كانت تجانب الحقيقة في كل شيء وتعلق بعالم الاوهام ... كان تفكيره منحصر في ذلك الميراث الوهمي الذي يخلصه من البؤس وشظف العيش مع صاحبين له في غرفة على السطح ... وعندما تلقى رسالة فرناندا الاخرية التي أملاها عليها إحساسها بدنو الأجل، جمع ما تبقى من العز الزائف في حقبة صغيرة عبر بها المحيط في سفينة مع مهاجرين تكدسوا فيها مثل ماشية في مجزر يأكلون

المعكرونة الباردة والجبن بالديدان . . . وقبل أن يقرأ وصية فرناندا في رسالتها المطولة، وهي لم تكن أكثر من اعتراف تفصيلي ومتأخر بحقيقة الحال والبلايا الماثلة، كان أثاث البيت المحطم والحشائش البرية النامية لدى المدخل برهاناً صارخاً على أنه قد وقع في فخ لا مهرب له فيه . . .

وبعد عام من عودته المهيضة تلك، والتي اضطر فيها أن يبيع الثريات الفضية وغيرها مما بقيت له قيمة لكي يأكل، كانت سلواه الوحيدة في عزلته هي فتح ابواب البيت لصبية الحي لكي يلعبوا في البيت ويؤنسوا وحشته . . فكانوا يشبون فوق الحبل في الحديقة ويغنون لدى المدخل ويقومون بالعباب بهلوانية بين أثاث حجرة المعيشة الى وقت متأخر من الليل، حتى صار البيت أشبه بمدرسة داخلية مجردة من كل نظام . . . ولم ينزعج أوريليانو من هذا الغزو طالما كانوا لا يعملون على مضايقته في غرفة مالكويداس . . . ثم حدث ذات صباح أن دفع أحد الصبية باب الغرفة، فروعهم مشهد رجل متسخ أشعر كان لا يزال عاكفاً على محاولة فك طلاسـم المخطوطات فوق المنضدة . . . ولم يتجاسروا على دخول الغرفة، ولكنهم مسـا برحوا يراقبونها . . . ومرة ألقوا فيها حيوانات حية من فوق عارضة الباب . . . وفي مناسبة أخرى سمروا الباب والنافذة حتى امضى أوريليانو نصف نهار في رفع المسامير وفتحهما . . . ولما اشجعهم عدم تعرضهم للعقاب في كل هذا، دخلوا الغرفة ذات صباح بينما كان أوريليانو في المطبخ وهموا بـإتلاف المخطوطات . . . غير أنهم ما كادوا يضعون أيديهم على الصحائف المصفرة حتى شعروا بقوة خفية تكاد ترفعهم عن الأرض، الى أن عاد أوريليانو وانتزع المخطوطات من أيديهم . . . وبعدها لم يعملوا على مضايقته . . .

وكان اربعة منهم في سن المراهقة مثل جوزيه اركاديو يشاطرونه الاستحمام في الحوض، وقد توثقت بينه وبين احدهم وهو أجراًهم أواصر الصداقة حتى كان يشاطره المبيت في البيت بعض الليالي، حيث يقضيان

الساعات في السمر والطواف بالغرف الخاوية... وذات ليلة استعري
نظرهما في غرفة أورسولا وهج أصفر منبعث من بين شقوق الارضية المتأكلة
وكان شمسا تحت الارض قد غيرت ارض الغرفة الى لوح من الزجاج...
ولم تكن بهما حاجة الى اضاءة النور... كان يكفي أن يرفعا البلاط
المكسور في الركن الذي كانت تنام فيه أورسولا والذي كان ينبعث منه الوهج
على أشده، لكي يعثرا على الكنز السري المليء بالذهب في أكياسه الثلاثة
والذي كان يتوهج مثل جمرات في الظلام...

كان اكتشاف هذا الكنز الذهبي مفاجأة مذهلة... وبدلا من أن يعود
جوزيه أركاديو الى روما بالكنز الذي هبط عليه من حيث لا يحتسب، فإنه
احال البيت الى فردوس... اذ اعاد تانيث غرفة النوم بأفخر مما كانت عليه،
وكسا ارضية الحمام وحوائطه بالبلاط، وملا دولا ب قاعة الطعام باللحم
المقعد وعلب الفاكهة المحفوظة والمشهيات وفتح غرفة «الكرار» من جديد
لتخزين الانبذة والمشروبات الكحولية التي كان يستجلبها من محطة سكة
الحديد في لفائف معنونة باسمه... وذات ليلة أولس مع الفتيان الاربعة وليمه
دامت حتى الفجر... وعند الساعة السادسة صباحا قاموا بتصفية حوض
الحمام من المياه وملأوه بالشمبانيا، ثم تواثبوا فيه وراحوا يسبحون مثل طيور
سباحة في سماء مذهبة بفقايع يفوح شذاها العطر... وقد تخلف عنهم
جوزيه اركاديو عندما خرجوا من الحوض وبقي طافيا على ظهره في المياه
مستغرقا في التفكير... وعندما لحق بهم في النهاية ألفاهم قد اثلفوا غرفة
النوم حتى اصبحت حطاما... فاشتد سخطه عليهم حتى طردهم من البيت
وهو يشبعهم ضربا... وبقي وحده ثلاثة أيام يعاني من ازمة ربو مستحكمة...
ولما اشتدت عليه الازمة ذهب الى غرفة أوريليانو ورجاه ان يشتري له
مسحوقا خاصا للاستنشاق من صيدلية قريبة... وكانت هي المرة الثانية التي
خرج فيها أوريليانو من البيت، ولما وصل الى الصيدلية قابلته فتاة لها جمال

الافعى وأعطته الدواء الذي عاد به الى جوزيه اركاديو الذي قدر منه هذا الصنيع، حتى أنه بعد أيام قليلة أنحل بعهد لأمه وترك أوريليانو حراً يخرج من البيت كما يشاء. . . ومن عجب ان أوريليانو رد عليه قائلاً :

- ليس لي ما أفعله في الخارج. . .

وبقي حبساً في البيت، منهمكاً في فك طلاسم المخطوطات ومحاولة فهم مضامينها التي ظلت رغم ذلك مستغلفة عليه. . وكان جوزيه اركاديو يجيشه ببعض اللحم المقدد والفاكهة المحفوظة، وشيء من النبيذ في مناسبتين. . . لكنه لم يهتم بالمخطوطات التي عدها من تراث الماضي، ولكن اهتمامه غداً منحصر في ابن اخته هذا الذي ألفاه عزيز المعلومات واسع المعرفة على نحو غريب، إذ وجده يفهم اللغة الانجليزية، الى جانب إلمامه بكل ما جاء في دائرة المعارف المصورة التي قرأ أجزاءها الستة من أول صفحة الى آخر صفحة كما يقرأ إحدى الروايات. . . ومهما يكن فقد توطدت الاواصر بين هاتين الشخصيتين المنعزلتين اللتين يسري فيهما دم واحد، وهي إن لم تكن صداقة بمعنى الكلمة، فقد كانت صحبة اعانتها على احتمال حياتهما الغريبة هذه. . .

وكان جوزيه اركاديو منذ ان طرد الفتیان من البيت ينتظر اخبار باخرة من عابرات المحيط ينوي الارتحال فيها الى نابولي قبل عيد الميلاد. . . وقد اخبر أوريليانو بهذا، بل فكر في خطة لإلحاقه بعمل لكسب قوته، إذ أن سلال الطعام قد انقطع ورودها الى البيت بعد دفن فرناندا. . .

وفي صباح يوم من سبتمبر بعد أن فرغ جوزيه اركاديو من شرب القهوة مع أوريليانو في المطبخ وكان على وشك الانتهاء من حمامه اليومي، إذ اندفع الى الحمام الفتیان الاربعة الذين طردهم من البيت، من خلال البلاط المكسور. . . وقبل أن يجد فرصة للدفاع عن نفسه قفزوا الى الحوض بكامل

ملا بسهم وجذبوه من شعره وأغرقوا رأسه في المياه ممسكين بها هكذا الى أن توقفت من سطح المياه فقافيع حشرجة الموت ، وغاصت جثته الشاحبة الى قاع الحوض المعطر . . . وبعد ذلك اخرجوا اكياس الذهب من المخبأ الذي لم يكن معروفا لهم وللضحية . . . وكانت في الواقع عملية خاطفة ووحشية ومدبرة بعناية حتى كانت أشبه بعملية حربية . . . ولم يشعر أوريليانو بأي شيء وبابه مغلق عليه في غرفته . . . وعندما افتقده في المطبخ بعد ظهر هذا اليوم ، ذهب يبحث عنه في كل انحاء البيت ، الى أن عثر عليه طافيا فوق صفحة مياه الحوض المعطرة وقد انتفخت وتضخمت جثته . . . وعندئذ فقط ادرك أوريليانو الى أي حد كان قد بدأ يتعلق به . . .

الفصل الثامن عشر

عادت « أماراتا أورشولا » في أوائل شهر ديسمبر - وهي تقود زوجها بحبل من حرير مربوط حول رقبته . . .

ظهرت في البيت الكبير دون سابق اختار، مرتدية فستانا في لون العاج، وعقدًا من اللآلئ يكاد يتدلى الى ركبتيها، وخواتم من الزمرد والعقيق، وشعرها الطويل معقود خلف اذنيها . . . وكان الرجل الذي تزوجته منذ ستة شهور هولنديا نحيلًا يكبرها سنًا . . . وما كان عليها إلا أن تدفع الباب الى البهو لكي تدرك أن غيابها كان أطول وأحفل بالدمار مما كانت تتصور، حتى هتفت بلهجة كانت أكثر مرحًا منها انزعاجًا :

- يا الهي . . . من الواضح أنه لا توجد امرأة في هذا البيت . . .

وكانت الامتعة التي جاءت بها أكثر من ان يسعها المدخل . . . ففضلا عن الصندوق الكبير الذي ذهبت به الى المدرسة، جاءت بست حقائب بين الكبيرة والصغيرة، وثمانية علب قبعات، وصندوق خاص به دراجة زوجها ذات العجلة الامامية الاكبر، مفككة . . . بل إنها لم تخلد الى الراحة يوما واحدا بعد رحلتها الطويلة، فقد اشتملت برداء قديم وبدأت على الفور تنظيف وتجديد البيت : فطردت النمل الاحمر الذي كان قد سيطر على المدخل . . . واستأصمت الحشائش الطويلة، وغرست الزهور في الأصص، واستعانت بفريق من النجارين والحدادين والبنائين لإصلاح الاثاث والابواب والنوافذ وسد الشقوق وطلاء الجدران، وهكذا لم تمض ثلاثة اشهر على وصولها حتى كان الانسان يتنفس من جديد جو الشباب والانتعاش الذي كان

يسود البيت الكبير في أيام العز الماضية . . والحق انها كانت ذات روح متحررة وعصرية الى حد أن أوريليانو «ابن اختها ميم» لم يعرف كيف يداري هياته لدى مقدمها . . . أما هي فقد هتفت بلهجة السعادة وقد فتحت ذراعيها :

- مدهش ! . . مدهش ! . . انظروا كيف كبر «متوحشنا» العزيز ! . .

وقبل أن يجد فرصة لرد الفعل، كانت قد وضعت اسطوانة فوق الفونوغراف المتنقل الذي جاءت به معها واخذت تحاول تعليمه احدث خطوات الرقص . . ثم إنها حملته على تغيير بنطلونه المتسخ الذي ورثه عن الكولونيل أوريليانو بوينديا، وأعطته بعض القمصان الشبابية وحذاء بلونين، وكانت تدفعه الى الشارع دفعا عندما كان يمضي في غرفة مالكويداس وقتا أطول مما ينبغي . . .

كانت عصرية مائة في المائة، حتى كان من غير المفهوم ان تعود مثلها الى بلدة ميتة مثقلة بالأتربة والحر القاطظ، ومع زوج كان عنده من المال ما يكفي للعيش في أي مكان في العالم وهو يحبها حبا جما جعله يرتضي ان يقاد بطوق حريري حول رقبته ! . .

وبعد عام من عودتها، وعلى الرغم من أنها لم تفلح في اتخاذ أي اصدقاء او اقامة اية حفلات، فإن امارانتا اورسولا، ظلت على اعتقادها بأن في الامكان إنقاذ هذه البيئة التي انفردت بالعزلة وبما تعاقب عليها من كوارث . . . وقد حرص زوجها جاستون على عدم معارضتها، وإن كان منذ ان نزل من القطار قد أيقن أن زوجته تعلقت بسراب خادع . . . ولما ألفاها منهمكة في عمليات الاصلاح والتجديد، ما لبث ان تفرغ بدوره للطواف بدراجه في المنطقة لاقتناص كل ما استطاع من الحشرات المحلية وإرسالها معلبة الى استاذة السابق في التاريخ الطبيعي بجامعة ليسيغ، حيث كان له نشاط متقدم في علم الحشرات، وإن كانت مهنته الاساسية هي قيادة

الطائرات . . وعلى الرغم من أنه كان يكبر زوجته بخمسة عشر عاما على الأقل، إلا أن عزمه الراسخ على توفير أسباب السعادة لها في حياتهما الزوجية هذه قد عوضها عن فارق السن . . وكان لقاؤهما قبل عامين من زواجهما، عندما احتل توازن الطائرة الصغيرة ذات الجناحين التي كان يستقلها فوق المدرسة التي كانت تتعلم فيها «أمارانتا أورسولا» إثر ارتطامها ببعض الاسلاك الكهربائية العالية، مما أدى إلى إصابته برضوض غير خطيرة لحسن حظه . . . ومن وقتها درج على اصطحاب «أمارانتا أورسولا» أيام العطلات من بيت الراهبات الذي كانت تقيم به، إلى حيث يقضيان وقتا طيبا في ناديه الخاص . . وقد نبت الحب في قلوبهما وهما يحلقان بالطائرة أيام الأحد على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق البراري والمروج . . . وكانت تحدته عن مسقط رأسها في ماكوندو مؤكدة أنها أجمل بلدة في الدنيا . . . وقد فهم جاستون أنها لن تزوجه إلا إذا صحبها للإقامة في ماكوندو . . . فقبل عن طيب خاطر، كما قبل وضع الطوق الحريري في رقبته، معتقدا أنها نزوة عابرة ستكفل الأيام بالتغلب عليها . . . غير أنه بعد مضي عامين في ماكوندو، وبعدما رأى أن «أمارانتا أورسولا» ظلت هائلة سعيدة كأول يوم لوصولها، دب القلق إلى نفسه، خصوصا وقد تعقب جميع أنواع الحشرات في ماكوندو واستوفى إرسال النماذج التي يريدتها . . ورغبة منه في ملء وقت فراغه الطويل، فإنه درج على تمضية ساعات الصباح في غرفة مالكويداس مع أوريليانو الخجول . . . وقد أعجبه منه اطلاعه الواسع، ومعرفته لا باللغة السنسكريتية فقط، بل كذلك بالانجليزية والفرنسية، وقليل من اللاتينية واليونانية القديمة . . . ولما صار أوريليانو يخرج من البيت عصر كل يوم في العهد الأخير وكانت «أمارانتا أورسولا» تعطيه مبلغا من النقود كل اسبوع لمصروفه الشخصي، فإن غرفته قد تحولت إلى ما يشبه فرعاً لمكتبة القطالوني . . كان يقرأ بشراهة حتى وقت متأخر من الليل، ولكن أكثر ما كان يستغرق اهتمامه هو التركيز على المخطوطات، التي كان يخصص لها معظم

ساعات الصباح... وكان بود جاستون و «أمارانتا أورشولا» الحياة العائلية، بيد أن أوريليانو كان زاهدا، تحف به سحابة والخفاء كانت تزداد كثافة مع الأيام... وعندما فشل جاستون في لمصادقة أوريليانو، لم يلبث أن تحول عنه لالتماس سبيل أخرى قضاء وقته الطويل... ومن هنا جاءت فكرته لإنشاء خط جوي ير بالعالم الخارجي...

وفي الحق إن هذا المشروع لم يكن بالجديد عند جاستون مختمرا في ذهنه عندما التقى بأمارانتا أورشولا، فيما عدا أن التفت الخطة الجوي لم يكن في مأكوندو، بل في الكونغو البلجيكي، لأسرته استثمارات قائمة... وقد أدى زواجه وما تقرر أول الاء شهور معدودة في مأكوندو إلى أرجاء تنفيذ الفكرة... وعندما تب مصررة على، التوطن في البلدة والعمل على تحسين أحوالها، لم إلا أن يعيد الاتصال بشركائه في بلجيكا لتعديل المشروع وإنشاء في منطقة الكاريبي بدلاً من أفريقيا... وهكذا قام برحلات متتالية الاقليم والتقى بالجهات المسؤولة حيث حصل على التراخيص العقود الخاصة بإنشاء الخط الجوي، ولم يبق إلا وصول الطائر على الخط الجوي...

لقد أحدثت عودة «أمارانتا أورشولا» إلى البيت الكبير ت «نياء أوريليانو، وإن لم تلاحظ هي ذلك... كان لا يزال على ا: عندما عانقته كأخت وتركته لاهت الانفاس... وفي كل مرة وخاصة عندما كانت تزيه الرقصات الجديدة، كان يلاسه ذلك الغامر الذي لابس جده الأكبر عندما اخذته بيلار تيرنيرا إلى غر بدعوى قراءة طالع من واقع أوراق اللعب... ولكي يخمد ما كاد عذاب فقد انكب بكل قوته على المخطوطات هرباً من مداعبات

الفتية التي رغم براءتها كانت تسمم لياليه وتقض مضجعه... ولكن كان كلما تحاشى لقاءها، اشتد به القلق والاضطراب وهو يسمع ضحكاتها الطروبة السعيدة تتردد ليلاً في أرجاء البيت وهي تسامر زوجها الى وقت متأخر... لم يكن فقط يبيت ليله ساهراً مسهداً حليف الضنى، ولكنه كان ايضاً يمضي نهاره التالي محمواً منتحباً من الحنق والاحتلام... وكان يهيم على وجهه في الطرقات شارد الفكر مضطرب الجوانح، فلذا عاد الى البيت وقت الغروب، دخل من الباب كغريب دون أن يسلم على «أمارانتا أورسولا» او جاستون وهما يتناولان طعام العشاء في مثل هذا الموعد عادة، فيغلق على نفسه باب الغرفة، عاجزاً عن القراءة او الكتابة او حتى التفكير، مضطرباً من تلك الضحكات الدافئة والهمسات المثيرة التي كانت تؤجج مشاعره...

لقد ظل على هذه الحال من المعاناة والضنى الى أن جاء ذلك اليوم الذي شعرت فيه «أمارانتا أورسولا» بالضجر من وحدتها لانهماك جاستون في مشروع الطيران، فجاءت الى أوريليانو في غرفته...

قالت له :

- سلاماً يا متوحش... أما زلت ملازماً كهفك...؟

كانت ذات اغراء لا يقاوم، وكانت مرثدية فستاباً جذاباً وعقوداً مترابكة صنعتها جميعاً بيديها... وكانت قد توقفت عن استخدام الطوق لزوجها بعد أن اقتنعت بإخلاصه ولأول مرة منذ عودتها الى البيت الكبير بدت وهي تنعم بالصفاء والدعة... ولم يكن أوريليانو بحاجة الى رؤيتها رأي العين ليعرف انها قد جاءت... ولم تلبث ان وضعت مرفقيها على المنضدة بقرب كبير من مكانه حتى لقد سمع أوريليانو طقطقة عظامها، وأبدت اهتمامها بالمخطوطات... وفي محاولة من أوريليانو للتغلب على اضطرابه، جاهد لاستبقاء صوته الذي كاد يخونه، وأنشأ يحدثها عن قداسة اللغة السنسكريتية

والاحتمالات العلمية للتنبؤ بالمستقبل وضرورة المواظبة على محاولة فك رموز المخطوطات للكشف عن مضامينها الخفية التي استهدفها حكماء القرون الماضية... ثم فجأة، ودون أن يقطع أوريليانو الحديث وضع يده على يدها استجابة لرغبة كامنة في أعماقه، ظنا بأن هذا القرار النهائي سيضع حداً لهواجسه... وإذا هي تمسك بأصبعه السبابة بتلك المودة البريئة التي كانت تبدي مثلها أيام الطفولة، وظلت ممسكة به وهو يتابع الرد على استئلتها واستفساراتها... وظلا متماسكين بالإصبع على هذا النحو الذي لم ينضج بأي احساس الى أن أفاقت من حلمها العارض ولطمت جبينها بيدها هاتفة :

- النمل !..

وهنا نسيت كل شيء عن المخطوطات، واتجهت الى الباب بخطوة راقصة ، ومن هنا طوحت الى أوريليانو بقبلة على أطراف أصابعها . تلك التي وجهتها الى أبيها عصر ذلك اليوم الذي ارتحلت فيه الى بروكسل . وقالت له :

- يمكنك ان تحكي لي في ما بعد... نسيت ان اليوم هو موعد رش الجير على جحور النمل !..

ولقد استمرت تعرج على غرفة أوريليانو بين فينة وأخرى كلما اقتضت الاحوال ان تفعل شيئاً في ذلك الجناح من البيت، فتمكث دقائق معدودة، بينما يكون زوجها منهمكا في دراسة مشروعاته... ولما تشجع أوريليانو بهذا التغير أصبح يتناول الطعام مع الاسرة كما لم يفعل ذلك منذ عودة «أمارانتا أورسولا» الى البيت، وهو ما ادخل السرور على نفس جاستون... وخلال الحديث الذي كان يدور بينهم بعد الطعام، كان جاستون يشكر من بعض التعقيدات التي عاقت تنفيذ مشروع الخط الجوي في الموعد المقدر، حتى لقد اعرب عن رأيه ذات مرة في القيام برحلة قصيرة الى بروكسل لتسوية

الموقف شخصياً والعودة مع الطائرة المنتظرة ذاتها. . . بيد أن هذه الفكرة لم تلبث ان تبخرت حالما كررت «أمارانتا أورشولا» عزمها على ألا تبرح ماكوندو حتى ولو فقدت زوجها. .

وفي الايام الاولى من وصول الزوجين الى ماكوندو كان أوريليانو يشارك في الاعتقاد العام بأن جاستون شخصية بلهاء تتركب دراجة كبيرة العجلة الأمامية، مما أثار في نفسه احساسا غامضا قوامه الرثاء. . ولكنه لم يلبث بعد أن درس أطواره عن كثب أن قدر أن طبعه الحقيقي هو بعكس مسلكه الخاضع المستكين، وقام في نفسه شك خبيث بأن انتظار وصول الطائرة ليس الا من قبيل الافتعال والتمويه. . وعندئذ بدا له أن جاستون ليس بالبلاهة التي يصور نفسه بها، بل هو بالعكس رجل في تمام القدرة والصبر، رسم لنفسه أن يقهر زوجته بأن يضجرها بموافقة الدائمة على كل شيء، وبعدم رفضه لأي رأي لها، حتى يجيء اليوم الذي لا تعود فيه تطيق هذا المسلك، فتبادر بحزم حقائبها عائدة الى أوروبا. . . وهكذا استحال رثاء أوريليانو الى نفور عنيف. . . ولم يتمالك أن اجترأ على تحذير «أمارانتا أورشولا» من هذا الأسلوب. . . فإذا هي تستخف بشكوكه، دون أن تظن الى ما كان يعتمل في نفسه من ضرام الحب والحسد. . . بل لم يخطر ببالها قط أنها تلدكي فيه شيئا أكثر من المودة الاخوية، الى أن جرحت أصابعها ذات مرة وهي تحاول فتح معلبة للخوخ، وسرعان ما اندفع اليها يمتص الدم بشراهة وتфан أرسلت قشعريرة في ظهرها. . ثم ضحكت في شيء من القلق،

قائلة :

- أوريليانو ! . . من يراك يظن انك خفاش مصاص للدماء ! . .

وعندئذ انهار أوريليانو تماما. . . فاهوى بقبلاات متلاحقة على راحة كفها الجريح، وكشف عن جوانحه المضطربة في سيل متدفق من الاعترافات

قال فيها انه طالما استيقظ من نومه في صميم الليالي يبكي من الوحدة كلما سمع ضحكاتها الطروبة الدافئة، وطالما تسلسل الى مخدعها في غيابها ليلقي نظرة محسورة على ملابسها، وطالما سطا على زجاجات عطرها متطعيا بها لكي تبقى ماثلة في دنياه اطول امد ممكن... . . . والحق ان امارانتا اورسولا قد فزعت من هذه الفورة العاطفية الى حد جعلها تطبق يدها بعنف وتقول له بلهجة كانت أقرب الى بصفة :

- يا أحمر ! . . . أنا مسافرة على أول باخرة تتجه الى بروكسل ! .

وفي بلواء المتعاطفة هذه لم يجد ملاذا الا في حمى جدته الكبرى بيلار تيرنيرا، وإن لم يعرف نسبه اليها... . .

لقد سمع في جولاته الاخيرة في ماكوندو انها تقرأ الطالع وتواسي المحزون وتطيب القلوب الجريحة... .

كانت جالسة في مقعدها الهزاز لا تحفل بمر الزمن بعد أن جاوزت المائة والعشرين من عمرها ولم يبق لها الا أن تجتر الذكريات حلوها ومرها... . . وما أن رأت أوريليانو حتى أيقنت من بروز عظمتي وجنتيه وملاحم الانطواء البادية عليه أنه من سلالة بوينديا... . . وكان على استعداد للتدفق بالكلام حتى يجد التعاطف الذي يلذب عقدة الكرب التي كانت تخنقه، بيد أنه لم يفلح الا في بكاء مرير هز كيانه من الاعماق... . . فتركته يستمرسل حتى جفت دموعه وهي تخدش رأسه بأطراف أصابعها، ودون أن يكشف لها أنه يبكي من ضنى الحب فقد عرفت هي من فورها علة هذا البكاء، وقالت له مواسية :

- كل شيء بخير يا طفلي... . . والآن قل لي : من هي ؟ . . .

وعندما أخبرها أوريليانو اطلقت ضحكة عريضة تفيض بالحنان، فهي تعرف ان قلوب افراد اسرة بوينديا لا تخفى عليها فيها خافية وقد علمتها

التجربة وتداول اوراق الطالع طوال قرن من الزمان ان تاريخ الاسرة هو بمثابة آلة تتكرر دوراتها عبر الزمن متشابهة متماثلة... وفي النهاية قالت له باسمه :

- لا تقلق... حيثما تكون هي الان، فستجدها في انتظارك!!!..

وكانت الساعة هي الرابعة والنصف عندما خرجت «أمارانتا أورسولا» من الحمام... وراها أوريليانو تمر قرب غرفته بروب الحمام وقد لفت رأسها بمنشفة... فتبعها على أطراف أصابعه وهو يتعثر من سكرته، ودلف الى مخدعها في اللحظة التي فتحت فيها الروب ثم أطبقته مرة ثانية فزعة مروعة... فاشارت صامته شطر باب الغرفة المجاورة التي كان بابها موارباً والتي كان أوريليانو يعرف ان جاستون جالس فيها يهم بكتابة رسالته..

قالت له بلا صوت :

- اذهب !..

ابتسم أوريليانو.. وطوقها بقوة.. فدافعت عن نفسها دفاعاً عنيفاً أسالت فيه دم وجهه بأظافرها.. وفي غمرة هذا الصراع الرهيب لم تستطع ان تفتح فمها بصراخ جزعاً من الفضيحة المؤكدة.. ولم تلبث أن خارت قواها...

الفصل التاسع عشر

على الرغم من أن ماكوندو أصبحت بلدة شبه مهجورة تكسوها الاتربة ويشوبها القيثظ اللافح، فإن أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» كانا المخلوقين الوحيدين السعيدين فيها، بل أسعد من في الأرض جميعا . . .

لقد عاد جاستون الى بروكسل . . فعندما مل انتظار الطائرة قام ذات يوم وجمع ضرورياته في حقيبة صغيرة وأخذ ملف اوراقه ومراسلاته وارتحل وفي انية أن يعود بالطائرة، «قبل ان يعلم آخر المطاف أن الشركة التي كان يفأوضها قد حولت الاتفاق الى جماعة من الطيارين الألمان عرضوا على الجهات المختصة مشروعا اكثر طموحا من مشروعه» . . وهكذا خلا الجو لأوريليانو و «أمارانتا أورسولا» لكي يطلقا العنان لغرامهما، حتى لم يحفلا بالتمل وهو يجتاح البيت اجتياحا، كما هجر أوريليانو المخطوطات ولم يعد يفارق البيت . . .

وفي فترات الصحو من حمى غرامهما العنيف كانت «أمارانتا أورسولا» ترد على رسائل جاستون وقد بدا لها بعيدا عنها بعداً سحيقاً وغارقاً في مشروعاته الى حد خالت معه أن عودته غدت مستحيلة . . .

وفجأة، ومثل صاعقة تنفض من السماء تلقت «أمارانتا أورسولا» في غفلة أنشوة نبأ قرب عودة جاستون بعد فشل مشروعه . . . لقد فتحت هي وأوريليانو اعينهما بعد زوال الغشاوة، وغاصا في أعماق نفسيهما، وتطلعا الى الرسالة وأيديهما على قلبيهما، وأيقنا انهما لصيقان احدهما بالآخر الى حد يؤثران معه الموت على الافتراق . . وهكذا سطرت لزوجها

رسالة كانت هي النقائص بعينها، كررت فيها الإعراب عن حبها له وشوقها لرؤياه من جديد، ولكن في نفس الوقت اعترفت اعترافا قديرا باستحالة العيش بغير أوريليانو. . . وعلى عكس ما كانا يتوقعانه، فقد بعث اليهما جاستون برد هادئ شبه «أبوي»، أفرد فيه نحو صفحتين كاملتين كانتا بمثابة تحذير من تقلبات العاطفة، مع فقرة أخيرة أعرب فيها عن أصدق تمنياته لهما بسعادة تماثل سعادته في فترة زواجه القصيرة. . . والحق أن هذا المسلك كان أبعد ما يكون عن تصور «أمارانتا أورسولا» إلى حد أنها شعرت بالمهانة إذ رأت أنها أعطت زوجها الذريعة التي كان يريد لها لكي يهجرها لمصيرها. . . أما أوريليانو فقد راح يسري عنها وبذل الجهد ليبين لها أنه يستطيع أن يكون في مرتبة الزوج في الضراء كما في السراء، حتى أن المطالب اليومية التي حاصرتهما بعد أن نفذت البقية الباقية من نقود جاستون خلقت بينهما لونا من التضامن إن لم يكن في قوة الغرام المتقد إلا أنه لم ينل من عاطفتهما المشبوبة. . .

وأصبحا ينتظران مولودا. . . وخلال فترة الحمل حاولت «أمارانتا أورسولا» التكسب من صنع عقود للزينة من عظام الاسماك. . . ولكن باستثناء فتاة الصيدلية المجاورة التي ابتاعت عددا محدودا منها، لم تستطع إيجاد زبائن آخرين. وأدرك أوريليانو لأول مرة أن حذقه في اللغات، ومعرفته الواسعة التي اكتسبها من دائرة المعارف المصورة، وبراعته في الإحاطة بالوقائع والأماكن البعيدة دون أن تتوافر له رؤيتها. . . كل ذلك كان غير ذي جدوى، مثل علبة المجوهرات الحقيقية الخاصة بزوجته، والتي لا بد أن قيمتها كانت تساوي أكثر من كل ما يملكه سكان ماكوندو السابقون جميعا. . .

لقد استطاعا البقاء بين الأحياء بمعجزة. . . وعلى الرغم من أن «أمارانتا أورسولا» لم تفقد بهجتها وبشاشتها، فقد اعتادت أخيرا أن تجلس

في مدخل البيت بعد الغداء في لون من القيلولة تشويه البقطة والسهم . . . وكان أوريليانو يصاحبها في هذه الجلسات . . . وكانا أحيانا يقيان هكذا صامتين حتى حلول الليل، متقابلين، بأعين تتبادل النظرات، متحابين بتلك الفورة التي كانت لهما في أول العهد بالغرام الفاضح، فلا يملكان ازاء الشك في المستقبل الا أن يديرا قلوبهما الى الماضي . . . وفي هذا الماضي كانا يستعيدان صور الطفولة السعيدة عندما كانا يخوضان في مياه الامطار ويعبثان بالفقايع، وعندما كانا يقتلان السحالي بوضعها حول رقبة أورسولا العجوز الكفيفة، وعندما يمت «أمارانتا أورسولا» شطر المسبك عصر ذات يوم وأخبرتها أمها فرناندا أن أوريليانو الصغير ليس له أب معروف لأنهم عثروا عليه في سلة طافية في النهر . . . وكل ما استطاعا التوصل اليه بعد دراسة كافة الاحتمالات هو أن فرناندا لم تكن أم أوريليانو، ومالت «أمارانتا أورسولا» الى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس، تلك التي لم تذكر من أمرها سوى الحكايات الشائنة عنها، وما لبث هذا الافتراض أن ولد في قلبها شيئا من الهلع . . .

وعندما تعذب أوريليانو بما بدا له من أنه أخ لزوجته، فقد هرع الى الابرشية للبحث في سجلاتها العطنة التي أكلها العث عن اثر يرشده الى أبويه . . . ولما طال بحثه دون جدوى نظر اليه القس الكهل المقعد في مكانه بسبب الروماتزم وسأله بإشفاق عن اسمه، فأجاب :

- أوريليانو بوينديا . . .

فقال له القس بلهجة قاطعة :

- اذن لا تتعب نفسك في البحث . . . منذ سنوات بعيدة كان هنا شارع بهذا الاسم، وفي تلك الايام كان من عادة الناس أن يسموا مواليدهم بأسماء الشوارع . . .

فقال أوريليانو وهو يتجف حنقاً :

- هكذا ؟ . . أنت ايضا لا تصدق ؟ . .

- أصدق ماذا ؟ . .

فرد أوريليانو بقوله :

- . . . إن الكولونيل أوريليانو بوينديا خاض اثنتين وثلاثين حرباً أهلية ونحسرها جميعاً، وإن رجال الحكومة قتلوا بالرصاص ثلاثة آلاف رجل في ميدان المحطة وحملوهم بالقطار وألقوا جثثهم في البحر ؟ . .

فتفرس فيه القس بنظرة رثاء وتنهّد قائلاً :

- آه يا ولدي . . . يكفي أن أؤكد أنك وأنا موجودان في هذه اللحظة . . .

وهكذا تقبل أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» قصة السلة الطافية، لا لأنها صدقها، بل لأنها وفرت عليهما الهلع . . . ويتقدم عهد الحمل ازداد ارتباطهما واندماجهما في العزلة المطبقة على البيت، ذلك البيت الذي لم يكن يحتاج إلا إلى نفخة واحدة أخيرة لكي يتداعى ويتفوض . . . وقد اقتصر وجودهما على جانب محدود فيه هو الذي يبدأ من مخدع قرناندا حتى بداية المدخل، حيث كانت «أمارانتا أورسولا» تجلس لكي تخطئ ثياب المولود المنتظر . . . أما باقي المنزل فقد أصبح نهياً للدمار بفعل النمل ومساير الحشرات، حتى اضطر الاثنان إلى تحصين منطقتيها بموازل من الجير ضد جيحافل النمل . . . وكان من جراء شعرها الطويل المهمل، والبقع التي بدأت تظهر على وجهها، وتورم ساقها، وتشوه قوامها اللدن . . . كان من جراء هذا كله أن تغيرت «أمارانتا أورسولا» تماماً، فلم تعد ذلك المخلوق الذي كان ينضج شباباً عند وصولها إلى البيت لأول مرة مع زوجها الأسير بالطوق حول رقبته . . . ولكن ذلك لم يغير من حيويتها وروحها الوثابة، إذ قالت مرة ضاحكة :

- من كان يصدق أن الامر سينتهي بنا الى أن نعيش كالمتوحشين !

ومع هذا فقد أمضى أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» الشهور الاخيرة وأيديهما متشابكة، وانتهى بهما الحب الى الولاء للطفل الذي جاءت بذرته في سعار الحرام... فإذا كان الليل وهما متعانقان مآكانا ليفزعنا من تلك المنطقة التي يحدثها النمل والعت، وذلك الحفيف لنماء الحشائش في الغرف المجاورة.. وكثيرا ما أيقظهما مسرى أشباح الموتى في الظلام.. كان يخيل اليهما أنهما يسمعان أورسولا العجوز وهي تغالب قوانين الخليفة للحفاظ على تسلسل الأسرة، وجوزيه اركاديو بوينديا الكبير وهو دائب في سعيه وراء المخترعات، وفرناندا في صلواتها، والكولونيل أوريليانو بوينديا وهو يخادع نفسه بالحروب وصنع الاسماك الذهبية الصغيرة، وأوريليانو الثاني وهو يقضي نجه وحيدا في غمار مجونه وفتونه. وعندئذ يبدو لهما أن هذا التحول الشبحي قادر على الانتصار على الموت، فكان يسعدهما أن يمضيا في حبهما في كينونتهما الطيفية هذه الى أبد الأبد.

ثم جاء عصر يوم الاحد الذي شعرت فيه «أمارانتا أورسولا» بآلام المخاض... ولما جاءت القابلة مددتها على مائدة الطعام وجعلتها تقوم بحركات عنيفة الى أن غطت صبحانها صراخ المولود الذكر الضخم الذي بزغ الى نور الوجود... ومن خلال دموعها رأت «أمارانتا أورسولا» أنه سيكون واحدا من سلالة بوينديا الجبابرة بقوة ومخائل عزمه البادية عليه مثل جوزيه اركاديو الفحل، ويعينه المفتوحين العرافتين مثل أعين من تسموا بإسم أوريليانو.. وكأنه نبوءة لبداية تسلسل الأسرة من جديد وتطهيرها من دنس الفواحش والفسوق وأثقال العزلة والوحدة..

وفي هذا لم تتمالك «أمارانتا أورسولا» أن قالت :

- هو متوحش حقيقي... سنسميه رودريجو..

ولكن زوجها عارضها قائلا :

- لا.. سنسبىه أوريليانو، وسوف ينتصر في الحروب الثانية
والثلاثين..

وبعد قطع الحبل السري بدأت القابلة تمسح بخرقه ما علق بجسد
الطفل في ضوء المصباح الذي رفعه أوريليانو.. وعندئذ لم يروا الا بعد أن
أداروا الطفل على بطنه أن به شيئا أكثر مما في سائر الذكور.. فلما انحنوا
فوقه لفحصه، اذا هو ذيل خنزير..

لم يزعج كلاهما.. فإن أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» لم يكونا
عارفين بما كان في سوابق الأسرة، ولا تذكر تلك المحاذير المروعة التي
قالتها أورسولا العجوز عما ينجم من تزاوج الأقارب أبناء الأسرة الواحدة،
كما أن القابلة سكنت روعهما بقولها إن الذيل يمكن قطعه بعد أن يصل
الطفل الى مرحلة «التسنين».. ثم حدث ما أنساها حالة الطفل، فقد
أصبحت «أمارانتا أورسولا» بنزف حاد عجز عن وقفه كل تطبيب القابلة..
وخلال الساعات الاولى حاولت «أمارانتا أورسولا» الاحتفاظ بمرحها
ودعابتها، حتى أمسكت بيد أوريليانو المرتعج ورجته ألا يقلق، لأن من كانت
مثلا لا تموت ضد ارادتها، هكذا قالت، وانفجرت ضاحكة سخرية من
محاولات القابلة.. ولكن عندما بدأ أوريليانو يفقد الامل، اخذت بينتها
تتضاءل، الى أن انتابها خدر النعاس.. وبعد جهود أربع وعشرين مضنية
استعانوا فيها بكل ما قدروا عليه حتى الرقى والتعاويذ والابتهالات، توقف
التزف فجأة دون مزيد من الأسعاف، واستحال مجيها الى النحول، وزالت
البقع من وجهها مخلفة هالة من المرمر، وعادت اليها البسمة..

كانت داهية لم يمن أوريليانو بأشد منها في حياته.. وفي غمرات
بلواه وضع الوليد في السلة التي أعدتها له أمه سلفا، وغطى وجه الجثة

بملاءة، وغادر البيت هائما على وجهه في البلدة . . . كان يبحث عن أحد ما يبيته مصابه، ولما قادته قدماء إلى مكتبة القطالوني وجده قد ارتحل عائدا الى بلاده . . . فلم يستطع ان يغالب دموعه التي تفجرت لطول ما حبسها في مآقيه أمام فراش «أمارانتا أورسولا» وهي في دور الاحتضار . . . وراح يلطم الجدار يقبضتي يديه حتى ادماهما . . . وفي النهاية تذكر الطفل، فقفل عائدا الى البيت . .

لم يعثر على السلة . . .

تملكته أول الامر فرحة غامرة. فقد ظن أن «أمارانتا أورسولا» قد استيقظت من الموت لكي ترعى الطفل . . . لكن جثتها كانت كوما من المعظم تحت الملاءة . . . وعندما فطن الى أنه عندما وصل ألفى باب غرفة النوم مفتوحا، لم يلبث أن يعم شطر غرفة الطعام ونظر فيها . . . كانت الآثار والبقايا المتخلفة عن الولادة لا تزال كما هي . . .

فقد بدا له أن القابلة ربما عادت في وقت ما من اجل الطفل، ووجد في هذا الخاطر وقفة للراحة والتفكير . . . فجلس في المقعد الهزاز وهو نفس المقعد الذي جلست فيه من قبل أمارانتا وهي تلاعب الكولونيل جيريلدو ماركيز الشطرنج، والذي جلست فيه بعد ذلك «أمارانتا أورسولا» لتخيط ملابس الطفل قبل أن يولد، وفي لحظة الذكرى الخاطفة شعر بأنه عاجز عن احتمال وقر ذلك الماضي في قرارة روحه، فإذا أضيفت اليه اثقال الحاضر كان القرر ابهظ من أن يحتمله انسان . . . وفي خلال ذلك راعه اصرار العناكب وهي تعمل دائبة بين شجيرات الورود الميتة، وحفيف الهواء وهولا يكل ولا يتوقف . . . وعند هذا الحد وقع نظره على الطفل . .

كان كيسا يابسا متنفخا من الجلد، التفت حوله نمال الدنيا كلها تسحبه شطر جحورها على امتداد الممشى الحجري في الحديقة . . .

لقد عجز أوريليانو عن الحركة . لا لأنه شل من الهلع ، بل لأنه تذكر في هذه اللحظة الرهيبة المروعة تلك العبارة التي قرأها في مخطوطات مالكويداس والتي تقول : «إن أول السلالة سيربط في شجرة، وآخرها سوف تأكله النمل» . . .

لم يكن أوريليانو في كل حياته الماضية اصفى ذهنًا مما كان الان وهو يسمر ابواب البيت ونوافذه بالعوارض المتصالبة المتخلفة من عهد فرناندا، حتى لا تستدرجه أية مغريات من العالم الخارجي، اذ قد عرف الان أن مصيره مكتوب في مخطوطات مالكويداس . . .

وجدها سالمة من أي سوء . . . وراح يفك طلاسمها صابرا مستعينا بمفاتيح الشفرة التي وفق اليها في دراساته الطويلة الماضية والتي أدت تطورات حياته الاخيرة الى انقطاعه عن اتمامها . . . لقد حشد مالكويداس وقائع تاريخ الاسرة على مدار قرن من الزمان. وإن ركزها في مدى واحد سبق به الزمن . . . وكان أوريليانو في لهفة بالغة لمعرفة منشئه، فجعل يتخطى الصفحات متعجلا في الوقت الذي بدأت الريح تهب فيه حارة مليئة بأصوات الماضي وحفيف الزهور الذابلة، بيد أنه لم يحفل بها لأنه ما لبث ان اكتشف بواكير وجوده في ذلك الجد الماجن الذي سعى عبر الجبال للفوز بامرأة جميلة لم يجد عندها السعادة التي كان ينشدها . . . عرف فيهما «أوريليانو الثاني وفرناندا» . . . وأسرع يتابع خفايا منبته الى أن اطلع على واقعة حمل أمه «ميم» له بين العقارب والفراس الاصفر في حمام وقت الغروب، حيث أطفأ شاب ميكانيكي سورة عاطفته بين ذراعي امرأة منحته نفسها تمردا على كافة القيم . . . ولقد بلغ من شدة استغراق أوريليانو أنه لم يشعر بالريح وهي تعنف وتستحيل الى عاصفة خلعت الابواب والنوافذ وأطاحت بسقف الجناح الشرقي وخلخلت دعائم البيت . . . فعندئذ فقط اكتشف ان «أمارانسا أورسولا» لم تكن اخته، بل كانت خالته، وكان ثمره خطيئتهما ذلك المولود

الاسطوري الذي كتب عليه أن يكون آخر سلالة الاسرة . . .

عند هذا الحد كانت ماكوندو إعصاراً مروعا من الاتربة والانقراض المتطايرة، ولكن أوريليانو مضى يقلب الصفحات ليجاوز وقائع حياته الراهنة ويطلع على الفقرات التي تتنبأ بتاريخ وظروف وفاته . . وقبل ان يصل الى الصفحة الاخيرة كان قد أدرك مسبقاً أنه قد كتب عليه ألا يسرح هذه الغرفة قط، اذ خط في لوح القدر أن بلدة السراب هذه ستمحوها الرياح من على ظهر الأرض محوا وتزول ذكراها من الاذهان لحظة أن يفرغ أوريليانو بابلونيا من فك طلاس المخطوطات، وأن كل ماورد بها لن يتكرر في مسار الزمان الى الأبد، لأن السلالة التي قضى عليها بأن تعيش مائة عام من العزلة لن تتاح لها فرصة اخرى لامتداد البقاء على وجه الأرض .

نمت



دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء - ص.ب. ١١٣/٥٧٢٠

دمشق : الجباز - ص.ب. ١١٦٣٧

هاتف ٢٢٥٢٢٦ .. سبيل تجاري ٤٩٨٥٧